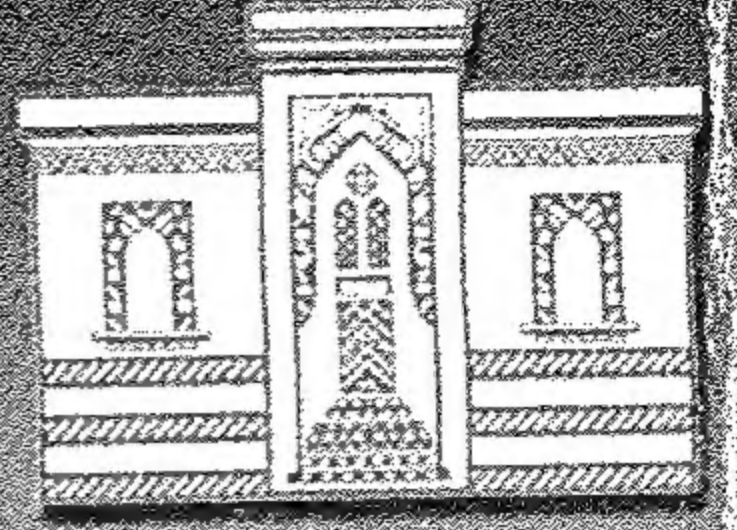


مصر
النهضة



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

الفرنسيون في صعيد مصر

المواجهة البالية (١٧٩٨ - ١٨٠١)



٦٠

د. ناصر أحمد إبراهيم

الفرنسيون فى مصر

المواجهة المالية (١٧٩٨ - ١٨٠١)



دار الكتب والوثائق القومية

الإدارة المركزية للمراكز العلمية

مركز تاريخ مصر المعاصر

الفرنسيون في صعيد مصر

المواجهة المالية (١٧٩٨ - ١٨٠١)

تأليف

د. ناصر أحمد إبراهيم

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

إبراهيم، ناصر أحمد.

الفرنسيون في صعيد مصر: المواجهة المالية ١٧٩٨
- ١٨٠١ / تأليف ناصر أحمد إبراهيم . - [القاهرة]: دار
الكتب والوثائق القومية، 2005.

278 ص ؛ 29 سم. - (سلسلة مصر النهضة)

بشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 9 - 0368 - 18 - 977

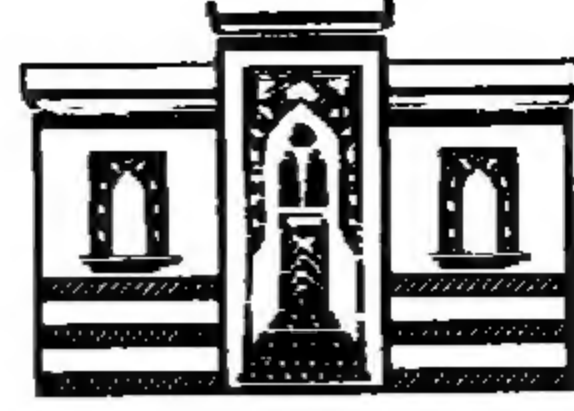
٩٦٢,٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٩١١ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 18 - 0368 - 9



دار الكتب والوثائق القومية

الإدارة المركزية للمراكز العلمية

مركز تاريخ مصر المعاصر

مصر النهضة

سلسلة دراسات علمية في تاريخ
مصر الحديث والمعاصر

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. محمد صابر عرب

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية

أ.د. رفعت هلال

رئيس التحرير

أ.د. أحمد زكريا الشلق

المدير التنفيذي

كمال أحمد محمود

سكرتير التحرير

عبد المنعم محمد سعيد

الآراء الواردة بالنص لا تعبر عن رأى
هيئة التحرير ولكن تعبر عن رأى المؤلف

أسس هذه السلسلة

أ.د. يونان لبیب رزق

عام / ١٩٨٢

للمراسلات / مركز تاريخ مصر المعاصر /
دار الكتب والوثائق القومية / كورنيش
النيل - رملة بولاق -

إخراج فنى وماكيت
محمد عماد

الإشراف الفنى
على أحمد خليفة

تقديم

تشكل المقاومة المصرية المستمرة للغزوة الاستعمارية الفرنسية لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) عاملاً مهماً من عوامل فشلها في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، وعلى رأسها تأسيس مستعمرة فرنسية في مصر تكون قاعدة لامبراطورية فرنسية، على غرار الإمبراطورية البريطانية. وقد تعددت أشكال ومجالات مقاومة المصريين للغزاة، منذ وطئت أقدامهم أرض مصر، وسواء كانت هذه المقاومة نابعة من شعور ديني واضح، أو من إرهابات شعور وطني كامن، اتخذ شكل فكرة «الذود عن الوطن»، أو كانت المقاومة نابعة من ضرورة التصدي لغزاة أجنبي، تعرضوا لأرزاق الناس وتدخلوا في مألوف حياتهم، مما حرك لديهم غريزة الدفاع عن النفس والكيان.

فأيا كانت عوامل أو طبيعة هذه المقاومة، فالثابت أننا أمام شعب يقاوم المحتل ويتصدى له بكل ما ملكت أيدى أبنائه، ومنذ لحظة الغزو الأولى، الأمر الذي جعل قائد حملة الغزو - بونايرت - يغير من حساباته بعد نحو عام من الاحتلال، بعد أن أدرك أن جنوده في حرب مستمرة، جعل المصريون خلالها حياتهم جحيماً لا يطاق.. لقد رفع المصريون منذ البداية لواء العصيان والتخريب والمقاومة السلبية، في القاهرة وشتى ربوع الدلتا والصعيد، وابتدعوا أساليب نضال كانت مثار دهشة وحنق وقسوة المحتلين، ومع ذلك لم يهنوا ولم يستكينوا، وتوجوا مقاومتهم بثورتى القاهرة الأولى والثانية، ليثبت المصريون أن المقاومة «إرادة وفعل مستمر» قبل أن تكون أسلحة وجيوشاً منظمة ومدرية تدريباً حديثاً..

ويبدو صحيحاً أن المتعلمين والنابهين من المصريين أدركوا، خلال الصراع، ومن خلال «صدامهم مع الآخر» ضعف إمكانيات وإدارة بلادهم، وتردى أوضاعهم الحضارية، أيقنوا ذلك وبلادهم تتصدى لجيش أنتجته حضارة حديثة تعتمد على العلم والعقل والآلة والصناعة، فعرفوا أن لا منجاة لمصر إلا بالنهوض وبالأخذ بأسباب وجوهر الحضارة الحديثة، بالإرادة الذاتية، وبالتعاون، وليس تحت قعقة السلاح أو بالرضوخ للمستعمر والذوبان فيه.

ورغم أن هناك عشرات الدراسات العلمية التى كتبت عن الغزوة الاستعمارية الفرنسية لمصر، سواء كانت بالعربية أو الفرنسية، عالجت هذا الموضوع من جوانب متعددة، إلا أن الدراسة التى تقدمها اليوم لمؤرخ شاب، نابه وواعد، هو الدكتور ناصر أحمد إبراهيم، مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة، قد تميزت بأنها تناولت مجالاً مهماً من مجالات مقاومة المصريين لسلطات الاحتلال الفرنسى، وهو المجال المالى والاقتصادى، وكشفت كيف أن الفرنسيين واجهوا حصاراً اقتصادياً ومالياً خانقاً فى داخل البلاد، قامت به جماعات محلية كانت تحتكر الخبرة بإدارة الجهاز المالى والضرائبى واستطاعت من خلال حجب المعلومات ومراوغة سلطات الاحتلال وتضليلها، أن تكلفها خسائر فادحة، وحالت دون تمتعها بموارد البلاد المالية والسيطرة على إدارتها.. لقد استخدم المصريون سلاح «المعرفة الحسابية» فى مقاومة المحتل بكفاءة ومقدرة حالت دون تدفق أموال الضرائب المفروضة على المصريين إلى خزانة الجيش الفرنسى على نحو لم يتوقعه أو يقدره الفرنسيون، مما ساهم فى إفشال مشروعهم الاستعمارى فى النهاية.

ولا أود أن أستبق الكاتب إلى عقول قرائه لأتحدث عن أهمية دراسته، لكننى أود الإشارة إلى أن هذا العمل العلمى الذى هو فى أصوله أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، أبرز كيف أن المصريين جميعاً، أقباطاً ومسلمين، كانوا فى همّ المقاومة سواء، الأفندية والمباشرين الأقباط منهم أو مشايخ القرى والمتعهدين من المسلمين. فقد وحدّ الوعي الغريزى بينهم فى المقاومة، وأثبتوا أن محاولات الفرنسيين تقريب فئة من هؤلاء أو أولئك باءت بالفشل والخسران.. كما أود الإشارة كذلك إلى أن هذه الدراسة اعتمدت بشكل أساسى على مصادر وثائقية أرشيفية وأدبية، من الأرشيفين المصرى والفرنسى، على درجة كبيرة من الأهمية، سجلها المؤلف فى قائمته البibliوجرافية، ورغم أنها قد تتاح للكثيرين، إلا أن توفر المؤلف على دراستها والاستفادة منها بكفاءة عالية، قد أثرى الدراسة، وكشف عن جوانب مهمة من تاريخ مصر الحديث.

لقد قدم الدكتور ناصر إبراهيم دراسة على جانب كبير من الأهمية تشكل إضافة علمية رصينة لصفحة من صفحات تاريخنا القومي، تمثلت في مقاومة الغزاة في ميدان من أهم ميادين المقاومة، مما ساهم في تعبيد الطريق لنهضة مصر، بإرادة حكامها، خلال العقود التالية بعد زوال الاحتلال.. ونحن إذ نهني المؤلف على هذا الكتاب، فإننا نأمل منه المزيد من الجهود العلمية الموفقة خدمة لتاريخ وطننا ونهضته..

والله ولي التوفيق،،،

رئيس التحرير
أ. د. أحمد زكريا الشلق
أبريل ٢٠٠٥

تقديم

للأستاذ الدكتور / رءوف عباس حامد

اهتم معظم من درسوا الحملة الفرنسية على مصر بالنظرة الشاملة الكلية لهذا الحدث باعتباره نقطة تحول فى تاريخ مصر ومنطقة الشرق الأدنى، وحافزاً للسياسات الاستعمارية الغربية تجاه مصر والمنطقة. ولم يهتموا بالدراسة المتعمقة للواقع الاقتصادى - الاجتماعى المصرى فى تلك السنوات الثلاث التى قضتها الحملة فى مصر إلا نادراً. وغلب على معالجة موقف المصريين من الحملة التركيز على ظاهرة المقاومة كما عبرت عنها ثورتا القاهرة الأولى والثانية وبعض ما دار فى الصعيد من مواجهات بين الفرنسيين والمماليك. فكانت تلك النظرة الكلية الشاملة للحملة أشبه ما تكون بنظرة طائر محلق فى السماء، ترى مجمل الصورة، ولا تبين تفاصيل مكوناتها، لأن ذلك لا يتحقق إلا لمن يجوس خلال الدروب، يتفحص تلك المكونات، ويتتبع أسسها وجذورها من خلال ما يجريه من "حفريات" فى وثائق الفترة ومصادرها، وهى على درجة عالية من الوفرة، ولا زال الكثير منها فى حاجة إلى الاستخدام لإعادة تركيب حدث الحملة الفرنسية بصورة تعبر عن حقيقة ما جرى على أرض مصر، وصلته بأوضاع الدولة العثمانية وأحوالها، والتغيرات الاستراتيجية - فى عالم البحر المتوسط عموماً - الناجمة عن الحملة الفرنسية، إلى غير ذلك من تطورات كان لها أثرها البالغ فى صياغة تاريخ القرن التاسع عشر.

وهذا الكتاب - الذى يسعدنى تقديمه للقارئ الكريم - يسد فراغاً فى الدراسات الخاصة بتاريخ الحملة الفرنسية على مصر بتسليط الضوء على موقف المجتمع من ذلك الحدث من خلال "الإدارة المالية لصعيد مصر"، فلا يضع السياسات المالية للحملة - وحدها - فى بؤرة الاهتمام، بل يغوص فى المصادر الوثائقية المصرية والفرنسية باحثاً عن بواعثها، كاشفاً الستار عن الأزمة الخطيرة التى كان يعانيها "جيش الشرق"، والتى أثرت على أداء الحملة كلها، وكانت تتمثل فى شح الموارد المالية، وعجزها عن الوفاء بمتطلبات الجيش الفرنسى الذى لم يكن أمامه سوى الاعتماد التام

على موارد مصر وحدها، لافتقاره إلى خط "إمداد وتموين" يربطه بفرنسا، لاستحالة إقامة مثل هذا الخط فى ظروف الحصار البريطانى فى البحر المتوسط، وتكالب أعداء فرنسا من جيرانها عليها.

وهنا نجد المؤلف يتخذ لنفسه منهجاً يرى فيه السياسة المالية للحملة الفرنسية بمنظار الظروف التى أحاطت بالحملة من منبعها إلى مصبها، وبعيون الأطراف المختلفة الفرنسية التى لعبت الدور الرئيسى فى رسمها، و"البيروقراطية" المالية المصرية التى كان عليها تنفيذها، ويضع فى بؤرة العرض والتحليل أحوال المجتمع المصرى عامة ومجتمع الصعيد خاصة فى تناوله لتلك السياسة، ويكشف عن آليات الأقباط، و"أفندية" الروزنامة، مصوراً الآثار السلبية لذلك على وضع "جيش الشرق"، والمشروع الفرنسى لمزاحمة بريطانيا فى شرق البحر المتوسط، تصويراً دقيقاً.

ولعل من أهم ما يخرج به قارئ هذا الكتاب ضرورة إعادة تقييم حدث الحملة الفرنسية على ضوء الظروف الموضوعية التى أحاطت به كما تكشفها الوثائق الفرنسية والمصرية، وضرورة إعادة النظر فى المبالغة غير المنطقية فى الآثار "الحضارية" أو "الثقافية" التى ترتبت على الحملة، فمثل تلك الآثار تحتاج إلى مدى زمنى أطول كثيراً من السنوات الثلاث التى قضاها جيش الشرق فى مصر، بقدر ما تحتاج إلى استقرار وأمن افتقدهما "جيش الشرق" فى مصر لاستمرار المقاومة بمختلف مظاهرها، وعدم توفر الموارد المالية الكافية لتغطية نفقات الجيش والإدارة.

ولا يعنى ذلك أن الحملة كانت مجرد "سحابة صيف" فى سماء تاريخ مصر، فقد كشفت للمصريين عجز وفساد النظام العثمانى / المملوكى القديم، وأكسبتهم قدراً ملحوظاً من الثقة بأنفسهم تجلت فى الحركات الاحتجاجية التى شهدتها السنوات التالية لجلاء الحملة عن مصر، والتى توجت باختيار محمد على والياً على مصر بإرادة نخبة المصريين فى عمل غير مسبوق فى تاريخ الحكم العثمانى.

وإذا كان محمد على قد وعى الوزن الحقيقى للنخبة المصرية التى قادت حركة الاحتجاج ضد الإدارة العثمانية والمماليك، فمالأها وتودد إليها حتى كسب ثقتها،

فاختارته والياً، ووضعتة على أول الطريق الذى دخل منه التاريخ، فإن مستقبل الدولة العثمانية، وما تمثله الحملة من تحول نوعى فى المطامع الغربية فى أملاك الدولة العثمانية، من تغلغل المصالح الاقتصادية تحت مظلة "الامتيازات الأجنبية"، إلى العدوان المسلح والاحتلال. ورأى أن النجاة من الخطر تتطلب إصلاحاً جذرياً فى أحوال الدولة العثمانية، فإذا كان وضعه لا يسمح له بتحقيق ذلك الإصلاح على مستوى الدولة كلها، فليبدأ بمصر مستعيناً بمواردها (التي ضنت بها على جيش الشرق)، ويكون أداة عسكرية حديثة تمكنه من فرض مشروعه الإصلاحى على السلطان.

وهكذا كانت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة "زلزال" هز مصر هزاً عنيفاً، وجاءت التطورات التى شهدتها مصر بعد جلاء الحملة "كتابع" لذلك الزلزال، بما فى ذلك الإصلاحات التى تمت على يد محمد على.

من هنا تأتى أهمية هذا الكتاب الذى يقدم تأصيلاً لظروف الحملة الفرنسية، وتشخيصاً لاستجابة المجتمع المصرى لما كانت تمثله من تحدٍ. وصاحب الكتاب باحث من نسيج فريد، لا يكتفى باقتناص مادته من مظانها الأصلية فحسب، بل يمعن النظر فيها مستخدماً كل ما توفر له من أدوات منهجية سوية، وهو لا يتعجل القفز إلى الاستنتاجات، بل يسعى دائماً للبحث عن البعد الغائب حتى تكتمل لديه ملامح الحدث موضوع الدراسة، ويبنى استنتاجاته عليها.

وقد صحبت الصديق ناصر أحمد إبراهيم فى رحلته على طريق دراسة المجتمع المصرى فى العصر العثمانى على مدى عقد من الزمان، ولمست ما لديه من طموح علمى، واستعداد لتحقيق ذلك الطموح، وحاولت ما استطعت أن ألعب دور "المرشد" الذى يوجه مسيرته على طريق رحلة طويلة، بدأها معى، لينطلق منها إلى آفاق علمية فى هذا المجال، لا يخالجنى الشك فى قدرته على بلوغها.

والله ولى التوفيق،،،،

المقدمة

لعل حدثاً من أحداث تاريخ مصر الحديث لم يحظ بمثل ما حظيت به فترة الاحتلال الفرنسي من اهتمام ؛ حيث تعددت وجهات النظر حول تقييمه . وعلى الرغم من قصر مدتها (ثلاث سنوات وبضعة أشهر) إلا أنها كانت حاسمة ومثيرة للجدل وخاصة عند ربطها بالإنجازات التي شهدتها مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ويمكن تحديد ثلاثة اتجاهات مختلفة حول تفسير هذا الحدث : فهناك اتجاه يرى أن الجيش الفرنسي كان في « مهمة حضارية » ينقل خلالها – عبر العنف – أيديولوجية « الحداثة » التي كانت جذيرة بنفى ملامح « المجتمع التقليدي » الذي تميز بالركود والتخلف ؛ نتيجة الارتباط بالدولة العثمانية . وعلى هذا النحو ، فإن تجربة الاحتلال الفرنسي يجب التعامل معها على أنها فريدة في نوعها ؛ لأن آثارها العديدة والدائمة طوت صفحة التاريخ العثماني الذي يسحبون عليه مقولة (التدهور والانحطاط) ، وأيضاً – وهو الأهم – لأنها قدمت مرجعاً أساسياً للتحويل المنظم (التدريجي) الذي قام به والى مصر محمد علي . وفي هذا السياق يميل أصحاب هذا الاتجاه إلى رد تجربة التحديث إلى « المؤثر الخارجي » الذي مثلته فترة الاحتلال الفرنسي^(١).

وعلى النقيض من ذلك أرتأى اتجاه آخر أن مصر صنعت لنفسها – قبل مجيء الفرنسيين بعقود طويلة – طريقاً نحو التنمية الرأسمالية ؛ وأن الاحتلال الفرنسي هو الذي أعاق هذا التطور وأحدث إرباكاً للمجتمع المصري بشكل عام^(٢) ، وفي الاتجاه نفسه يذهب آخرون إلى اعتباره حدثاً عرضياً ، ليس له بصمة واضحة ، ولا أثر دائم جدير بالاعتبار ، وأن المجتمع المصري كان مآله للتغير بدون هذه الحملة العسكرية^(٣).

أما الاتجاه الثالث والأخير فإنه يؤكد على أن مجيء الفرنسيين قد هز المجتمع المصري هزاً عنيفاً ، وجعله يشعر بصدمة شديدة A Traumatic Shock (والصدمة هنا ذات بعد مادي – ثقافي) كانت بمثابة المنبه الذي أيقظ المجتمع المصري على حقيقة موقعه من الآخر (الأوربي) ، وجعله يدرك أن صراع البقاء يقتضى تعويض الفجوة بالإصلاح والتزود بأسباب القوة . ومن هذه الزاوية كان الحدث مهماً لأنه حفز المجتمع نحو تطوير نفسه ، وإن كان هذا لا يعنى أن الحملة هي صاحبة الفعل الحقيقي في التغيير الذي يجب أن يظل مقروناً بالجهود غير العادية التي بذلها محمد علي ؛ باعتباره أكثر من أدرك دلالة ما يمثلته هذا الحدث بالنسبة لمصير الامبراطورية العثمانية ككل ، وأن تجربته في التحديث قد جاءت في سياق الاستجابة للتحدي الأوربي

الجديد. وإذا كان قد استعان فى تحقيق ذلك بالخبرة الأجنبية (والفرنسية فى مقدمتها) إلا أن نسق الإصلاح عنده جاء مختلفاً عن النمط الغربى^(٢).

ويبدو أن هذا الاختلاف الواسع بين المؤرخين قد جاء نتيجة للتركيز على دراسة «السلطة / الدولة» أو بالأحرى الجانب السياسى والعسكرى الذى بدا طاغياً على العديد من الدراسات بشكل لم يجعل للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى لهذه الفترة سوى جزء محدود فى تحليلاتهم. وقد بات من غير المقبول تماماً اختزال هذا الجانب الأساسى ، من أجل تصوير مشروع الاحتلال الفرنسى على أنه مجرد مرحلة فى مسيرة فاتح عظيم ؛ الأمر الذى يجعل الحاجة ماسة إلى إخضاع الحقائق الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بهذه الفترة للفحص الجهرى الدقيق ؛ سعياً إلى إعادة تقويم آثار هذا الاحتلال بقدر أكبر من الموضوعية ؛ وتقديم فهم أعمق لحقيقة التفاعل الذى تم بين الجانبين (الجيش والمجتمع المصرى).

كان هذا - فى واقع الأمر - وراء اختيار الباحث لموضوع «إدارة مالية الصعيد» ؛ باعتبار أن دراسة المالية تتيح لنا إمكانية رصد منطقة واسعة من احتكاك الناس بالسلطة (المحتلة) : فالضريبة هى المحك الذى جعل الطرفين يقتربان للغاية ، وخاصة مع اعتماد الفرنسيين اعتماداً أساسياً على حصيلة الموارد الضريبية فى الانفاق على «مشروع الاحتلال» ككل. ومن ثم فإن الاتفاق أو الاختلاف بشأن دفع الضرائب المستحقة ، وما يترتب عليه من إجراءات ، سواء على مستوى المواجهة أو الترويض المستمر - إنما يسمح بتحليل العلاقة التى ربطت الممولين للضرائب (وهم الذين يمثلون غالبية المصريين) بالمستولين الفرنسيين.

وثمة أهمية أخرى تتيحها دراسة المالية وهى المتعلقة بدراسة دور (الطوائف المهنية) التقليدية (المباشرون الأقباط - الأفندية - مشايخ القرى) التى كلفت باستمرار دورها فى تحصيل الضرائب ؛ وهو ما يسمح بتحليل موقف هذه الجماعات الإدارية من الاحتلال ، وطبيعة العلاقة التى ربطتهم به ، ودرجة الوعى بحماية مصالحهم ، والكيفية التى وسعوا بها مجال العمل ، وأخيراً مآل دورهم أو مستقبلهم الوظيفى بعد جلاء الاحتلال وبداية عصر الدولة المركزية ، ومحصلة التجربة بالنسبة لوضعهم الاجتماعى الاقتصادى.

وتعد دراسة المالية محورية - كذلك - بالنسبة لتحليل الأسباب الحقيقية وراء فشل مشروع الاحتلال نفسه والتى يصعب فهمها خارج إطار الظروف المادية الصعبة التى ألت بالجيش على مدار احتلاله للبلاد، ويتصل بذلك دراسة اصطدام الفرنسيين بالطبيعة المعقدة للنظام المالى (التقليدى) ، وبالكوادر المحلية القائمة على إدارته ، وهو صدام له مغزاه عند تحليل أبعاد تلك الأزمة المالية.

وكان تحديد الإطار الجغرافى للدراسة بأقاليم الصعيد ، على وجه التحديد ؛ لعدد من الأسباب التى جاء فى مقدمها أن الصعيد لم يحظ - على مستوى تاريخ مصر العام - بالقدر الكافى من اهتمام المؤرخين بدراسته ، وربما كانت قلة المادة المصدرية لها علاقة بذلك . غير أن الأمر يبدو مختلفاً تماماً فى حالة الأرشيف الوثائقى الخاص بالصعيد ، فى فترة الاحتلال الفرنسى ؛ إذ يحتفظ الأرشيفان المصرى والفرنسى بمادة غنية للغاية ، تسمح برصد وقائع الحياة اليومية للأهالى مع الإدارة الفرنسية .

وخلافاً لهذا كان للصعيد أهمية استراتيجية وأمنية ؛ وبدون تحقق السيطرة عليه كان يصعب استقرار السلطة المركزية بالقاهرة ؛ فقد كان الصعيد غنياً من جراء ما ينتجه من الحبوب والتى كان سكان العاصمة والسلطة وجيشها يعتمدون على الوارد منه . وفى هذا السياق كان تركز المقاومة المملوكية الثقيلة فى أقاليم الوجه القبلى سبباً فى زعزعة استقرار السلطة فى يد الفرنسيين ، وكان لهذا تأثيره السلبى فى إضعاف ثقة الأهالى وإثارة الشكوك فى مدى وجود تحول حقيقى للسلطة من المماليك إلى الجيش الفرنسى . وعلى ذلك لم يكن الصعيد كتلة جغرافية وبشرية معزولة أو مهمشة ، بل على النقيض من ذلك تماماً ، كان شريكاً أساسياً فى مجريات الأحداث الرئيسة . وإن نظرة واحدة على الفترة السابقة (نموذج صراع على بك الكبير مع الشيخ همام) أو اللاحقة لجلاء الفرنسيين (نموذج محمد على مع القوة المملوكية المتمركزة بالوجه القبلى) تكفى لتأكيد هذه الحقيقة .

ومن المؤكد ، بالقدر نفسه ، أن الأهالى ، بسبب حلقات الصراع المتتالية والطويلة ، كانوا أكثر حرصاً على متابعة كل ما يطرأ على السلطة المركزية من تغيرات . ومن ثم فإن دراسة الصعيد فى هذه الفترة تسمح بالتعرف على تصور الأهالى لهذا الحدث ، وما كان يعنيه بالنسبة لهم ، وخاصة أن الفرنسيين أعلنوا فى جميع القرى والنواحي عن مصادرة قرى الالتزام المملوكى التى كانت موزعة على معظم أقاليم الصعيد ؛ وهو ما يعنى أنهم صاروا فى علاقة مباشرة مع هذه السلطة الجديدة ، الأمر الذى من شأنه أن يزيد من هامش الاحتكاك اليومى ؛ ويسمح باختبار تأثير سياسة الاحتلال على المجتمع الريفى بصفة عامة .

والإشكالية الأساسية التى يناقشها هذا الكتاب تقوم على معالجة مسألتين ، الأولى : تتبع مراحل اصطدام الفرنسيين بالنظام المالى (التقليدى) ، وتحليل الظروف المختلفة التى اضطرهم إلى المضى فى إدارة مالية البلاد من خلاله . وتتجلى أهمية هذا الجانب فى أنه

يكشف عن واقع (الخصوصية) التى ميزت النظام الإدارى والمالى ؛ باعتباره نظاماً اقتصادياً / اجتماعياً ، أفرزه المجتمع فى ظل مرحلة طويلة ومعقدة ، أيضاً يتيح تناول هذه المسألة اختبار جدوى «المؤثر الخارجى» (الاحتلال الفرنسى) - قصير الأمد - فيما يمكن أن يكون قد ساهم به (سلباً أو إيجاباً) فى إحداث تغيير ما على هيكل البنية الأساسية للنظام الاقتصادى والاجتماعى.

والجانب الثانى من الإشكالية يقوم على دراسة مدى وعى الجماعات الإدارية (المباشرون الأقباط - أفندية الروزنامة - مشايخ القرى) بطبيعة التحدى الذى حاق بها، والكيفية التى بات من المتعين عليها أن تواجه بها كل مخاطره وآثاره السلبية ، سواء على مصالحها الخاصة أو على مستقبلها المهنى برمته. وإذا كانت هذه الجماعات قد وجدت نفسها مدفوعة إلى التعاون مع السلطة الجديدة (المحتلة) ، وإذا كانت كذلك قد واصلت دورها - بقوة - فى أعقاب جلاء الاحتلال ، بما فى ذلك احتفاظها بمواقعها الوظيفية فى ظل الدولة المركزية فى القرن الـ ١٩م - فإن هذا يثير التساؤل حول الإمكانيات الذاتية التى هأت لهذه الجماعات القدرة على تنسيق مصالحها الخاصة ، فى آن واحد ، مع كل القوى المتصارعة على السلطة ، وإلى أى حد كان رهانها على ما تمتلكه من معرفة حسابية ، وخبرة عميقة بإدارة النظام ، قد جعل لها دوراً فاعلاً فى تحديد أهميتها لكل سلطة ، ولا سيما فى ظل فترة حبلى بالتغيرات.

وقد تم تقسيم الدراسة إلى خمسة فصول وخاتمة وجاء الفصل الأول الذى حمل عنوان «الفرنسيون ونظام الالتزام» مدخلاً مهماً ؛ لتوضيح الإطار العام الذى انتظمت من خلاله مالية سلطة الاحتلال . والقضية الأساسية التى يعالجها هذا الفصل تتمثل فى تحليل الظروف الموضوعية التى اضطرت الفرنسيين إلى اعتماد العمل بنظام الالتزام وكوادره القديمة.

وإذا كانت مصادرة قرى الالتزام المملوكى قد أدت إلى ضم معظم قرى مصر إلى ما أصبح يعرف فى الوثائق المالية بـ «قرى الجمهور» - فقد تعين أن نولى اهتماماً بدراسة الآلية التى أديرت بها هذه القرى ؛ باعتبارها تشكل المصدر الرئيسى لإيرادات مالية الجيش. وهذا ما يعالجه الفصل الثانى والذى يوضح أن الفرنسيين لم يكن لديهم تصور ناجز لإدارتها ، وأن هذا هو ما دفعهم إلى إعادة طرحها للالتزام أو الإيجار السنوى إلا أن العرض سرعان ما منى بالفشل . وقد ناقش الفصل الأسباب التى أدت إلى تعذر إدارتها،

وعلاقة هذه المسألة بتعثر الجباية وبروز الأزمة المالية.

وينقلنا الفصل الثالث إلى مناقشة إدارة الجباية بالقرى التى أفرج عن التزاماتها ، فيما جرى توصيفه . بـ «قرى الرعايا» ويتضح من هذا الفصل أن الفرنسيين واجهوا صعوبة مماثلة فى حثّ الملتزمين على التجاوب فى دفع الضرائب ، وكيف أدى هذا إلى بروز مشكلة «تراكم متأخرات الميرى» ، التى ظلت مستعصية على الحل لفترة طويلة من عمر الاحتلال . ولما كان «الأفندية» هم المسئولين عن تنظيم حسابات الميرى ، فقد عرج الفصل على دراسة دورهم وإبراز تلاقى مصالحهم مع مصالح المباشرين الأقباط فى التكتّم الشديد على أسرار النظام المالى ؛ حتى بدت الرؤية معتمة بشكل حتم ضرورة بلورة مشروع إصلاحى يقضى بتنحية الملتزمين جانباً وتركيز الملكية فى يدى الدولة (سلطة الاحتلال) ، وتحرير المالية من قبضة الجباة المحليين .

ولما كان الدور الأكبر فى إحكام السيطرة على المالية يظل منسوباً للمباشرين الأقباط ؛ فقد تعين أن تفرد فصلاً كاملاً لدراسة دور هذه الجماعة ، وهو ما تم تناوله على محورين الأول : يتعلق بشكل التنظيم الذى ضم المباشرين الأقباط فى إدارة الجباية ، واهتم المحور الثانى بتحليل مراحل تطور العلاقة بين هؤلاء المباشرين والمسئولين الفرنسيين ، ورصد مواطن الاحتكاك والاصطدامات المتتالية وعلاقتها ، مدّاً وجزراً ، بتطور الوضع السياسى للفرنسيين أمام قوى التحالف .

ويناقش الفصل الخامس والأخير الأسباب التى كانت وراء فشل المراقبين الفرنسيين فى كسر طوق الاحتكار المعرفى للأقباط ، ومن ثم فى الإحلال محلهم ، حتى لقد بلغ الأمر بالإدارة أن وجدت الرقابة الفرنسية عديمة الجدوى ، وأنه لا بد من مسح الأراضي ؛ لبناء قاعدة بيانات دقيقة وشاملة ، على أن اتخاذ الفرنسيين لهذا القرار قد جاء متزامناً مع بدء اجتياح الجيشين العثماني والإنجليزى للبلاد ؛ لتصبح محصلة تعرف الفرنسيين على مصادر الإيرادات محدودة .

وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى خلصت إليها هذه الدراسة ، وأعقبناها بملاحق لبعض الوثائق الهامة التى تخدم حصاد الدراسة بالإضافة إلى خريطة توضح التوزيع الجغرافى للقرى بصعيد مصر .

وقد اعتمدت الدراسة على مجموعات أرشيفية متنوعة ومصادر أدبية أصيلة ، سواء فى الأرشيف المصرى أو الأرشيف الفرنسى وكان الباحث قد اعتمد على وثائق الحملة الفرنسية المودعة فى «المكتبة المركزية – جامعة القاهرة» والتى لم تلق بعد القدر الكافى

من التعامل معها من قبل الدارسين لهذه الفترة الهامة. وتقع هذه المجموعة فى ٢٢١ حافظة ، وهى وثائق أصلية ومنوعة ، وتغطى سنوات الاحتلال كاملة. وكان من حظ الباحث أن وجد بها مجموعة متميزة للوثائق المالية الخاصة بالصعيد ؛ ولاسيما ما كان يتعلق منها بتقارير الوكلاء الماليين والصرافين الفرنسيين ، وفى مقدمتهم بتروشى Petrucci ، ولابانوز Lapanouse ، فضلاً عن بعض القوائم والمراسلات الخاصة بمدير المالية بوسيلج Poussielgue ، وقوائم أخرى لبعض المعلمين الأقباط. زد على ذلك أن تقارير ومراسلات الجنرالات حكام الأقاليم فى الصعيد أمثال الجنرال دونزلو Donzelot والجنرال موران Morand والجنرال فريان Friant ، كانت مفيدة كذلك لأن هؤلاء الجنرالات انخرطوا فى جباية الضرائب وكلفتهم الإدارة المركزية بالقاهرة بمهام أساسية فى مساعدة الوكلاء الفرنسيين خلال جولات الجباية.

وضمت مجموعة المكتبة المركزية – كذلك – بعض الوثائق العربية. وكان أبرزها وأكثرها إفادة للبحث «مراسلات الأمير مراد بك» التى ألقت الضوء على طبيعة العلاقة التى ربطت المماليك بالفرنسيين بعد عقد معاهدة السلام ، وساعدت فى تحليل أثر هذه المعاهدة على شئون الجباية فى الصعيد.

واعتمدت الدراسة على أرشيف دار الوثائق القومية والذى تضمن نوعين من الوثائق، أحدهما أصيل تمثله بعض المجلدات والمحافظ المودعه بقاعة الاطلاع بالدار ، والآخر مجموعة ضخمة من المحافظ ، تقع فى ٥٧ محفظة ، تحوى صورة منسوخة بخط اليد عن أصول الوثائق بالأرشيف الفرنسى ، وعندما أتاحت الفرصة للباحث ؛ للإطلاع على وثائق الأرشيف الفرنسى بـ «فانسان» Vincennes تم استكمال المادة العلمية التى رصدت بأرشيف دار الوثائق القومية.

وتم التركيز على السجلات الخاصة بمراسلات الشخصيات التى لعبت دوراً محورياً فى الإدارة المالية ، والمصنفة تحت (B6- Registres) ، فتم دراسة أوراق ومراسلات مدير المالية بوسيلج المسجلة تحت رقم (٦١٨٣) واستيف (Estève) الأمين العام للخزانة والذى شغل فى أواخر فترة كليبر وعهد منو منصب مدير المالية والمحاسب العام للدخول (B⁶ 94) وأيضاً اعتمدت الدراسة على مجموعة مراسلات الوكيل المالى رينيه Reynier الذى كان يدير مالية أقاليم مصر الوسطى (المنيا – بنى سويف – الفيوم –

أطفيح) والذي شغل وظيفة مدير عام للدخول العيني في فترة منو (B⁶ 161, 162) وكذلك أفادت الدراسة من مراسلات حاكم القاهرة في الفترة الأخيرة الجنرال بليار (B⁶ 133) والتي أوضحت بشكل تفصيلي الموقف الحرج والظروف الصعبة التي تعرض لها الجيش في القاهرة والصعيد في الشهور السابقة على الحصار الأنجلو - عثماني، والتي اضطرت به إلى التفاوض على الجلاء. يضاف إلى ذلك المحفظة (B⁶ 47) التي أفادت الباحث في دراسة نموذج بما كان يقدمه الأفندية والمباشرون الأقباط من معلومات للإدارة المالية والتي لم تخرج عن العموميات وهو نموذج المذكرة التي حررها كل من المعلم يعقوب والمعلم لطف الله وحسين أفندي (في يونيو ١٨٠٠).

وكان من بين المحافظ الهامة للغاية محفظتا (B⁶ 81, 82) اللتان اشتملتا على تقارير كبير الأفندية «حسين أفندي» الذي كان مسئولاً عن تنظيم الميرى العيني انحصار من قرى الالتزام. وكانت المقارنة بين هذه التقارير وبين تقارير نظرائه من المباشرين الأقباط قد ساعدت في الخروج باستنتاجات معينة حول طريقة كل من الأفندية والمعلمين الأقباط في تسجيل البيانات، وما اتسمت به من غموض متعمد، وإلى جانب هذه التقارير استفادت الدراسة من القوائم الخاصة بأقاليم مصر الوسطى التي لم نجد لها في مجموعة المكتبة المركزية، وكان هذا مفيداً للحصول على معلومات تشمل سائر أقاليم الصعيد، والتي تصبح جميعها مصدراً يمكن مقارنته بما جاء في «دفاتر الترابيع» الموجودة بدار الوثائق القومية، وهي مقارنة جعلت الباحث أكثر اقتناعاً بوجود اضطراب في الأرقام المرصدة في المصدرين؛ وهو ما أكد ما جاء في المصادر الفرنسية بشأن عدم دقة البيانات التي أفضى بها المباشرون.

واعتمدت الدراسة - كذلك - على الوثائق والتقارير المنشورة وخاصة مجموعة الأوامر اليومية والمراسلات الخاصة بكبار القادة (بونابرت وكليبر ومنو) أيضاً هناك مراسلات الجنرال البولندي زايونشيك Zayonchek والتي نُشرت في عام ١٩١٠ تحت عنوان Les Polonais en Égypte (البولنديون في مصر) وهي مراسلات ضخمة وأفادت منها الدراسة كثيراً في رصد بعض أساليب التحايل والمراوغة. ولأنه كان حاكماً على ولاية بنى سويف والفيوم فقد قدم معلومات ثمينة عن دور الحكام الجنرالات في إدارة الجباية ولذلك عكست مجموعته صورة حية لحركة تحصيل الضرائب ومشكلاتها الأساسية وإلى جانب ذلك هناك (التقارير المالية) التي كان في مقدمتها أو بالأحرى

أكثرها أهمية تقرير بيروس Peyrusse (مساعد كبير الصرافين ثم تولى وظيفة السكرتير العام للمالية) ، نظراً لما أورده من معلومات تفصيلية ودقيقة للمالية الجيش منذ خرج من ميناء طولون ، وحتى عودته إلى فرنسا ، هذا فضلاً عن تحليله لمصادر الإيرادات ، وللأفكار التي طرحت في إصلاح المالية عموماً ، أيضاً رجعت الدراسة إلى موسوعة « التاريخ العلمى والعسكرى للحملة الفرنسية على مصر التي حررها «ريبو» Reybaud اعتماداً على تقارير شهود العيان من العسكريين والمدنيين فى الحملة. واستفادت الدراسة من كتابات الرحالة وخاصة رحلة فيفان دينون، وصحف الحملة (لاديكاد ايجيسيين وكورييه دى ليجيت) التي ترجمها صلاح الدين البستاني ، إلى جانب كتاب «وصف مصر».

وأولت الدراسة اهتماماً بالاعتماد على المصادر العربية التي يأتى فى مقدمتها كتابات عبد الرحمن الجبرتي ، وكذا نقولا الترك ، وحسين أفندى (الحاسبجى). وكانت الدراسات والبحوث العربية والأجنبية التي درست فترة الاحتلال الفرنسى لمصر مفيدة للغاية ، وكثيراً ما ساعدت الباحث على توسيع التحليل فى كثير من القضايا التي ناقشتها الدراسة.

ولا اعتقد أنه كان باستطاعتي تقديم هذه الدراسة لو لم أجد العون والتشجيع من أساتذتي وزملائي وأصدقائي. ويأتى فى مقدمتهم أستاذى الكبير الدكتور رؤوف عباس حامد الذى أدين له بالشئ الكثير ؛ فقد كان لاقتراحاته وملاحظاته المنهجية قيمة لا تقدر ، ولا أظن أن الشكر والتقدير والاعتراف بالجميل يوفيه حقه ، كما أن تجربتي الخاصة معه لا تعدو مثلاً واحداً لقصة أستاذ يتفانى فى خدمة تلاميذه.

واتوجه بالشكر للأستاذة الجليلة الدكتور نللى حنا التي أمدتني بمجموعة مهمة لوثائق الحملة الفرنسية، فضلاً عن أنها دائماً ما تفتح مكتبتها الخاصة لى ولزملائي ولا بد أن أسجل فضلها - كذلك - فى التناول الذى كتبت به هذه الدراسة.

وأود أن أشكر الأستاذ الكبير «أندريه ريمون» الذى اهتم بموضوع دراستي ، وأفادني بخبرته فى التعامل مع الأرشيف الفرنسى للحملة ، كما اهتم بموافاتي بأرقام المحافظ والسجلات الأكثر أهمية والمتعلقة بموضوع الدراسة ، فاختصر لى بذلك وقتاً طويلاً ، فله منى كل الشكر والتقدير. كما لا بد أن أشكر الصديق العزيز «نقولا ميشيل» الذى قدم لى مساعدات مهمة ، ولم يبخل بوقته ، حيث قطع مسافة طويلة من مدينة أكس أن بروفانس إلى باريس، لكى يساعدنى فى الإطلاع على الأرشيف كما زودنى بكتاب فى

قراءة الخطوط الفرنسية القديمة والذي سهل على كثيراً عند التعامل مع الوثائق الفرنسية، كذلك أشكر ميشيل توشرار وجان ميشيل موتون على ما قدماه لى من مساعدات.

واتوجه بالشكر للسيدة الفاضلة الدكتور سهر طرمان التى ساعدتني فى تصوير تقرير سكرتير المالية «بيروس» ومقالات أخرى كانت مفيدة للغاية لهذه الدراسة ولم أكن لأحصل عليها من دور المكتبات الألمانية لولا مساعدتها المخلصة، وأشكر الدكتورة مديحة دوس على مساعدتها لى فى قراءة بعض الوثائق الفرنسية التى كانت خطوطها صعبة للغاية.

وما كنت لاستطيع استكمال جمع مادة هذه الدراسة لو لم أحظ بمساعدة الدكتور كريستيان فيلو (مدير الدراسات العربية بالمعهد الفرنسى) ومساعدة الزميلة العزيزة الدكتورة رشيدة شبح، فهما اللذان حصلا لى على منحة من «بيت العلوم الإنسانية» Maison des sciences de l'Homme والتي بفضلها أمكننى السفر والاطلاع على وثائق الأرشيف الفرنسى، كما أشكر مدير هذا المعهد السيد «موريس ايمار» Aymard Maurice الذى وافق على المنحة وشملى برعايته على نحو بالغ اللطف، كما سهل لى الإطلاع على مكتبة المعهد، وأيضاً أشكر الصديق العزيز «جوليان» وعائلته التى استضافتنا لديها بباريس، وأشكرها - كذلك على ما قدمته لى من مساعدات كريمة ذلت لى - دون شك - الكثير من العقبات.

ويقتضىنى الواجب أن اتقدم بخالص الشكر إلى الدكتورة جيلان ألوم Ghislaine Alleaume على تفضلها بتقديم منحة لتصوير الوثائق والمصادر من مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (سديج CEDEJ)، وكذلك أشكرها على تشجيعها المستمر لى ولزملائى، واتوجه بخالص الشكر إلى الدكتور عبادة كحيلة الذى تفضل على بمراجعته لمخطوطة الدراسة، وأفادتني كثيراً ملاحظاته القيمة. وأسجل شكرى وتقديرى للصديق والأخ الكريم فتحى أحمد الذى تكبد - كذلك - عناء مراجعة النص بكل حب واهتمام.

وفى الختام أود أن اتوجه بالشكر إلى كل من سهل لى جمع مادة هذه الدراسة سواء إلى السادة العاملين بأرشيف دار الوثائق التاريخية القومية أو العاملين بالأرشيف الفرنسى. كما أوجه شكرى لجميع العاملين بدور المكتبات المختلفة.

وما التوفيق إلا بالله ،،،

القاهرة ٢٠٠٥

هوامش المقدمة

(١) هنري لورنس : الحملة الفرنسية في مصر ، بوناپرت والإسلام ، ترجمة بشير السباعي ، دار مينا ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ص ص ٨ ، ٦٢٥ - ٦٢٦ ؛ روير سوليه : مصر ولع فرنسي ، ترجمة لطيف فرج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ص ٣١ - ٣٤ ، ٧٢ - ٧٣ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ ؛ أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، ترجمة بشير السباعي ، عين للدراسات والنشر ، ط ١ ، ٢٠٠١ ، ص ٣٣٤ ؛ القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ص ص ٢٥١ ، ٢٥٩ .

(٢) بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية ، مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، مراجعة رءوف عباس ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ص ١٠ - ٦٦ .

(٣) كريستوفر هيرولد : بوناپرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، مراجعة محمد أنيس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٤٠٣ ؛ ليلي عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ، جزءان ، دار الهلال ١٩٩٨ ، ج ٢ ، ص ص ١٨٣ - ١٨٦ ، ٢٢٧ .

(4) Raouf Abbas : Bonaparte's Expedition as a Shock for Egypt, Mohamed Ali and The Rebirth of Egypt. (Forthcoming).

وإلى حد ما يتفق تقييم « جى فارجيت » مع هذا الاتجاه ، وإن كان ينظر إلى « الصدمة » على أنها « صدمة نفسية » Le choc Psychologique ساعدت المصريين على إعادة اكتشاف « الآخر الأوربي » بوصفه عالمًا جديدًا انظر :

Guy Fargette : Méhémet Ali, Le Fondateur de L'Égypte moderne, Paris 1996, pp. 20-21.

الفصل الأول الفرنسيون ونظام الالتزام

كان الفرنسيون يرون أن ثورتهم عالمية، تتجه إلى تحرير الشعوب مما بُليت به من نظم استبدادية، وذلك عبر تصدير مبادئها الثلاثة (الحرية - الإخاء - المساواة)، وأنه قد صار مقدراً على فرنسا التي بلغت ذروة الحضارة بثورتها المجيدة أن تخوض حروباً ضد أولئك الطغاة الذين استبدوا بمقدرات شعوبهم. وشكلت هذه الأفكار الإطار الأيديولوجي الذي بررت به حكومة الثورة إرسال جيوشها إلى البلاد التي استعمرتها^(١).

وتتجلى هذه الأفكار عينها في منشورات ومذكرات القادة، وفي صحف الاحتلال، وخاصة صحيفة "كورييه دي ليجييت" التي كانت ميداناً فسيحاً للتعبير عن هذه الأيديولوجية الثورية: فقد تم من خلالها نقد النظام المملوكي والذي وسمته بـ "العبودية" و"الاستبداد"؛ لأنه أتاح للأمرء المماليك تركيز الثروة بين أيديهم، من خلال استيلائهم على معظم العائد الربيعي للأرض، وهو ما كان سبباً في تردى الفلاحين في هاوية الفقر والبؤس الذي تنطق به معيشتهم في كل شئ (المسكن والملبس ونوعية الطعام وأدوات الزراعة الأكثر بدائية). وأن دور "جيش الشرق" - من وجهة نظر الجريدة - أن ينقذ مصر وأهلها من هؤلاء "الطغاة"، وأن يحرر أراضي الفلاحين والثروات من قبضتهم، ويعيد توزيعها بشكل عادل، وأن يخفف الضرائب إلى أقصى حد، والتي سوف تقررهما "قوانين مكتوبة" وتلغى في المقابل تلك الرسوم الشاذة التي تقررت بالعرف وبطول ممارسة الاستغلال الفادح. وأنه عند تحقق ذلك يصبح لدى الفلاحين الحافز على الإنتاج، وعلى زيادته، وحالئذ سوف يصير في إمكان مصر أن تستعيد سيرتها الأولى التي كانت عليها في عصور الفراعنة والبطالسة والرومان؛ "كصومعة غلال" لعالم البحر المتوسط، ومن ثم يعود لمصر ثراؤها القديم، الذي يجعلها تستعيد دورها التاريخي والحضاري. وعلى ذلك فإنه بوصول الجيش الفرنسي، أصبح المجتمع المصري بصدد لحظة فارقة في تاريخه؛ إذ بعدها يباشر الفرنسيون تغيير نظامه الاجتماعي والاقتصادي!!^(٢).

وفى الواقع كانت هذه مجمل الانتقادات التى وُجّهت لنظام "الالتزام" ضمناً عبر التعريض بالنظام المملوكى : فالمظالم والابتزازات التى مُورست من خلال هذا النظام أزيلت - على نحو ما ذكر بونايرت فى منشوره الأول للمصريين - ما كان سائداً " فى الأراضى المصرية من المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر " (٣) ، وبوصفه نظاماً استبدادياً، إلى هذا الحد، فإنه يصبح معادلاً لـ " الإقطاع "، بل إن مدير المالية "بوسيلج" سوف يؤكد، فى تقريره لحكومة الإدارة، بأن : " النظام المالى لمصر نظام إقطاعى تماماً " (٤). "Le Système des finances de L' Égypte est entièrement Féodal" ويجرى اعتبار " الملتزمين " كـ " السادة الإقطاعيين ملاك القرى " (٥) Seigneurs et propriétaires de Villages وبهذه المقاربة بين النظامين يمكن لبونايرت أن يصور الاحتلال على أنه الوسيلة الأساسية؛ لتحقيق الخلاص للمصريين، فالفرنسيون لم يأتوا إلا " لإسعاد هذا البلد " وتخليصه من " نظام ضريبى سيئ للغاية " (٦). ولا تحاول الدراسة مناقشة هذه المسألة؛ فمن الثابت أن مثل هذه المقولات كانت تتكرر، كأيدولوجية ثابتة، تُطرح على شعوب كل البلاد التى اقتحمتها جيوش الثورة (٧). وإنما يتم التركيز على دراسة موقف الفرنسيين من " نظام الالتزام " بعد تحقيق السيطرة النسبية على معظم الأقاليم، وبعد أن أصبحوا فى احتكاك مباشر بالنظام وبالفئات الاجتماعية المختلفة المتعلقة به : فهل كان فى الإمكان الإطاحة بهذا النظام المالى العتيق والضارب بجذوره فى تاريخ المجتمع ؟ وهل توافر لدى الفرنسيين القدرة على طرح البديل الذى يتلاءم مع عادات وقيم المجتمع ؟ أم أن قوة الأشياء فرضت نفسها، وظل البون شاسعاً بين الأفكار ذات الطابع الأيدولوجي، والواقع الاجتماعى الذى اصطدموا به ؟ وهناك تساؤل إضافى آخر : حول درجة استجابة الأهالى للأفكار التى طُرحت لتغيير النظام. إن الإجابة على هذه التساؤلات تبدو كفيلة بتوضيح الإطار العام الذى انتظمت من خلاله " مالية جيش الشرق "، ولاسيما فى "الصعيد" الذى كانت له خصوصية فى نظامه الضريبى الأكثر تعقيداً، عما ساد بأقاليم الدلتا، وهو ما لا بد قد ترك أثراً لها أهميتها على طبيعة المشكلات التى أثرت بين أهالى القرى والإدارة المالية.

يحتل بونايرت القاهرة في ٢٣ يوليو ١٧٩٨، وبعد أسبوع واحد (٢٩ يوليو) ينشغل بفكرة الإعداد لعقد جلسة خاصة "لديوان عمومي" يمثل فيه وفود من جميع الأقاليم. ويعد قائمة بالأسئلة التي سوف تطرح موضوعات واسعة للنقاش، كان في مقدمتها موضوع الملكية أو الحيازة الزراعية والنظام الضريبي السائد^(٨). غير أنه، على ما يبدو، تسبب تحطم الأسطول الفرنسي في "أبو قير" (٢ أغسطس)، وانسحاب مراد بك وانتشار قواته بأقاليم الصعيد، في إرجاء عقد هذا الديوان، ويتأجل معها، من ثم، البت بقرار حاسم في موضوع "الالتزام"، لحين استكمال السيطرة على أقاليم الصعيد، وملاحقة الممالك وتقويض قوتهم؛ للتأكيد على أن "السلطة المملوكية" قد فقدت شرعية وجودها، بعد هزيمة "إمبابة" (الأهرام) التي اعتبرتها صحيفة "كورييه دي ليجيبيت" (المثلة للدعاية الأيديولوجية) بداية حقيقية لزوال عهد العبودية والاستبداد^(٩).

وإذا كانت قرى الممالك تشكل الشطر الأوفى من الأراضي الخاضعة للالتزام، فإن تحديد موقف الفرنسيين منها يمكن أن يوضح حقيقة نواياهم من نظام الالتزام بصفة عامة. وبحسب النتيجة التي تتمخض عن ذلك يمكن أن نفهم مدى أهمية جدوى مناقشة موضوع "الالتزام" - بعد شهرين ونصف الشهر - في جلسة "الديوان العمومي" الشهيرة التي انعقدت في ١٥ أكتوبر ١٧٩٨: فيما إذا كانت هذه المناقشة ضرورية وذات دلالة من حيث أهمية مراعاة الفرنسيين لموقف جماعات المصالح والممولين للضرائب أم أن جلسة هذا الديوان قد جاءت في إطار الدعاية الأيديولوجية للسلطة المركزية الجديدة التي اعتبرت نفسها مالكة لكل الأراضي؟

مصير قرى الالتزام المملوكي

اتجه بونايرت، منذ اللحظة التي اقترب فيها الأسطول الفرنسي من سواحل الإسكندرية، إلى إعلام الجيش عن توجهه إلى مصر^(١٠)، وعن شروعهم في القيام باجتثاث سلطة الممالك من جذورها، ومصادرة متعلقاتهم والتزامات قراهم وعمل قوائم بها^(١١). وهو ما أكدته بعد ذلك، في أول منشور له يوجهه للمصريين في (٥ يوليو ١٧٩٨)؛ حيث أعرب عن تشككه في أصول مرجعية الحيازات الزراعية التي آلت للممالك بقوله:

"Si L' Égypte est leur ferm, qu'ils montrent le bail Que Dieu leur en a fait"

(إن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك، فليوردوا الحجة التى كتبها الله لهم) (١٢). وكان لا تتشاور هذا " المنشور " مردوده على الأمراء المماليك بالقاهرة : إذ بينما كان بونايرت يجرى عمليات الإنزال للجيش الفرنسى بالإسكندرية، كان المماليك يسارعون بحمل أموالهم، والنفيس والغالى من مدخراتهم " من البيوت الكبار المشهورة المعروفة، إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد، واستمروا طوال الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف " (١٣).

وجد بونايرت فى تشكيل " لجان الجرد والمصادرة "؛ حيث كان يرسل اللجنة تلو الأخرى إلى كل إقليم يجرى إخضاعه للجيش الفرنسى. وحال توجه الجنرال ديزيه للصعيد (فى أواخر أغسطس ١٧٩٨) تم تشكيل أربع لجان أساسية؛ تحصر قرى المماليك فى الأقاليم، وتصادر بيوتهم ومتعلقاتهم بها (١٤)؛ للحيلولة دون حصول مراد بك وأتباعه من الأمراء والكشاف على ما يدعم حركة مقاومتهم من ناحية، وللتأكيد على أن سلطات الاحتلال ماضية فى تجريد ممتلكاتهم فى شتى الأقاليم، وتحويلها إلى أملاك فرنسية من ناحية أخرى.

وإذا كانت حركة المصادرات الواسعة قد اتفقت مع الإطار الأيديولوجى المعلن عن شروع الاحتلال الفرنسى فى تفويض القوة المملوكية، إلا أن هذا لم يكن يمثل الاتجاه الحقيقى لموقف الفرنسيين من المماليك؛ إذ نجد بونايرت يرمى إلى اتباع " سياسة الاحتواء " جنباً إلى جنب مع " المطاردة " : فبعد أيام قليلة من احتلال القاهرة، وخلال انسحاب مراد بك إلى الصعيد، أرسل بونايرت إلى الزعيم المملوكى يدعوه للصالح والتحالف، على أن يمنحه أقاليم ولاية جرجا (إسنا - قنا - جرجا)، كالتزام كبير، يتمتع بها لنفسه ولأتباعه؛ عوضاً عما تم من مصادرات (١٥). وكذلك أوصى ديزيه بالتفاوض مع الأمراء المماليك (١٦).

وعندئذ يصبح مصير قرى التزام كل منهم مرهوناً بمدى استجابته للصالح والتعاون مع الاحتلال، وهو يصرح لمدير المالية " بوسيلج " : " بأن منح ملكية الأرض لبعض المماليك جدير بأن يجعل مصالحهم أكثر تعاضاً مع المماليك (المقاومين) " (١٧). وربما

أمل بونابرت من وراء ذلك تحقيق أسرع اندماج ممكن للمماليك ؛ فى تقديم خدماتهم للجيش الفرنسي؛ إذ كانت وجهة نظره فيهم لا تعدو كونهم " فرقة مرتزقة " يمكن تطويعها فى خدمة المصالح الفرنسية^(١٨).

ويبدو أنه مع تحقيق سيطرة شبه كاملة على أقاليم الصعيد، بعد شهر فبراير ١٧٩٩، استجاب بعض المماليك للعرض الفرنسي، وطلبوا الأمان واستردوا قرى التزامهم^(١٩). وفى دفاتر ترابيع ولايات الصعيد، وتقرير ميرى الالتزام لـ " حسين أفندى " لوحظ حضور واضح لعدد من الأمراء والكشاف والجرججية، ممن صنفت قراهم ضمن "التزامات الرعايا"^(٢٠). والتي أديرت بالكيفية نفسها التى كانت عليها قبل عام ١٧٩٨، حيث عهدوا بها إلى الكتبة الأقباط^(٢١).

وفى خط متوازٍ مع هذا الاتجاه، نجد بونابرت يحرص على عدم نزع " قرى الالتزام " التى كانت تخص زوجات الأمراء والكشاف المماليك، والتى أفرج لهن عن تقاسيظها. بعد إلزامهن بدفع رسم التسجيل^(٢٢) فى إشارة واضحة إلى القوات المملوكية بأن سلطات الاحتلال الفرنسى - رغم ضجيج الدعاية المعلنة - لا تنوى إقصاءهم عن ممتلكاتهم وقرى الالتزام شريطة أن يكفوا عن معاداة الجيش الفرنسى؛ الأمر الذى يؤكد بأن قضية "الالتزام" كنظام لإدارة الحيازات الزراعية لم تكن محور اهتمام القيادة الفرنسية، وأن الأولوية كانت موجهة لاحتواء المماليك وبذل كل ما من شأنه أن يدفعهم إلى التعاون معها.

وقد أفاد الفرنسيون من هؤلاء المماليك المهادين فى تدعيم النفوذ الفرنسى، وقد تم استغلالهم - برغم قلة عددهم - فى مجالين : الأول فى حث الفلاحين على دفع الضرائب فى أقاليم مصر العليا؛ إذ ترصد قوائم تحصيل الضرائب بين مصروفات " إدارة الجباية " مبالغ باسم مجموعة " الكشاف والسناجق والسردارية المماليك "^(٢٣). والمجال الآخر هو المجال الأمنى؛ فقد كلفوا بحفظ الأمن فى الريف والتصدي للبدو الرحل الذين اعتادوا مباغته القرى بين كل حين وآخر^(٢٤).

على أن هذا لا يعنى أن سياسة الاحتواء قد نجحت؛ فقد ظلت غالبية المماليك مصدر قلق دائم للفرنسيين، وحالوا دون سيطرة الفرنسيين على الموارد الضريبية فى معظم أقاليم الصعيد^(٢٥). واضطر بونابرت إلى المضى قدماً فى مصادرة القرى التى

تنصهم والتي ربت على ثلثى قرى مصر. وهو يفكر بشكل جدى فى طرح موضوع الالتزام والنظام الضريبي للمناقشة على نطاق واسع؛ سعياً إلى بلورة تصور واقعى لمعالجة هذه المسألة.

نحو تقرير مصير " نظام الالتزام "

لا تهدأ الظنون فى حقيقة ما تنتويه السلطة الفرنسية بشأن مصير " نظام الالتزام " وخصص الملتزمين؛ ذلك أن القرارات الخاصة بمصادرة كل ممتلكات الأمراء المماليك، والتي فى مقدمتها " الالتزامات الريفية " الواسعة والمنتشرة فى سائر الأقاليم - كانت قد أثارت فيهم الحذر والترقب. وانعكس ذلك بوضوح فى تفسيرهم طلب السلفة العاجلة من حصيلة أقساط الميرى المستحقة على القرى^(٢٦)، بأنها ليست سوى " كلفة وتفريدة "؛^(٢٧) فقد اختلجت صدورهم شكوكٌ عديدة فى إمكانية حصولهم على " الإفراج الديوانى " الذى يمثل اعترافاً من السلطة الجديدة باستمرارية حيازاتهم من الأراضى، بعيداً عن المصادرات الجارية لقرى المماليك.

وما إن يحل العام المالى الجديد (بعد شهرين من احتلال القاهرة)، والذى عادة ما كان يبدأ خلال فترة انحسار مياه الفيضان فى شهر توت القبطى (سبتمبر ١٧٩٨)، حتى يسارع هؤلاء الملتزمون بالتكالب على القاهرة؛ طالبين " الالتزام فى التصرف فى حصصهم "، وإذا يطالبهم الفرنسيون بدفع " الحلوان "؛ وهو ما كان يعنى إعادة شرائهم للخصص، فإنهم يبدون احتجاجهم. وسعياً إلى تفادى صدام مبكر مع الملتزمين، والذين كان المشايخ والعلماء بينهم من كبار حائزى الالتزامات فإن بونابرت يسمح لهم بإملاء التزاماتهم وتقاسيها دون أن يمنحهم " التمسكات " المحررة بذلك، وهذا ما حدا بالجبترى إلى القول : " وظل الحال على حاله "؛^(٢٨).

والواقع أن بونابرت ظل يراوده التفكير فى إدخال تغييرات على النظام القائم؛ فى محاولة للإفادة من الصلاحيات المطلقة التى تتيحها " إمارة التغلب " على جيش المماليك، فيما عبر عنه فى مذكراته بـ " حق الغزو "؛^(٢٩) Le droit de la conquête الذى يخول للسلطة الجديدة ميراث السلطة الزائلة، وتقرير مصير الأراضى والأملاك العامة. وكان " جيرار " - أحد مشاهير مهندسى الطرق والكبارى فى جيش الحملة -

قد أكد بأن هذا المبدأ قديم، عرفته مصر على مر تاريخ الغزوات التي اجتاحتها، وأن السلطة الفرنسية استندت إليه في حكمها للبلاد ومصادرتها للأراضي والملكيات الخاصة بالمماليك. وعبر عن ذلك بأنها "إرادة آخر الغزاة" التي وحدها من تملك حق التصرف في الأراضي؛ فتهب لمن تشاء، وتنزع عمن تشاء، وتحفظ، في الوقت نفسه، بحق استعادتها في أي وقت بحسب ظروفها (٣٠).

وعلى ذلك، بدت اللحظة وكأنها مواتية لإدخال إصلاح عام على قوانين ملكية الأراضي الزراعية. ويمكن القول: إن النقاش الذي دار حول مصير النظام الضريبي قد طُرح على مستويين؛ الأول منهما تم بين بونايرت وكبار مستشاريه من القادة الجنرالات والمسؤولين الماليين، والآخر بين الجانب الفرنسي وجماعة النخبة الممثلة لمعظم الأقاليم.

وقد رصدت مذكرات (نابليون) المداولات المختلفة التي دارت بشأن هذه القضية؛ فعلى مستوى القيادة العامة تشعبت الآراء بين فريقين: الأول مال إلى توسيع قاعدة الملكية بين الفلاحين الممولين للضرائب، والذين يمثلون الغالبية العظمى بين السكان، واستبعاد الملتزمين الذين تنعدم الضرورة إليهم في ظل توافر إدارة جيدة لنظام ضريبي عادل؛ ومن ثم يتحقق ما أطلقوا عليه "الإصلاح الكبير" *Une grande amélioration* الذي يحدث تغيراً حتمياً في وضعية ومستوى رفاهية هذه الكتل السكانية الكبيرة، التي ستصبح - عندئذٍ - مرتبطة بالمصالح الفرنسية بصفة دائمة. ولأسباب متعددة تناقض مع هذا الاتجاه الفريق الآخر الذي رأى أن اتجاهاً كهذا قد يؤدي إلى نتائج شديدة السلبية بالنسبة للحملة نفسها؛ ذلك أن الاستعاضة عن دور الطبقة الوسيطة المالكة للالتزام بكسب ولاء الجماهير الفلاحية، الأكثر تقلباً وجهالة وقسوة، والأصعب على الانقياد والتطويع، في الوقت الذي يكتنف الغموض والإيهام معظم مشتملات العادات الضريبية المرتبطة بنظام الالتزام - سوف يعرض مالية الجيش لاضطراب شديد، ولا سيما في ظل خصوصية نظام الري والإنتاج المتوقفين على حالة مناسيب الفيضان، المتغيرة من عام لآخر، والتي تقتضى على الدوام وجود سلطة قوية، تحظى باستجابة سريعة، لمختلف الإجراءات اللازمة لإتمام عملية الإنتاج؛ ومن ثم فالضرورة تحتم أهمية

الإبقاء على الملتزمين كطبقة وسيطة *une classe intermédiaire* راسخة فى المجتمع الريفى. على أنه من جانب آخر لا تبدو رؤية هؤلاء المحافظين متجهة للإبقاء على الالتزام بصورة دائمة، وإنما فى إطار مرحلة مؤقتة، ما إن يتم استيعاب الحقائق المتعلقة بهذا النظام القديم، حتى يُعاد النظر فيه مرة أخرى، بالشكل الذى لا يحرم ضباط الجيش من مكافأتهم، بتوزيع الأراضى عليهم، وكذا على الموالين الأكثر إخلاصاً وتعاوناً، فى خدمة مصالح الجمهور الفرنسي^(٣١).

وأنهى (نابليون) رصده لمناقشات الجنرالات على هذا النحو دون أن يشير إلى القرار الذى استقروا عليه بشأن هذه المسألة. وربما بدا للقائد العام - آنذاك - ضرورة الانتظار والتروى حتى يستطلعوا رأى الوفود الذين أرسلوا فى استدعائهم من الأقاليم.

الديوان العمومى والمسألة الكبرى

سجل فيفان دينون فى يومياته، (وهو الفنان والرسام الشهير الذى رافق حملة ديزيه فى الصعيد)، حواراً مهماً دار بين الفرنسيين وفلاحى إحدى القرى بولاية جرجا، حول مسألة دفع الميرى، فأشار إلى أن الفلاحين ردّوا على طلب دفع الضرائب بقولهم: " لن ندفع حتى نُعَين معركة حاسمة بين الفرنسيين والمماليك، وساعتئذٍ سوف يكون الميرى للمتغلب"^(٣٢). وكان المقصود - بداهة - " بالمعركة الحاسمة " تحقيق السيادة الفعلية على الأقاليم لأحد الجانبين. وربما تعكس هذه الرواية التى أكدها الجنرال بليار نفسه فى يومياته^(٣٣)، إلى أى حد كانت ثمة صعوبة كبيرة فى مناقشة موضوع " الالتزام " مع الأهالى، قبل تحقيق السيطرة على الأقاليم، والتى بدت ضرورية للغاية؛ ليس للتغطية على كارثة تحطم الأسطول التى شاع خبرها فى كل مكان فحسب، وإنما كذلك لتقديم الشاهد المادى على أن " القوة المملوكية " فى سبيلها للتلاشي، وأن لجان جرد الممتلكات ومصادرة قرى المماليك هى واحدة من أهم القرائن المادية التى تؤكد على التحول الفعلى للسلطة من المماليك إلى الفرنسيين، وحال تحقق ذلك سوف يصير فى الإمكان فتح " ملف الالتزام ".

وفى الحقيقة كان بونابرت مدركاً لخطورة ولأهمية هذا الموضوع، الذى أطلق عليه "المسألة الكبرى" *grande question*؛ ذلك لأنها لم تكن مجرد إلغاء لدور الوسطاء (الملتزمين)، وإنما هى - على حد قوله : " إما احتفاظاً بالقوانين والعادات التى تدار بها الممتلكات فى مصر، وإما اعتماداً لقوانين الملكية السارية فى الغرب " (٣٤). فيما يشير إلى إدراك القائد العام بأن الأمر لم يكن ممكناً التعامل معه بقرار سياسى أو إدارى سريع. على أن تقدم الملتزمين بطلب الإفراجات الديوانية لحصص الالتزام، مع بدء السنة المالية فى مطلع سبتمبر ١٧٩٨، كان قد حتم ضرورة التعجيل بفتح الحوار حول مسألة الالتزام، وخاصة أن شكوك الملتزمين، على اختلاف مشاربهم، كانت تفوق نوايا السلطة الجديدة؛ الأمر الذى يفسر سرعة استجابة بونابرت : فبعد ثلاثة أيام فقط من طلب الملتزمين لإفراجات الالتزام، يصدر " أمراً يومياً " بترتيب الاستعدادات لعقد جلسة " الديوان العمومي " (٣٥). ومن المؤكد أن مناقشة " مصير الالتزام " سوف تكون على رأس الموضوعات المطروحة للنقاش؛ لما له من أهمية فى تحديد الإطار الذى تتشكل من خلاله مجمل السياسة العامة للنظام المالى.

وإذا تولى القيادة الفرنسية اهتماماً خاصاً بتمثيل جماعة النخبة المحلية التى لها صلة مباشرة بالالتزام (ولو أن الديوان سوف يناقش قضايا أخرى) - فإنها تتجه إلى تحديد الفئات الاجتماعية المشكلة لكل وفد من الوفود المرسلة من الأربعة عشر إقليمياً : ثلاثة فلاحين وثلاثة علماء وثلاثة تجار، فضلاً عن ترشيح بعض مشايخ القرى وشيوخ القبائل العربية (٣٦). وعلى الرغم من أن الصعيد لم يخضع بعد للسيادة الفرنسية (٣٧)، إلا أن الحرص على إكساب جلسة هذا الديوان طابع العمومية، كان قد اقتضى الدفع بستة وفود (من إجمالى ١٨ وفداً)؛ لتمثل أقاليم الصعيد " أطيح والبهنسا والفيوم والمنيا ومنفلوط وأخيراً جرجا " (٣٧). على أننا نجهل تماماً الكيفية التى تم بها ترشيح هذه الوفود، وبصفة خاصة "وفود الصعيد " الذى ظل يشهد مطاردات واسعة لمراد بك فى شتى ربوعه. والواقع أن دعوة هذه الجماعات للمناقشة حول قضية " الملكية والنظام الضريبى "، واستطلاع الآراء والأفكار الإصلاحية لـ *Les idées d'amélioration* لتعد من

اللحظات التاريخية النادرة التي تدعو السلطة نفسها من يناقشها حول ملكية السلطة الخراجية وحقوق الاستغلال للريع الخراجي. ومن الواضح أن المرامي التي كان يتوق بونابرت إلى تحقيقها من وراء هذه المناقشات ليست تقرير ما تنشده هذه الوفود أو ما تجتمع عليه من آراء، وإنما كان القائد العام يهدف إلى الإلمام بأية معلومات تتعلق ببنية هذا النظام، وفهم درجة الأهمية التي ينطوى عليها بالنسبة لقضايا مختلفة، تمثل في مجملها المجتمع الريفي؛ ومن ثم التعرف على مبررات تمسكهم بأطره، في حال تأييدهم للإبقاء عليه أو رؤاهم في الإصلاح والتغيير إذا ما كانوا يتطلعون لإلغائه، وذلك بقطع النظر عن القرار الذي سوف يراه مناسباً لمالية الحملة ولإدارة البلاد (٣٨).

وعلى ذلك لم يكن "الديوان العمومي" سوى جمعية استشارية تعقد بقرار من القائد العام؛ لمناقشة موضوعات محددة على مستوى النخب الممثلة لكل الأقاليم. ومن المؤكد أن هدف المشاركة بالنسبة للوفود وكذا المراقبين المحليين (من أمثال الجبرتي) كان جلياً كذلك؛ فهذا الأخير يرصد في تاريخ "مدة الفرنسيين" نص الكلمة الافتتاحية لجلسة الديوان العمومي: "إن غرضهم تنظيم أمور مصر.. وأن هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جلية، لأنهم أهل خبرة وعقل، فيسألوا عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصاري عسكر من ذلك ما يليق صنعه" (٣٩).

وأولى (نابليون) في يومياته اهتماماً ملحوظاً بتسجيل المناقشات التي دارت بالديوان العمومي. ويمكن القول بإنها دارت على محورين أساسيين؛ الأول دار حول تاريخ اندماج نظام الالتزام في المجتمع وطبيعة الملكية في إطار سريانه وتطوره: "فقد أكد جميع أعضاء الديوان بأن قوانين الملكية الزراعية في الغرب، والتي أوضحها المندوبون الفرنسيون، تتماشى مع كتاب الحقيقة (القرآن) Livre de Vérité؛ ذلك أن الملكية الخاصة الموثقة والتي لا تملك قوة مصادرتها أو التدخل في تغيير مسارات انتقالها من شخص لآخر بالبيع والشراء والإرث والهبة - كانت مبادئ أساسية في بلاد العرب. وقد ظلت سارية زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين. وأن المبدأ الإقطاعي Le principe féodal الذي يجعل كل الأراضي ملكاً للسلطان (للدولة) لم يسر في هذه البلاد إلا مع مجيء المغول والتتار ثم العثمانيين. وأن أجدادهم لم يخضعوا له إلا مكرهين" (٤٠).

وتضمن المحور الثانى القضية الأساسية والمتمثلة فى مناقشة إلغاء نظام الالتزام، فيما أطلق عليه بونايرت "تحرير أراضي الأثر بالقضاء على الملتزمين"، وإخضاع كل الأراضي لإدارة السلطة الجديدة التى يصير لها وحدها حق تحديد طبيعة وشكل إدارة الجباية. ويقترح تعويض الملتزمين باحتفاظهم بأراضي "الأواسى" فى حوزتهم^(٤١).

وإذا كانت الموضوعات الأخرى المعروضة على هذا الديوان لم يحتدم بشأنها أية مناقشات طويلة، فإن مسألة إلغاء حصص الملتزمين قد أثارت جدلاً واسعاً ومعقداً للغاية؛ حيث كان أغلب ممثلى الديوان العمومى من الملتزمين الذين أبدوا استياءهم، وأعربوا عن رفضهم لهذا الاقتراح الذى يسلبهم مواردهم الأساسية، كما أنه يعرض المساجد للخراب، ومن ثم فقط طالبوا الجانب الفرنسى التريث والعدول عن هذا الإجراء. وعلى النقيض من ذلك أبدى مشايخ القرى والبلاد وممثلو القرى (الفلاحون) *Députés des villages* تأييدهم لإلغاء الالتزام، وإن كانوا قد تحفظوا على ممتلكات المساجد (الأوقاف) التى ناشدوا الفرنسيين باستمرار طرحها للإيجارة الحكرية *Bail emphytéotique* (أى لمدة ٩٩ عاماً)، وفقاً لطبيعة معاملتها التى كانت عليها من قبل^(٤٢).

وإذا كان بونايرت لم يكن واضحاً فيما كان يمكن أن يجريه من تغييرات مهمة؛ حيث انتهى به الحال إلى إقرار العمل بنظام الالتزام وجباية الميرى وفقاً للطريقة السائدة قبل مجيء الاحتلال الفرنسى - فإنه على ما يبدو كانت ثمة صعوبات عديدة قد اضطرتة إلى السير فى هذا الاتجاه : فالمعطيات المطروحة بشأن كل ما يتعلق بالحيازة الزراعية، ونوعية الضرائب، والعادات المرتبطة بها، يكتنفها الغموض والإيهام *obscurité*، وطريقة التوزيع الجغرافى للميرى، وللأعباء غير الرسمية *Les droits extraordinaires* المتعددة وغير المسجلة - تظل مجهولة^(٤٣).

ولعل مما له دلالة على أن الصورة كانت ضبابية، تلك الرسالة التى بعث بها بونايرت إلى الجنرال دوجا (حاكم القاهرة) فى ٧ يناير ١٧٩٩ (أى بعد نحو نصف عام من الاحتلال) يعرب له فيها عن امتنانه للمعلومات الدقيقة التى وافاه بها حول مصطلحات الميرى، والفايظ، والرسوم الاستثنائية الأخرى، والتمييز بين الأراضي المعفاة من تلك الرسوم، وبين الأراضي الديوانية المحملة بكل مفردات الضرائب^(٤٤).

ومن المؤكد أن تعدد نوعية الأراضي، والذي كان يؤدي إلى اختلاف المعاملة الضريبية لكل نوع منها، كان قد زاد الأمر تعقيداً؛ إذ لا يملك الفرنسيون أية بيانات دقيقة عن مساحتها ومواطن توزيعها أو تركزها بين القرى والنواحي؛ فعلى سبيل المثال : عجز الفرنسيون، معظم فترة الاحتلال، عن الإحاطة بأراضي " الرزق " التى كانت مساحتها كبيرة ومتناثرة فى شتى الأقاليم !! (٤٥).

وعلى ذلك لن يسعى الفرنسيون إلى تعديل مبادئ إدارة لا يحسنون فهمها، ومن ثم تعين إدارة الأراضي بالكيفية التى كانت عليها قبل مجيئهم. ووفقاً لهذا استمر الالتزام بنظامه الضريبى المعقد والذي فرض على الفرنسيين ضرورة عمل استقصاء واسع ودقيق للمعلومات المتعلقة به (٤٦).

وتأكد للفرنسيين، بعد المناقشات المحتدمة التى جرت بجلسة " الديوان العمومى " أنه من الصعوبة تغيير خصوصية المعاملة الضريبية لأراضي الرزق والأوقاف، سواء المرصدة على مؤسسات دينية مختلفة ، أو على فئات متعددة من الأهالي. كما تبين خطورة تجاهل مصالح جماعة الملتزمين الذين بدا من الضرورى استقطابهم؛ لأجل تحقيق نوع من الاستقرار أو بالأحرى لتخفيف حدة التوترات التى تثيرها حرب المطاردة لفلول الممالك فى جميع أنحاء ريف الصعيد؛ إذ أنه بدون هذا الاستقرار يصعب السيطرة على جبايات الضرائب، وعلى ذلك فقد تعين المضي قدماً فى تطبيق ما يُعرف بـ " سياسة الاحتواء ".

سياسة الاحتواء :

لقد أملت الظروف على الفرنسيين ضرورة قصر المصادرات على أراضي الممالك، والسماح بإصدار " التمكينات الديوانية " للملتزمين والتى شكلت فى النهاية ما أصبح يُعرف، فى وثائق الترايع بـ " قرى الرعايا ". ويمكن تمييز ثلاث جماعات محددة (المشايع والعلماء - البدو - رجال الإدارة المالية) الذين تم التعامل معهم بخصوصية شديدة ؛ وذلك لأهميتهم فى توطيد النفوذ الفرنسى وتذليل الصعوبات التى تعيق الحكم والإدارة.

وكان المشايخ والعلماء يمتلكون قدرة التأثير على تحريك الجماهير وعلى تشكيل ردود فعلهم قبل السلطة. وقد أدرك بونابرت هذه المسألة؛ ولذلك حرص على خطب ود هذه

الجماعة. وسوف يفضى فى مذكراته بالأسباب التى أملت عليه انتهاج هذه السياسة. فالعلماء وكبار المشايخ يتمتعون بثقة الأهالى ومحبتهم، بشكل يجعلهم أنسب وسطاء يمكن أن يتحدثوا بلسان السلطة إلى الأهالى، علاوة على أنهم ليسوا جنوداً ولا يعرفون امتطاء الخيول ولا المناورات العسكرية. وأن هذه المزايا هى التى حتمت ضرورة اشتراكهم فى الإدارة. وأنه كان على الفرنسيين أن يوفرُوا لهم الإمكانيات المادية التى تساعدهم فى الاحتفاظ بوضعهم ؛ كـرءوساء أكثر وجاهة وأكثر اعتباراً ؛ ولذلك فقد تم " العمل على زيادة ثروتهم " (٤٧).

وبالقدر نفسه كان المشايخ والعلماء على وعى بأهمية دورهم ، وبمدى حاجة الفرنسيين إليهم، الأمر الذى جعلهم يتمادون فى توسيع مصالحهم، واستغلال نفوذهم : فلم يقتصروا على التزامات قراهم التى اكرّثت القيادة بردها إليهم، وإنما تكالبوا على طلب الحصول على التزامات أخرى من القرى المصادرة (قرى الممالك !)، كما زاحموا فى إدارة التزامات ممثلة، وعملوا على تأخير دفع الميرى، وماطلوا فى تسديده، ولاحظ ريمون فى تقرير عن حسابات الأموال المتأخرة على الملتزمين (بتاريخ ١٥ أغسطس ١٧٩٩) كبر حجم الالتزامات التى كانت تخص مشايخ الديوان، وأنه بلغ باستغلالهم لوضعهم ولنفوذهم أن طالبوا المدير المالى بالحصول على إعفاء من دفع الميرى !! (٤٨). بل وتوسطوا للفلاحين ولمشايخ القرى فى تخفيض الضرائب ، وكان هذا التدخل فى شئون الجباية قد أثار امتعاض مدير المالية " بوسيلج " ، إلا أن القائد العام، فى معظم الأحيان، بدا حريصاً على عدم فقد عون المشايخ (٤٩). وعشية رحيل بونايرت سجل فى وصيته لكلير : " إننا بكسب رأى كبار مشايخ القاهرة نكسب مصر كلها وجميع الزعماء الذين قد يكونون لدى هذا الشعب؛ إذ ليس هناك من هو أخطر علينا من مشايخ خوافين لا يعرفون القتال، كجميع القساوسة، يمكنهم أن يلهموا التعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين " (٥٠).

وتظل هذه السياسة سمة أساسية فى علاقة الفرنسيين برجال الدين والعلم. وفى الاتجاه نفسه اعتمد بونايرت الإفراج عن كل الأراضى التابعة لـ " نقابة الأشراف " (٥١). وراعى مخصصات وأراضى عائلاتهم فى الأقاليم. وقد لاحظ الجنرال دونزولو (حاكم

مصر العليا) كثرة بيوت عائلات الأشراف في جنوب الصعيد، وتحكمهم في عدد كبير ومهم من الأراضي المعفاة من الضرائب. وأن الممالك قبلهم راعوا هذه الجماعة، وقدروا قوة تأثيرها على الجماهير فأبقوا على ما بحوزتهم من أراضٍ كملكية خاصة للأشراف *Propriété de chérifs* فعلى سبيل المثال : رصد دوتزلو في جزيرة "الشندويل" (بولاية جرجا) عشرين بيتاً للأشراف، تراوح ما بحوزتهم ما بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ فدان^(٥٢)، وهو ما يقارب ١/٥ أراضى الجزيرة التى كانت مساحتها المزروعة ٤٤٣٨ فداناً^(٥٣). وي طرح نموذجاً آخر فى تقريره : ففى "طهطا" التى كانت مساحة الأفدنة المزروعة بها ٥٠٠ فداناً: كان للأشراف منها ٤٠٠ فدان (أى ٨٠٪) معفاة من الضرائب، والـ ١٠٠ فدان الأخرى هى وحدها التى تدفع الميري، بوصفها "أراضٍ ديوانية". وقد تم إقرار الإدارة المالية لكل هذه الاستثناءات الواسعة تماشياً مع السياسة العامة التى اتبعها الفرنسيون منذ بداية الاحتلال^(٥٤).

وفى خطٍ متوازٍ مع هذا الاتجاه تم الإفراج عن الأراضي المرصدة على المؤسسات الدينية. وفى دفاتر الترايع سوف نلاحظ هذا بسهولة، فقد حافظ الفرنسيون على امتياز الإعفاء الذى كان ممنوحاً لأراضى الرزق والأوقاف فيما عدا ما كان مرصداً على بيوت الممالك نفسها، فعندئذ كان يجرى اعتبارها من "أملاك الجمهور" شأنها شأن "قرى الممالك" المصادرة. فعلى سبيل المثال : وقف ناحية "طما" (بولاية الفيوم) ضُبِطت إيرادات الجزء الأكبر منه (نحو ٣ / ٢ حصيلة الوقف) لصالح "الجمهور"، على حين تُرك الثلث الأخير "براى رعايا"؛ أى للمستفيدين من الأهالي^(٥٥). كذلك لوحظ أن الأراضي التى أوقفها أحد الأمراء، وكان بعض المستفيدين من ريعها من بين مشايخ القرى والنواحي، أو من المتعاونين مع الإدارة الفرنسية عموماً - كان يتم الإفراج عنها^(٥٦).

وأولى الفرنسيون - كذلك - اهتماماً خاصاً بـ "أراضى الرزق"، وحافظوا على امتيازها من الإعفاء التام من الضرائب^(٥٧). وذلك على الرغم من اتساع مساحتها، وعدم الإلمام بدفاترها؛ فما أثير بشأنها فى جلسة "الديوان العمومى" جعل الفرنسيين

حريصين على عدم المساس بها؛ نظراً لأهميتها بالنسبة للمساجد والزوايا والجهات البر المختلفة التى يرتبط بمسار نفقاتها فئات اجتماعية عديدة. وسوف نجد الجنرال ديزيه يُفرج عن مخصصات احدى التكايا؛ بولاية البهنسا، والتى كانت مصروفاتها مرتبة، منذ فترة طويلة، على فقراء هذه الولاية^(٥٨).

وكان " البدو " هم الفئة الثانية التى أولتها الإدارة الفرنسية اهتماماً خاصاً كذلك، وبذلت ما فى وسعها لاحتوائهم، أو على الأقل لوضع حد لغاراتهم المفاجئة على القرى، والتى كانت سبباً أساسياً فى اضطراب الريف وتعطل الجباية، وهو ما يخشى معه أن يؤثر على خزانة الجيش؛ ومن ثم فقد تم طرح موضوع " الإتاوة البدوية " فى جلسة "الديوان العمومى"، وتم الاتفاق على تعاون أهالى القرى مع الجيش للتصدى لهذه المdahمات المزعجة والمدمرة^(٥٩).

وشغلت هذه المسألة اهتمام بوابرت؛ حتى لقد أكد فى مذكراته بأن " إخضاع البدو كان مقدمة ضرورية لكل إصلاح يرمى إلى تحقيق الرخاء لمصر " ^(٦٠). وكان للجنرال ديزيه - من واقع احتكاكه بقبائل البدو فى الصعيد - تصور مهم لمعالجة تعديات البدو المستمرة على الريف : فهو يرى أنه من الأهمية بمكان فك عرى التحالف المملوكى / البدوى؛ وذلك من خلال دعوة هذه القبائل، المنتشرة بين أسبوط والفيوم، إلى عمل اتفاقات سلام؛ نظير عدم المساس بممتلكاتها^(٦١). ولذلك كلف الضابط " ديفرنوا " Desvernois بهذه المهمة، وزار هذا الأخير ٢٣ قبيلة بالصعيد، دعاها للتحالف والسلام، وإن كان لم يوضح، فى مذكراته التى سجل بها تفاصيل هذه اللقاءات، طبيعة الاستجابة التى أبداهامشاىخ القبائل^(٦٢). ويرصد لاجونكيير بين الوثائق التى نشرها، خطاباً مطولاً ومهماً للجنرال ديزيه، أرسله إلى الجنرال بليار؛ حيث أوضح فيه المبادئ الأساسية التى يتعين على السياسة الفرنسية اتباعها مع قبائل البدو، وبصفة خاصة " عربان الصعيد ". وتقوم هذه المبادئ على ضرورة الدفع بالقبائل ؛ لتحيا فى وفاق، وجعلها تهدأ بصفة دائمة، وتمتنع عن ممارسة اعتداءاتها على القرى، ثم ينتهى فى خطابه إلى فكرة " توطين البدو " : " إن لسياستنا هدفاً كبيراً، إما القضاء على البدو بالقوة، وتلك وسيلة بربرية،

أو تمدينهم ودفعهم إلى أن يكونوا مزارعين، بأقصى ما يمكنهم، وإذا ما تمت تهدثهم ومنحهم ملكيات زراعية، تقرب فيما بينهم وتغريهم على الزراعة، وتنفرهم من الدعوة للاعتماد على الماشية، فلسوف نجدهم متوطنين بأرضهم التي حالفهم سوف يهتمون بتسميدها ويدفعون عنها الضرائب...^(٦٣).

وإذا كنا نجهل حقيقة مدى هذه الأفكار التي طرحها ديزيه من عمق احتكاكه وتصادمه بالعربان في الصعيد، فالثابت والمؤكد أن إدارة مالية الاحتلال لم تمس ممتلكات الأراضي التي كانت تخص القبائل، والمعروفة، في دفتر الترابيع، بـ " الخطيطة " أو "مصلحة الخطايط "، وهي الأراضي التي حصلوا عليها بوضع اليد^(٦٤). وكانت في معظمها معفاة من الضرائب. ويمكن تقديم نموذج أو اثنين لتوضيح مدى أهمية المساحة الكبيرة التي كانت تستحوذ عليها تلك القبائل : ففي " ناحية الخليفة " التي كانت مساحتها الإجمالية ١٤٩٠ فداناً، نجد أن ٥٩٠ فداناً منها (٣٩,٥٪) مرتبة باسم " خطايط المشايخ "^(٦٥). وبسبب كثرة القبائل بأقاليم مصر العليا، يلاحظ كثرة هذا النوع من الأراضي التي رصدها المباشرون الأقباط في دفتر ترابيع ولاية جرجا^(٦٦). وسوف نجد الجنرال دونزلو في تقريره عن " مدن صعيد مصر " يشيد بسياسة الممالك قبل القبائل المستقرة، ويقدم عائلة الشيخ "عارف " Harif بسوهاج كنموذج : فهذه العائلة التي جاءت من بلاد البربر (المغرب) منذ ٣٠٠ سنة (أى منذ القرن الـ ١٦م) أبقى لهم الممالك الأراضي التي حازوها بوضع اليد، ولم يلزمهم أحد بدفع المال الميرى أو أى نوع من الضرائب. وفي فترة الحملة لاحظ " دونزلو " بأن للشيخ عارف جيشاً من ٨٠٠ فارس يمتطون الخيول دائماً، وأنه من بين ٧٠٠ فدان بمدينة سوهاج كان للشيخ عارف ٣٠٠ فدان (٤٣٪) معفاة من الضرائب^(٦٧).

وإذا كان الفرنسيون قد سايروا السياسة المملوكية في إدارة القبائل القوية، وفي دفعها إلى الاندماج في المجتمع الريفي، عبر الإبقاء على " أراضي الخطايط " بين أيديها - فإن شدة الحاجة إلى دور الجماعات التي لها صلة وثيقة بإدارة النظام الضريبي، وجمع موارده المالية، كانت قد فرضت ضرورة الحفاظ على حصص الأراضي التي

تخصهم ؛ فعلى سبيل المثال : أبقي الفرنسيون على امتيازات مشايخ القرى ، والتي كان في مقدمتها مساحة من الأراضي عُرفت بـ " مسموح المشايخ " أو "مسامحات مشايخ الناحية " والتي ترجمها الوكلاء الفرنسيون بـ " المكافأة المعتبرة المخصصة للمشايخ " *Rémise Considérable de fédans réunis aux chei*، والتي أكد بتروشي بأن العائلات الكبيرة *principales familles* (ذات العشيرة القوية) هي التي كانت تحوز تلك الأراضي وتتمتع بإعفائها من الضرائب^(٦٨). ومن الواضح أن تجديد الفرنسيين لهذا الامتياز والذي يجعل المشايخ شركاء في ملكية جزء من الأراضي، يظل يؤكد على أهمية الاستعانة بالمشايخ، وخاصة في توفير الأمن داخل الريف وفي السيطرة على موارد الضرائب. ومن خلال الجداول البيانية التي ضمّنها الوكيل المالي بتروشي تقريره الثمين عن ولاية جرجا اتضح أن نحو ٧٪ من إجمالي المساحة المزروعة كانت معفاة من الضرائب باسم " الأفدنة المخصصة للمشايخ " ^(٦٩).

كذلك " أفندية الروزنامة "، و " الجاويشان " (وكان لهم دور أساسي في تحصيل أموال الميري)؛ إذ يكشف تقرير لحسين أفندي عن " الملتزمين في صعيد مصر " وكذا دفاتر ترابع ولايات الوجه القبلي – عن تعدد حصص الأفندية واجاويشان التي أُدرجت ضمن " قرى الرعايا " ^(٧٠).

ومن اللافت للنظر أن الأفندية الفارين الذين حملوا خزينة السلطان معهم إلى بلاد الشام، لحظة دخول الفرنسيين للقاهرة^(٧١) – أفرج بونابرت – كذلك – عن حصص التزامهم^(٧٢)؛ في محاولة لكسب ثقة جميع الأفندية الآخرين، ولتحفيز الفارين منهم على العودة لمصر. وخلال حملة سوريا، يتمكن الفرنسيون من جمع عدد كبير منهم ، ويدفعون بهم إلى سفينة أعدت لتقلهم من " يافا " إلى " دمياط " التي يصلون إليها في أوائل صيف ١٧٩٩^(٧٣). الأمر الذي يعكس مدى اهتمام القيادة الفرنسية بهذه الجماعة، التي كان لها خبرة ودراية واسعة بشئون مالية مصر. والأمر نفسه نلاحظه مع جماعة " المباشرين الأقباط " الذين زاحموا غيرهم في مجال الالتزامات، وهو ما يبرزه – بوضوح – " بيان حسابات الملتزمين " المصاغ في أغسطس ١٧٩٩^(٧٤).

وإذا كانت شدة حاجة الإدارة الفرنسية لتعاون هذه الجماعات (المشايع - البدو - جباة الضرائب) قد جعل المجال مفتوحاً أمامهم؛ ليس لاسترداد قرى التزاماتهم القديمة فحسب، وإنما لتوسيع حجمها كذلك؛ من خلال استئجار مساحات أخرى من «قرى الجمهور».

وإذا كانت الإدارة قد أبدت قدراً من المرونة إزاء التزامات الأهالي، التي لم يتوافر لها أصول وثائقية مؤكدة^(٧٥) - فإن التغير الحقيقي في خريطة توزيع قرى الالتزام قد ظل قصراً على معظم "قرى الممالك" المصادرة والتي أديرت بشكل مباشر. ويضحى من الأهمية التعرف على حجم القرى التي آلت للجمهور مقارنة بتلك التي استقرت بين يدي الأهالي.

مضبوط الجمهور ومفروج الرعايا

جاء في المراسلات اليومية لبونايرت بأن حجم القرى المصادرة من الممالك بلغ ثلثي قرى مصر^(٧٦). وفي مذكراته بالمتقى عاد يؤكد بأنها شملت ثلاثة أرباع القرى^(٧٧). التي هي أخصب المساحات المزروعة في جميع الأقاليم. وفي سؤال إستيف (وكان قد أصبح مديراً لحسابات المالية) لحسين أفندي عن تقديره لـ "قرى الرعايا" أجابه بأنها "بوجه تخمين قدر الربع"^(٧٨)؛ أي أن "مضبوط قرى الجمهور" بلغ على وجه التقريب ٧٥٪. وتمثل "دفاتر الترابيع" التي حررها المباشرون الأقباط، أهم الوثائق المالية التي تمكننا من التعرف على مساحة القرى التي آلت "لأملاك الجمهور" Les domaines de La République في صعيد مصر. غير أنه من الضروري الإشارة إلى أن بعض النواحي لم تحدد مساحتها بالأقدنة؛ مما يجعل من الصعوبة عمل حصر شامل للمساحة الكلية للقرى. والتقارير المالية التي حررها الوكلاء الفرنسيون لا تتضمن إحصاءً لعدد الأقدنة في كل أقاليم الصعيد، فيما عدا تقرير بتروشي Petrucci الذي نظم لكل ناحية من نواحي ولاية جرجا (أقاليم مصر العليا) جدولاً بيانياً بالمساحة المزروعة، وبعدها الأقدنة الخاضعة لدفع الضرائب، والأخرى المعفاة منها^(٧٩). وفي مقابل

ذلك نجهل تماماً وجود تقارير أخرى مماثلة بالنسبة لأقاليم "مصر الوسطى". ويضاف إلى ذلك صعوبة اعتبار مثل هذه التقارير شاملة لكل القرى، حيث تعتمد المباشرون الأقباط عدم الإفصاح عن عدد القرى المنصوية تحت كل ناحية من النواحي الرئيسية المشتمل عليها الإقليم^(٨٠). فعلى سبيل المثال لا نجد اتفاقاً بين عدد النواحي المذكورة فى "قوائم بتروشى" والبالغة (٣٩ ناحية) فى ولاية جرجا، وبين نظيرتها فى دفتر ترابع "ولاية جرجا" المحدد بـ (٤٧ ناحية). وحتى الأرقام المذكورة فى "وصف مصر" ليست سوى تقديرات انطباعية لعدد القرى، ولم تستند على حصر شامل ودقيق^(٨١). إذ كان من الخطورة على علماء الحملة أو على أحد المسئولين الماليين الفرنسيين الوصول للقرى البعيدة عن ساحل النيل أو تلك التى كانت فى محاذاة الصحراء على طرفى الوادي. وما قدمه حسين أفندى فى أجوبته جاء - كذلك - على سبيل "التخمين"^(٨٢).

على أن ذلك لا يعنى أنه من المتعذر التعرف على مساحة القرى التى خضعت لالتزام الجمهور عن تلك التى ظلت فى التزامات الأهالي؛ إذ مازال من المتاح تقديم نسبة تقريبية لهذين النوعين من الأملاك؛ وذلك من خلال الاعتماد على "دفاتر الترابيع" نفسها؛ إذ كان فى التراث الإدارى لمالية مصر طريقة قديمة فى تسجيل المساحات العقارية، استخدمها المباشرون الأقباط فى هذا النوع من الحسابات. ومفاد هذه الطريقة استخدام وحدة قياس "٢٤ قيراطاً" لكل مساحة ناحية، بقطع النظر سواء عن تباين عدد القرى الواقعة فى محيطها الإدارى والمالى أو عن عدد أفدنتها الفعلية : فهم (المعلمون الأقباط) يشيرون أمام كل ناحية رئيسه إلى أنصبة "مضبوط الجمهور" بعدد معين من جملة الـ ٢٤ قيراطاً مقارنة بما تم الإبقاء عليه من قراريط "مفروج الرعايا". وبحساب هذه القراريط على مستوى جميع النواحي، بكل إقليم من أقاليم الوجه القبلي، يمكننا الحصول على مؤشر لنسبة ما آل لأملاك الجمهور. كذلك يمكن تدعيم هذا المؤشر بحساب جملة الإيرادات التى سُدَّتْ لخزانة الحملة مقارنة بنسبة الإيرادات التى عادت على الرعايا؛ لما لذلك من أهمية فى توضيح الدلالة الرقمية لجملة "القراريط" بالنسبة إلى ما تغله من ريع^(٨٣). وذلك من خلال الجدول التالى :

جدول يوضح نسبة "مضبوط الجمهور" إلى مقروح التزام الرعايا
"مصلحة وإيراد"

[illegible]

تأليف: د. محمد بيّات هذا الجول من خلال: نشر تاليف وادارة لغو (٢٠٠٩) - النشر (٢٠٠٩) - مؤلفه (٢٠٠٩)؛ حرراً (٢٠٠٩) لسنة ١٤١٣ (١٩٩٩-٩٨)

ويتضح من الجدول أن نسبة ما استحوذ عليه الفرنسيون من الفيوم شمالاً وحتى الشلال الأول جنوباً بلغ ٧٩٪ ؛ أى ما يقارب ٥/٤ قرى الصعيد. وأن ما كان يجرى فى المقابل، فى "مفروج التزام الرعايا" يزيد قليلاً عن ١/٥ القرى والنواحي. ويتقارب معدل الإيرادات - إلى حد كبير - من النتيجة نفسها، فماتم تحصيله من موارد ضريبية فى "قرى الجمهور" بلغ ٧٦,٥٪ ، وإذا أخذنا بالنسبة المتوسطة بين المساحة بالقراريط ومعدل الإيرادات يتبين أن القرى المصادرة لم تقل عن ٣/٤ قرى الصعيد.

ومن الواضح بالجدول - كذلك - أن أكثر المصادرات تمت في أقاليم ولاية جرجا (إسنا - قنا - جرجا) المعروفة بخصوبتها وارتفاع إيراداتها (حوالي ٧٨,٥٪ من جملة إيرادات أقاليم الصعيد قاطبة) وهو ما يفسر التركيز الرئيسي لمعظم التزامات البكوات الكبار بها. ونظرة واحد على دفتر ترابيع ولاية جرجا توضح ذلك بجلاء؛ حيث اعتاد المباشرون الأقباط ذكر " الناحية " باسم الملتزم المملوكى الذى حُلَّتْ عنه، تحت مقولة : " ما كان تعلق (فلان) بك "، ومنها يمكن التعرف على أسماء هؤلاء البكوات الذين وزعوا التزامات أقاليم ولاية جرجا فيما بينهم ؛ فعلى سبيل المثال نجد أسماء مثل :

" إبراهيم بك شيخ البلد، ومراد بك، وحسن بك الجداوى ومحمد بك الألفى، وعثمان

بك البرديسي، وعثمان بك الشرقاوي، وسليم بك أبو دياب، ورشوان بك، وأيوب بك الكبير... إلخ^(٨٤). ممن كان لهم دور كبير في العقدين الأخيرين من القرن الـ ١٨ وخلال فترة الحملة الفرنسية؛ حيث مثلوا الشخصيات القيادية للمقاومة المملوكية ضد الاحتلال الفرنسي.

ومن الواضح إذاً أن القسم الأكبر من الأراضي بالصعيد صار في أملاك الجمهور. وأصبح مصطلح "براي(*)" يعاين "يشير إلى أراضي الوقف، والرزق، والتزام الأهالي، ومسموح المشايخ، والحطايط، وأراضي مصالح الناحية إلخ. مما درجت الوثائق الفرنسية على نعتة بـ "الأملاك الخاصة" Les propriétés particulières^(٨٥)



ويتضح مما سبق أنه بمجيء الفرنسيين في مطلع صيف ١٧٩٨ قُتِح ملف العلاقة بين السلطة المركزية والمنتفعين بحيازة الأراضي (الملتزمين)، الأمر الذي أعاد إلى الأذهان ذكرى المبدأ القديم الذي يخول لكل سلطة جديدة حق التصرف في ملكية الأراضي، وفي إعادة توزيعها بالشكل الذي يتفق ومصالح هذه السلطة؛ ولذلك كان من بين الأهداف الرئيسة لجلسة "الديوان العمومي" التأكيد على أن الأمر صار بأيدي الفرنسيين. غير أن المناقشات المحتدمة حول موضوع "الالتزام وملكية الأراضي" بينت للفرنسيين أن الالتزام ليس مجرد نظام مالي، ولكنه نظام اجتماعي - اقتصادي، يضرب بجذوره، لنحو ثلاثة قرون سابقة، وترتبط به مصالح فئات اجتماعية متعددة، والأكثر خطورة اعتماد المؤسسات الدينية على العائد الريعي لأراضي الأقباسية التي تُدار من خلال النظام نفسه. ومن ثم فإن التفكير في الإطاحة بالالتزام لا يعرض مجمل التنظيم التقليدي للخطر فحسب، وإنما يوسع دائرة اصطدام الجيش الفرنسي بالمتجمع، وهو ما حرصت الإدارة الفرنسية على تفاديه تماماً، وخاصة بعد تحطم الأسطول واستحكام الحصار الأنجلو - عثماني.

ويؤدى هذا إلى إقرار " الالتزام " كإطار عام، ينتظم من خلاله مجمل السياسة المالية للاحتلال. ويظل التغير الحقيقى قاصراً على ما أصاب " التزامات الممالك " التى تم مصادرتها وتحولها - حسب اصطلاح الوثائق المالية - إلى " قرى جمهور " Les villages de La République مما سوف يهدد الوضع الطبقي للممالك ككل، ويؤثر تأثيراً سلبياً وعميقاً على مستقبلهم السياسى. وبحسب التعبير الساخر لـ " نقولا الترك " : " ذاقوا أمر كاس وبقوا كعامة الناس " (٨٦).

وأصبح الفرنسيون فى علاقة مباشرة مع ما يقرب من ٣ / ٤ قرى الصعيد (وأكثر من ٢ / ٣ قرى مصر)، غير أن غموض النظام الضريبي، وصعوبة الإحاطة بالعادات المرتبطة به، يملئ عليهم ضرورة اللجوء " للوسطاء " وترويض الجماعات الأكثر تهديداً للإنتاج ولجباية الضرائب. ويشكل هذا - من ناحية أخرى - ظرفاً تاريخياً مهماً لهذه الجماعات فى تنمية ثروتهم ومصالحهم الخاصة؛ وهو ما سوف يترك أثراً مهماً على مسار تطور علاقتهم بالإدارة المركزية بعد ذلك فى القرن التاسع عشر.

هوامش الفصل الأول

- (١) يمكن الرجوع للتناول التقدي الذي قدمته ليلي عنان لمجمل هذه الأفكار في : ليلي عنان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ص ٦٨-٧٩.
- (٢) انظر على سبيل المثال : دي شابرول : وصف مصر ، مج ١ ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ص ٢٠٢-٢٠٩ ؛ ٢٥٦-٢٥٧ ؛ ٢٦٠-٢٦١ ؛ صحف بونا بريت في مصر ١٧٩٨-١٨٠١ ، ترجمة صلاح الدين البستاني ، دار العرب للبستاني ، ١٩٧١ ، (صحيفة لاديكاد ايجيسين : ص ص ٣٦٧-٣٧٥ ؛ ٢٧٢ ، ٣١٠-٣٣٨) ؛ (صحيفة " كوربيه دي ليجيت " التي اهتمت أكثر من غيرها بتقد النظام التقليدي للماليك : العدد ١٧ (ص ٥٤) ؛ ١٨ (ص ٦٠) ؛ ١٩ (ص ص ٦١-٦٣) ؛ ٢٧ (ص ١٠٤) ؛ ٢٩ (ص ص ١٠٨-١٠٩) ، ٣٣ (ص ص ١٢٦-١٢٨) ؛ ٧٦ (ص ٢٩٢) ؛ ٨٧ (ص ص ٣٢٤-٣٢٨) ؛ ٩٩ (ص ٣٦٢).
- (٣) عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، (أربعة أجزاء) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٩٨ ، ج ٣ ، ص ص ٤-٥ (حوادث يومية ٢٥ محرم ١٢١٣ / ٩ يولييه ١٧٩٨) ؛ نقولا الترك : ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ، تحقيق ياسين سويد ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص ص ٢٩-٣٠.
- (4) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Dans : Kléber en Égypte, 1798-1800, 4 vols., étude historique, présentation et notes par Henry Laurens, [IFAO], 1988, t.3, p. 142.
- (5) Napoléon Bonaparte : Compagnes d'Égypte et de Syrie, Présentation par Henry Laurens, Imprimerie Nationale Éditions 1998, p.91; Reynier : State of Egypt after Battle of Heliopolis, Translated From The French, London, 1802, p. 61.,
- استيف : وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، مج ٥ ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٩٧.
- (6) Bonaparte aux Commissaires Français près du Divan général, (4Oct. 1798)

- Correspondance de Napoléon 1^{er}. Publiée par ordre de L'Empereur Napoléon III, 32 vols., paris 1858-70, t. 5, N^o 3423, pp. 32-33.
- (٧) ليلي عنان : المرجع السابق، ج ١، ص ص ٦٨-٨٢، ج ٢، ص ص ١٨٠، ١٩٢-١٩٣، ٢٤٠.
- (8) Questions adressées au Divan Général d'Égypte par Le Général en chef., au Caire, (29 juillet 1798), Corres., t. 4, N^o 2850, p. 261.
- (٩) كورييه دي ليجيت، العدد رقم (٩)، ص ٢٤.
- (١٠) لم يكن ثمة من يعرف بالوجهة الحقيقية لحملة مصر سوى عدد قليل جداً، وكان ذلك سبباً في تضارب التكهنات حول كنه مشروع هذه الحملة، انظر :
- Klé ..., t.1, p. 534; Moiret, J.M : Mémoires Sur L'Expédition D'Égypte, Paris 1984, pp. 19-20
- (11) Corres. t.4, N^o 2712 annexe à la pièce N^o 2708, p. 185; Ordre N^o 2783, pp. 227-228.
- (12) Moiret : op. cit, pp. 29-31;
- وقد أورد الجبرتي ونقولا الترك نص المنشور في يومياتهما. انظر : الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ص ٣-٥؛ نقولا الترك : المصدر السابق، ص ٣٠.
- (١٣) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ص ٧-٨، وسوف يؤكد رواية الجبرتي "تاليان" في تقريره الذي أرسله إلى أحد أعضاء حكومة الإدارة : "فالممالك دفنوا خزائن أموالهم ونفائس ممتلكاتهم في الأرض، وحملوا بعضها معهم، لأنهم لم يظهروا لنا سوى أشياء قليلة القيمة ... " انظر :
- Tallien à Barras, Membre du Directoire Exécutif, (21 Déc. 1799), Klé ..., t. 3, p.327.
- (14) Bonaparte à Desaix (7 août 1798), Corres., t. 4, No 2992, p. 328.
- (15) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 136.
- (16) Bonaparte à Desaix, (4 sept. 1798), Corres., t. 4, N^o 3233, p. 462.
- (17) Bonaparte à Poussielgue, (11 Oct. 1798), Ibid., t. 5, N^o 3454, pp. 52-53.

(18) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 275.

ويبدو أن وجهة نظر بونايرت هذه كانت منذ البداية ؛ فهو في عرضه على الأمير مراد بك ولاية جرجا، طالب الأخير بأن يزوده بفرقة مملوكية قوامها ٨٠٠ مملوكي يُقاد بهم في الإدارة.

انظر. Ibid., p. 136.

(19) Zayonchek à Dugua, (24 Fev. 1799); (17 Av. 1799); (15 Av. 1799) Dans.

Les Polonais en Égypte, (1798-1801), Paris 1910, pp. 160, 211, 214.

(٢٠) كانت تذكر أسماء الممالك وذويهم تحت اصطلاح : " براي رعايا ". انظر على ميل المثال :

دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية أشمونين ومال نواحي مذكورة لسنة ١٢١٣، ص ٢٢٦٤،

كراس ١، ورقة ٤؛ كذلك راجع تقرير حسين أفندي في :

Vincennes, B⁶ 82, " Hussein Effendi des Multésims à Reynier " (11 Déc.

1800).

(والنص محرر باللغة العربية).

(٢١) دار الوثائق : محكمة منفلوط الشرعية (إشهادات)، ص ٤، ص ٦٠، م ١٩٣؛ ص ٦٥، م ٢٠٧؛

ص ٨٩-٩٠، ص ٢٧٢؛ ص ٢٧٤.

(22) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 117.

(٢٣) المكتبة المركزية - جامعة القاهرة : محافظ وثائق الحملة الفرنسية، حافظة (196) ملف

: (VIII-E)

"Tableau des Contributions de La Province de Girgé en argent, an 7

(1798-99) ".

(24) Napoléon Bonaparte : op. cit., pp. 62-64; Desaix à Belliard, à Girgeh,

(19Av.1799), C. De La Jonquière : L'Expédition D'Égypte, 5 vols., paris

(1899-1907), t. 3, p.650.

(٢٥) انظر الفصل الثاني والثالث.

(26) Ordre du Jour, (6 Juillet 1798), Corres, t. 4 No 2767, p. 218.

وكان بوسيلج هو الذي اقترح على بونايرت إجراء السلفة الإجبارية من حساب الضرائب.

انظر :

Reybaud, L. et autres : Histoire Scientifique et Militaire de L'Expédition Française en Égypte, 10 vols., paris (1830 et 1836), t. 3, p. 346.

(٢٧) الجبرتي : تاريخ مدة الفرنسيين بمصر، (محرم ١٢١٣ - رجب ١٢١٣ / يونيه إلى ديسمبر ١٧٩٨)، تحقيق وتقديم ونشر وترجمة موريه، ليدن ١٩٧٥، ص ٤٠؛ عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٦.

(٢٨) الجبرتي : مدة الفرنسيين، ص ٤٠، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص ٤٩.

(29) Corres. t. 5, N° 3423, p. 32; Napoléon Bonaparte : op. cit., pp. 157-8.

(٣٠) جيرار، ب. س : وصف مصر، مج ٤، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٥٦.

(31) Napoléon Bonaparte : op. cit., pp. 157-9.

(32) Vivant Denon : Voyage dans La Basse et La Haute-Égypte, présentation de Jean - Claude Vatin, Le Caire [IFAO], 1989, p. 104.

(33) Le Journal de Belliard, à Girgeh, (9 Jan. 1799), La Jonquière, t. 3, pp. 517-518.

(34) Napoléon Bonaparte : op. Cit., pp. 157, 158.

(35) Ordre de Bonaparte, (4 sept. 1798), N° 3238, corres. t. 4. Pp. 464-465.

الجبرتي : مدة الفرنسيين، ص ٤٠؛ عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٦.

(36) Ibid.; Histoire Scientifique, t. 4, p. 89.

(٣٧) يُلاحظ أنه حتى لحظة انعقاد الديوان العمومي كان الجنرال ديزيه ما يزال بالفيوم، ويخوض معركة ضارية مع مراد بك عند " سدمنت " التي قيل : إنها الثانية في الأهمية بعد معركة إمبابة. لمزيد من التفاصيل انظر : نبيل الطوخي : صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية، (١٧٩٨-١٨٠١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ص ١٣١-١٣٨.

(38) Histoire Scientifique, t. 4, p. 89.

(٣٩) حول الأسئلة التي وجهها بونايرت للديوان انظر :

Bonaparte aux Commissaires Français près Le Divan général, (4 Oct. 1798), Corres., t. 5, N^o 3423, pp 32-33.

(٤٠) الجبرتي : مدة الفرنسيين، ص ٦٠.

(41) Napoléon Bonaparte : op. cit., 158-9.

ويرد في تقرير بتروتشي الوكيل المالي الفرنسي بأقاليم مصر العليا، إشارة سريعة إلى أن الملكية الخاصة للأراضي قد أخذت في التقلص بدءاً من موت آخر خليفة فاطمي. انظر المكتبة المركزية _ جامعة القاهرة : محافظ وثائق الحملة الفرنسية، رقم (196) ملف (V111 - E) :

Tableau de L'impôt et des contributions de La Province de Girgé par Petrucci, p.3.

(42) Napoléon Bonaparte : Op. Cit., p. 159.

ويلاحظ أن الإبقاء على " الأواصي " في أيدي الملتزمين ظل من المبادئ الأساسية في كل إصلاح نال، سواء في فترة منو أو في عهد محمد علي. وحول وضع الأواصي في القرن التاسع عشر : انظر رءوف عباس، عاصم الدسوقي : كبار الملاك والفلاحون في مصر (١٨٣٧-١٩٥٢) دار قباء بالقاهرة، ١٩٩٨م، ص ص ٤٦-٤٧.

(43) Ibid.

(44) Ibid.; p. 158; Histoire Scientifique ..., t. 3, p. 346.

(45) Bonaparte à Dugua, (7 Jan.-1799), Corres., t. 5, N^o 3812, p. 237.

(46) Estève à Menou, (28 Oct. 1800).

دار الوثائق : محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ٣٠ ملف ٥. كذلك أورد الجبرتي في يومية ٢٣ جمادى الثانية ١٢١٥هـ (١١ نوفمبر ١٨٠٠م) إشارة إلى عزيم الفرنسيين على ضبط أراضي الرزق الاحباسية والأوقاف، لأجل التعرف على أوضاعها وإيراداتها. راجع الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٦.

(٤٧) انظر الفصل الخامس.

(48) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 274.

- (٤٩) أندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ص ٢٩٢-٢٩٣.
- (٥٠) انظر الفصل الثاني.
- (51) Lettre de Bonaparte à Kléber, (22 août. 1799), La Jonquière, t. 5, p. 595.
- ريمون : المرجع السابق، ص ١٥٧.
- (٥٢) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤٣.
- (53) Villes de La Haute - Égypte par Le Général Donzelot, p. 15.
- المكتبة المركزية - جامعة القاهرة، حافظة (197) ملف (X-A).
- (54) Tableau de l'impôt, p. 40.
- الأرشيف نفسه، حافظة (196) ملف (V111-E).
- (55) Villes de La Haute - Égypte .. p. 19.
- (٥٦) دار الوثائق : دفتر ترابع ولاية فيوم، لسنة ١٢١٣ هـ س ٢٢٥٧.
- (57) Vincennes, B⁶ 81.
- "إعلام العمال ناحية صفت أبو جرج بولاية البهنساوية"، والنص العربي للوثيقة مصحوب
بترجمة فرنسية، وجاء ممهوراً بتوقيع وخاتم مدير المالية بوسيلج (١٢ سبتمبر ١٧٩٩).
- (٥٨) الحالة الوحيدة التي تحصل فيها الفرنسيون على ضريبة من أراضي الرزق كانت متمثلة في "ضريبة استثنائية" فرضها المالك من قبل على بعض أراضي الرزق مما جعل الفرنسيين يطالبون بها. انظر على سبيل المثال : "رزقة بناحية طوخ" بولاية الأشمونين.
- دار الوثائق "ترابع ولاية الأشمونين، لسنة ١٢١٣ (٩٨-١٧٩٩)، س ٢٢٦٤.
- (59) Vincennes, B⁶ 81 " Comptes relatifs aux revenus en nature de La Haute - Égypte.
- (٦٠) هنري لورنس : المرجع السابق ، ص ٢٢٦.
- (61) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 62.
- (62) Rapport du Général Desaix au général en chef Kléber, (12 sept. 1799).
- دار الوثائق : محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ١٨ ، ملف ١٦.
- (63) Desvernois : Mémoires de général baron 1789-1815, Publiés par Albert

Dufourcq, Paris, 1989, pp. 162-165;

كرستوفر هيرولد : المرجع السابق ، ص ص ٢٥٠-٢٥٢

(64) Desaix à Belliard, à Siout, (11 Juin 1799), La Jonquière: op. cit., t. 5 , p. 262-263.

(٦٥) لانكريه : وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ ، مج ٥، ص ٣١.

(٦٦) دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية جرجا، لسنة ١٢١٣ (٩٨-١٧٩٩)، سجل رقم ٢٢٦٧.

(٦٧) نفسه.

(68) Villes de La Haute - Égypte ..., PP. 10-11.

(69) Tableau de l'impôt ..., p. 5;

ويتفق ذلك مع النتيجة التي توصل إليها كونو بالنسبة لمساخ القري بالوجه البحري. انظر :

كونو : فلاحو الباشا . الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحري ١٧٤٠ - ١٨٥٨ .

المجلس الأعلى للثقافة . العدد (١٣٦) ، القاهرة ٢٠٠٠ . ص ص ١٢٤-١٢٨ .

(70) Ibid.

(71) Vincennes, B⁶ 81 : " Multésims des Provinces de L'Haute - Égypte par Hussein Effendi, (21 Déc. 1800);

دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية الفيوم (٢٢٥٧)؛ الجيزة (٢٢٧٥ ، ٢٢٨٦) البهنساوية

(٢٢٧٩)؛ الأشمونين (٢٢٦٤)؛ جرجا (٢٢٦٧).

(٧٢) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ص ١٠، ٤٥٦ ؛

Peyrusse, A : Les Finances de L'Égypte pendant l'occupation française, La Revue Britannique, 1882, pp.[437-497] , p. 449.

(٧٣) تُعد حصص التزام عثمان أفندي العباسي (وكان قد شغل وظيفة الروزنامجي في فترة سابقة

على مجيء الحملة) نموذجاً مهماً للإفراج عن حصص الأتندية المتسحبين إلى بلاد الشام،

وخاصة لأنه كان أكثر الأتندية التزاماً لخصص متعددة بلغت - وفقاً لما تم رصده بدفاتر

الترايع بالوجه القبلي (٧٤ قيراطاً و ٢٠ سهماً)؛ أي ما يربو على ثلاث قرى موزعة على

أقاليم مصر الوسطى. وذكره الجبرتي بين العائدين من الأتندية خلال حملة سوريا.

انظر : دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية الجيزة (٢٢٧٩ ، ٢٢٨٦) ؛ الفيوم (٢٢٥٧) ؛
الأشمونين (٢٢٦٤) ؛ البهنساوية (٢٢٧٩) ؛ الجبرتي : عجائب الآثار، ح٣، ص ٩١،
١٢٥، ٥٦٧.

(٧٤) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ١٢٥.

(٧٥) ريمون : المرجع السابق، ص ٢٨٠؛ وكان استيف قد أعد قوائم بالمتأخرين في تسديد
الضرائب، وأشار في رسالته إلى الجنرال دوجا بقائمة تخص المباشرين الأقباط وحدهم. انظر:
Vincennes, B⁶ 28 : Estève à Dugua, (12 août 1799).

(76) Peyrusse, A : op. cit., pp. 475-476.

(77) Bonaparte à Dugua, Corres. , t. 5, N^o 3812, p. 237.

كذلك راجع : دي شابرول : وصف مصر، مج١، ص ٢٠٧.

(78) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 157.

(٧٩) حسين أفندي : ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، تحقيق محمد شفيق غربال ،
نشرها في مجلة كلية الآداب تحت عنوان «مصر عند مفترق الطرق» ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، مج٤
، ج١ (القاهرة ١٩٣٦) ، ص ٣٦.

(80) Tableau de l'impôt, [pp. 1-59]

المكتبة المركزية _ جامعة القاهرة، حافظة (196)، ملف (V111-E) .

(٨١) انظر الفصل الخامس.

(٨٢) دي شابرول : وصف مصر، مج١، ص ٢٠٣.

(٨٣) حسين أفندي : المرجع السابق، ص ٣٣.

(٨٤) من الجدير بالذكر أن المباشرين الأقباط كانوا قد قاموا بتحويل الضرائب العينية (وكان —
إيرادات الصعيد عينية) إلى ما يعادلها نقداً في إطار محاولة الإدارة المالية تبسيط الحسابات.
انظر الفصل الرابع.

(٨٥) دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية جرجا لسنة ١٢١٣، سجل رقم ٢٢٦٧،

(*) براي : الأصل التركي للكلمة " بورايه " buraya بمعنى الإشارة لمكان أو لموضع محدد، ومنها
"بورا/ بوره" bura بمعنى " هذا المكان ". واستخدم المباشرون الأقباط والأفندية هذه الكلمة

في دفاتر الروزنامة بمعنى " ما يخص " أو " لأجل ". وحول أصل الكلمة انظر :

New Redhouse (Turkish - English) Dictionary, Istanbul 1968, p. 201.

(86) Arrêté de Bonaparte, Corres.. t. 4, N^o 3320, p. 506; Tableau de l'impôt, p. 5

; Peyrusse. A : op. Cit., p. 475.

(٨٧) نقولا الترك : المصدر السابق، ص ٣٨.

الفصل الثانى إدارة الجباية بقرى الجمهور

كان لابد أن يولى الفرنسيون اهتماماً كبيراً لإدارة القرى التى آلت - بعد مصادرتها - إلى أملاك "المشيخة الفرنساوية"، وخاصة وأنها أربت على ثلاثة أرباع قرى الصعيد (وأكثر من ثلثى قرى مصر)، وهو ما يعنى أنها شكلت المصدر الرئيسى لإيرادات مالية خزانة الجيش: فهل كان لدى الفرنسيين تصور واضح للطريقة التى يمكن أن تستغل بها هذه الممتلكات، بالشكل الذى يحقق السيطرة على الموارد الخراجية التى كانت تغلها هذه القرى للملتزمين القدامى؟ وهل كان فى وسعهم احتواء الريف، بدرجة أو بأخرى، وتطويع الممولين للضرائب على التجارب مع السلطة الجديدة؟ أم يمضوا فى سياستهم المالية، بطريقة التجربة والخطأ، واختبار مردود القرارات والأوامر اليومية على أهالى القرى؟ ويمكن أن نطرح سؤالاً إضافياً آخر، حول درجة استجابة الفلاحين ومشايخ "قرى الجمهور" لما كانت تُملية عليهم ظروف هذه المرحلة غير العادية. وتبدو هذه التساؤلات ضرورية لفهم وتحليل طبيعة العلاقة الجدلية التى ربطت أهالى القرى بالمستولين الماليين، والتعرف على المشكلات التى واجهت إدارة الجباية خلال سنوات الاحتلال.

وفى البداية، كان التصور انعام لإدارة "قرى الجمهور" بسيطاً للغاية: فقد كان الفرنسيون يعتبرون أنفسهم "ورثة المماليك" Successeurs des Mamelucks، ومن ثم فالأمر لا يعدو أن "ملتزمين جددًا" حلوا محل "الملتزمين المماليك" ^(١) وأن استدعاء الكوادر القديمة التقليدية كالمباشرين الأقباط ومشايخ القرى، الذين كانوا يديرون التزامات المماليك، يمكن أن يُذلل الكثير من الصعوبات، ولذلك يُلاحظ بأن بونابرت سارع بتعيين المباشرين الأقباط الذين أوفدهم تباعاً إلى الأقاليم التى تم إخضاعها للنفوذ الفرنسى ^(٢) فيما عهد إلى الجنرالات (حكام الأقاليم) بتدبير أمر "مشايخ القرى"، بحيث يتم إلحاقهم بإدارة الدواوين الإقليمية، وتحميلهم المسئولية المعتادة عن جباية الضرائب من الفلاحين ^(٣) وبدا للقيادة العامة أن الرهان على استجابة القرى لدفع الضرائب مرتبط باستمرار دور هذه الكوادر التقليدية من ناحية، واعتماد قوائم الضرائب دون أى تغيير فى معدلاتها من ناحية أخرى.

ويؤدى تعثر الجباية، خلال الشهور الأولى للاحتلال إلى الاتزعاج؛ فقد تم الإفراط فى تبسيط مسألة الجباية، التى كانت، فى حقيقتها، بالغة التعقيد، الأمر الذى أفضى بالقائد العام إلى الضغط على القرى من خلال إصداره لتوجيهات تقضى بالقبض على مشايخ القرى، واعتبارهم رهائن enotage، لحين إعلان الأهالى عن الاستجابة لتسديد الضرائب^(٤).

وعلى مدار العام الأول لا تهدأ القرى ولا تكف، غير مرة، عن مشاركة المماليك فى التصدى للاحتلال فى شتى أقاليم الصعيد^(٥) وطالما أن الأمر لم يحسم، بشكل نهائى، للسلطة الجديدة؛ فإن ترويض القرى على إيداء المرونة فى دفع الضرائب يصبح من الأمور العسيرة للغاية.

ويُفصى الجنرال بليار - فى لغة مريرة - للجنرال ديزيه بهذه الحقيقة : "لن يهدأ لنا أبداً مقر بمصر، طالما ظل الأهالى يعتقدون، على نحو دائم، بعودة المماليك، إذ أنهم سوف يواصلون رفضهم لدفع الضرائب.. وتنظيم البلاد يجعلنا نخوض صعوبات جمة ؛ ومن ثم نظل نواجه - دون انقطاع - باحتكاكات عنيفة مع أهالى القرى..."^(٦).

وإذا كان من الضرورى طرد مراد بك ومماليكه من مصر الوسطى والعليا؛ حتى يتأكد للفلاحين ومشايخ القرى تحقق السيطرة الفرنسية؛ ولذا اقتضى الأمر، فى كل مرة، يظهر فيها المماليك فى بعض القرى، أن يسارع الجنرالات باستعراض كتائبهم على مرأى من الفلاحين والمشايخ^(٧) ولأن المماليك يزاحمون الفرنسيين فى جباية الضرائب، فإن أهالى القرى يجدون أنفسهم مستهدفين للدفع مرتين ؛ مما يضطرهم إلى اتخاذ الحيطة والحذر فى الدفع، وإلى متابعة تطور الموقف فى مطاردة الفرنسيين للمماليك. ويصبح من الأمور المعتادة أن الفلاحين لا يدفعون إلا فى اللحظات الحرجة التى لا يملكون فيها دفعا للقوة العسكرية التى تدهم قراهم، سواء من قبل الفرنسيين أو المماليك ؛ حيث كان الطرفان فى حالة سباق وتنافس شديدين على سرعة التحصيل، كل قبل الآخر^(٨).

وتفرض هذه الظروف ضرورة الأخذ بكل الوسائل التى من شأنها أن تذلل السيطرة على جباية الضرائب، وسوف يتم الاعتماد، فى تحقيق هذه المهمة، على الأقل فى

الشهور الأولى لغزو الصعيد، على المعلم " يعقوب " الذى كانت له مكانة متميزة وتأثير كبير على أهالى الصعيد ^(٩). وهذا الأخير الذى ربط - منذ البداية - مصالحه بالفرنسيين - ينشط - على نحو ملحوظ - فى تسهيل عملية إنجاز الجباية. وهو يلجأ إلى "إعمال المكريات وأنواع المصايد والتحيلات " على حد قول الجبرتى الذى رصد فى يومياته بـ "مدة الفرنسيين" إحدى هذه الحيل بقوله : «إذا أرسلوا جماعة من الفرنج (الفرنسيين) بطلب كلفة أو نحو ذلك غير (أى يعقوب) منهم زى اثنين أو ثلاثة، وألبسهم مثل ملابس العثمانيين ، وكتب فى ضمن المكاتبه التحذير من المخالفة، فإن هذا أمر سلطانى، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد ويمثلون الأوامر» ^(١٠).

على أن الجباية فى العديد من القرى والنواحي تتعثر، ويخشى الفرنسيون من انفلات السيطرة على الموارد، وخاصة مع تزايد حركة الممالك بين القرى. وتجد الإدارة الفرنسية نفسها مضطرة إلى البحث عن وسيلة تؤدي إلى ضخ إيرادات الضرائب فى خزانة المالية، وفى الآن نفسه تتفادى الاحتكاكات العنيفة بالممولين. ويتراءى لبونا برت إمكانية تحقيق ذلك من خلال طرح "قرى الجمهور" للإيجار أو للالتزام؛ بحيث يصبح ثمة جماعة محددة، تتحمل مسئولية تأدية هذه المهمة الصعبة، وخاصة أن فترة تحصيل القسط الأول (بين نوفمبر وديسمبر) قد أوشكت على الانصرام. وعلى ذلك فإن قوة الأشياء وشدة الحاجة للأموال، والرغبة فى التأكيد على أن السلطة الجديدة هى الجديرة بتحصيل مستحقات الميري - كانت قد فرضت نفسها، ودفعت بالقائد العام إلى إصدار منشور ، وجهه للمصريين فى ٣٠ ديسمبر ١٧٩٨ ^(١١) والذى يقضى بإدارة "قرى الجمهور" من خلال نظام الالتزام نفسه !!

طرح "قرى الجمهور" للإيجار

ويتم توزيع هذا المنشور فى المدن والأقاليم، ويصبح على المتقدمين أن يتوجهوا لإدارة الأملاك L'Administration des Domaines ؛ للتعاقد على إيجار حصة من؛ الأراضي المصادرة من الممالك. ويتضح من البنود التى تضمنها المنشور أنه صاغ مضمون التعاقد الإيجاري على غطين : الأول بنظام الإيجار المباشر بين إدارة الأملاك،

بوصفها المالك الجديد للأراضي، وبين المولين أنفسهم (الفلاحون ومشايخ القرى)، وينود العقد الإيجارى فى هذا النمط ليست محددة سلفاً، وإنما يجرى تحرير مضمونها بالتراضى أو بالإتفاق gré à gré والثاني من خلال "نظام الالتزام" نفسه، والقائم على أساس "المزايدة" على أن المنشور يحدد مدة التعاقد بعام واحد، وربما كان ذلك لتقليل مخاوف المتقدمين، إذا ما اعتبروا إعادة استئجار حصص التزامات سادتهم القدامى نوعاً من المغامرة، أو كان التحديد بهدف إعطاء الإدارة المالية حق مراجعة عقود الإيجار، فى كل عام؛ بحثاً عن الوسيلة الأكثر أهمية لمالية الاحتلال. كما أن المنشور لا يلزم المتعاقدين بسداد مقدم أقساط الالتزام Le prix de la concession عند التعاقد؛ وإنما يتيح لهم دفعه خلال فترة تقارب الشهرين، ويصبح من ثم فى مقدور المستأجرين أو الملتزمين الجدد les nouveaux concessionnaires سداد ثمن التعاقد من حصيلة الجباية نفسها، وبذا لا يشكل عبئاً عليهم، كما أنه سوف يتولى الوكلاء الفرنسيون خصمه من جملة المستحقات المحددة على كل منهم.

ووفقاً للعقود التى طبعها مارسيل Marcel (مدير المطبعة)، اعتماداً على نص هذا المنشور، فإن الإدارة سوف تراعى خصوصية الأقاليم : فالصعيد يسدد ٥/٤ ضرائبه عينا (بين ١٩ يونيو و ٢٢ سبتمبر)، وتكاليف الجباية ونقل الحبوب وشحنها على المراكب تتحملها إدارة الأملاك، وبالنسبة للجزء النقدى يتم تقسيمه على قسطين متساويين (١٢).

وعلى هذا النحو، يجرى الانتقال من الجباية المباشرة من القرى إلى الجباية من خلال المتعاقدين Les contractants ملتزمين كانوا أو مستأجرين. لكن العرض يُمْنى بالإخفاق الشديد (١٣)؛ فالكثيرون من الأهالى، بما فى ذلك الملتزمين الذين لم يفرج عن حصصهم، أثروا على حد قول الجيرتى: "انتظار الفرج وعودة العثمانيين، [مخافة] أن يتكرر عليهم الحلوان والمغارم" مع أى تغير فى السلطة (١٤). ولا تعد بعثرة القوى المملوكية فى شتى أقاليم مصر الوسطى والعليا، من وجهة نظر الفلاحين ومشايخ القرى، بكافية للتدليل على زوال سلطتهم. وربما كان للمنشورات العثمانية التى وُزعت، مرات عديدة، بين القرى سراً، أثرها فى تصور الجميع بأن الاحتلال الفرنسى

ليس إلا احتلالاً عابراً ؛ وإذا فالتقدم لاستتجار أو لشراء حصة من أراضي الممالك مغامرة غير مأمونة العواقب. وكان هذا بمثابة إحدى القرائن التي سوف تؤكد فشل المرامي الفرنسية في ربط فئات اجتماعية معينة بالاحتلال.

مشايخ القرى وقرار أول فبراير ١٧٩٩

ويتعذر على الفرنسيين إدارة "قرى الجمهور" بالالتزام في ظل مناخ بالغ التوتر ، والذي لا مشاحة قد ترك أثراً عميقاً في فقد سوق الالتزام لجاذبيته المعتادة، بعدما تحيَّف الريف المخاوف ؛ وانعدم الأمن من جراء "حرب العصابات" شبه الدائمة بين الممالك والفرنسيين ، والتي جرت وقائعها بين حقول الفلاحين، والتي كثيراً ما تسببت في إضرار النيران في المزارع وفي القرى نفسها (١٥). وهو ما جعل القرى تخرج عن بكرة أبيها؛ تدافع عن نفسها، وتواصل رفضها لدفع الضرائب. ويكتب ديزيه إلى بونايرت، إبان توجهه إلى سوريا: "لم نستطع حتى الآن (فبراير ١٧٩٩) أن نجتمع إلا النزر اليسير من أموال الميرى ، على الرغم من الجهود التي بذلناها، ونسير بلا توقف وقد ساءت حالة الجنود في ملابسهم وأحذيتهم ، وأن دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم.. وليس من السهل إخضاع الصعيد؛ إننا هنا كأنا في أقصى الدنيا وحالتنا محزنة.."(١٦).

وتشكو الخزانة من قلة ما يصلها من الإيرادات؛ إذ كانت أوضاع الجباية في جميع الأقاليم سيئة ، أو على الأقل تعاني من تباطؤ حركة التسديد ، والتي من المؤكد أنها لم تسعف بونايرت في تدبير احتياجاته المادية؛ للإنفاق على حملة سوريا التي أوشك على القيام بها (١٧)؛ ويضطر من ثم إلى مسaire الواقع الذي يُعلى عليه الاستعانة بمشايخ القرى: فقد أصدر أمراً يومياً (في ١ فبراير ١٧٩٩) يكلف مشايخ القرى ، دون رضاهم، بتحمل مسئولية جباية الضرائب من قرى الجمهور؛ إذ ليس ثمة من هو أقدر منهم على استخلاص الضرائب من الفلاحين، وهم أيضاً الأكثر دراية وخبرة بأنماط العلاقات الإنتاجية التي كانت سائدة بين الفلاحين والمليزمين الممالك. ويصبح منوطاً بهم، وقد صاروا مندوبين للحكومة الفرنسية Préposés du gouvernement، أن يوردوا للخزانة مستحقات الميرى والمضاف والبرانى والكشوفية، وغيرها من الضرائب الشائعة

الرسمية وغير الرسمية التى كانت تحصل قبل مجىء الفرنسيين. وأن يتم دفعها للمباشرين الأقباط فى حضور "الشاهد" بالقرية؛ لتُسلم بعد ذلك للصراف الفرنسى بالدائرة (١٨).

واختلط الأمر على البعض ممن فسروا "الأمر اليومى" على أنه بداية حقيقية لتعديل هياكل مصر الريفية؛ إذ بدا لهم أن المشايخ قد أصبحوا "الملتزمين الجدد" Les nouveaux Moultezims الذين حلوا محل الملتزمين المماليك، وأن ذلك مثل "نقطة اجتماعية" للمشايخ بوصفهم الفئة الأعلى بين فئات المجتمع الريفى (١٩). فالثابت - وكما هو واضح تماماً ببند "الأمر اليومى" - أن المشايخ نيطَ بهم مسئولية جباية الضرائب - وفق المعدلات السائدة - قبل مجىء الاحتلال، بالإضافة إلى تحملهم القيام بمهام "القائم مقام" (وكيل الملتزم) الذى كان يمثل الملتزم أمام الفلاحين ومشايخ القرى، ويباشر جميع مراحل الإنتاج داخل القرية، وينظم علاقات الإنتاج، ولا سيما فى أراضي الأوسية، كما كان يوفر للفلاحين كل مقتضيات الزراعة من بذور وتقاو وبهائم ومحارث وغيرها من أدوات الزراعة الضرورية (٢٠). وإذا فالأمر اليومى اعتبر المشايخ "وكلاء" ممثلين للسلطة الفرنسية، باعتبار هذه الأخيرة المالك الفعلى للأراضى؛ فقد نص "البند الثالث" من الأمر على أن: "كل المشايخ الكبار الذين على القراريت الذى يخص المشيخة الفرنسية يحتاج أن يكونوا موضع قيمقام ويعملوا وينظروا الذى كان يعمله قيمقام". ويضاف إلى ذلك أن المشايخ طُوبوا بتسديد كل أنواع الضرائب، بما فى ذلك "الفايظ والبرانى" اللذين كانا يثولان للملتزم (بند ١) كما لم يرد بالوثائق - على الإطلاق - ما يشير إلى توزيع الأراضى على المشايخ بصفتهم سملتزمين؛ ومن ثم يصعب قبول هذا التفسير. وبالقدر نفسه لا توجد شواهد مقنعة تحملنا على الاعتقاد بأن هذا الأمر قرينة على بداية التحديث التدريجى للريف المصرى (٢١).

وحري أن يكون هذا واضحاً؛ فالمشايخ أنفسهم لم يبدوا، فى معظم الأحيان، أى تفاعل إيجابى لهذا التكليف الإجبارى الذى لم يزد الأمر إلا صعوبة؛ لأنهم فى الأساس كانوا يجمعون الضرائب باسم مخدميهم الأمراء المماليك، وتكليفهم على هذا

النحو إنما يعرضهم لمواقف شائكة؛ إذ سوف يطالبهما الجانبان (الفرنسي والمملوكي) بالضرائب. وفيضان دينون في يومياته (وكان يجوب القرى في صحبة فرقة ديزيه بالصعيد) سوف نجده يصور صعوبة موقف المشايخ والفلاحين بأنهم "إن دفعوا للفرنسيين عدواً ذلك جريمة تعاون معنا، فإذا عاد الممالك بعد رحيلنا لم يتركوا لهم قرشاً ولا حصاناً ولا جملاً، وكثيراً ما كان شيخ القرية يدفع حياته ثمناً لتحيزه المزعوم لنا" (٢٢). ويلقى الشيخ المصير ذاته إذا مال للممالك ورفض إمداد الكتائب الفرنسية بالمؤن الغذائية والضرائب (٢٣).

ولا مشاحة أن الموقف الحرج الذي بات فيه المشايخ والفلاحون بقرى الجمهور، على هذا النحو، قد جعلهم أشد حرصاً عند الدفع. ويمدنا تقرير مدير المالية "بوسيلج" بصورة حية لحركة القرى لحظة مطالبتها بالضرائب: "إنهم يضمنون بأموالهم ولا يسددونها إلا بشق الأنفس، وقرشاً بعد قرش، ونقودهم مخبوءة، وكذلك محاصيلهم وأثاثهم. وهم يعلمون علم اليقين أنه لا مناص من السداد، سواء كان ذلك اختياراً أو اضطراراً، ولكنهم يماطلون حتى إذا داهمهم الجيش لإرغامهم، ورأوا ظلائعهم من بعد، هجروا قراهم رجالاً ونساء وأطفالاً، واستاقوا مواشيهم أمامهم، فإذا وصل الجيش إلى القرية، ووجدها خالية على عروشها، أنسوا من أنفسهم القوة ثم تربصوا في قراهم، وصمدوا للجنود، بعد أن يستنجدوا بالقرى المجاورة لهم وبالعربان النازلين على حدودها. وقلما يأخذهم الجيش على غرة؛ لأنهم يقيمون الأرصاد ويبشون العيون لإنذارهم بقدومه قبل وصوله" (٢٤).

وكان قد ترتب على خروج بونايرت لحملة سوريا سحب جزء مهم من القوات، مما أثر سلباً على حركة الجباية طيلة شتاء عام ١٧٩٩ (٢٥) حتى لقد اضطر جنرالات الصعيد إلى تجنب جباية الضرائب من القرى الكبيرة أو ذات العائلات القوية (٢٦).

وسرعان ما ينعكس ذلك على مالية الاحتلال التي تشكو، من فترة طويلة، من قلة الدخول. ويبدو الجنرال دوجا (الذي عينه بونايرت قائمقام له في حكم مصر خلال حرب سوريا) أكثر تشاؤماً؛ من جراء تدهور الموقف المالي والعام للجيش؛ إذ يكتب إلى الجنرال داماس: "إننا هنا ينقصنا المال والمال ثم المال، والرجال والذخيرة والخشب

وصداقة الأهالى. فهل سوف تعالج عودة الجيش من سوريا كل ذلك ؟ إتنى أتمنى ذلك من كل قلبى، لكننى أعترف لك أتنى انتظر بتفاد صبر، انتهاء هذه المأساة التى تذهب كل يوم بأرواح بعض أبطالها الرئيسيين..^(٢٧).

تعثر الجباية والقبض على مشايخ "قرى الجمهور"

وإذ يؤدى فشل احتلال سوريا إلى تعثر الجباية أياً تعثر، فإن الجنرالات والمستولين الماليين بالصعيد لا يجدون بداً من تكثيف حركة القوات العسكرية بين حقول المزارعين، وانتزاع المشايخ كرهائن؛ لقهر القرى على دفع الميرى (٢٨) فقد بات وضع المالية مؤسفاً، حتى لقد قرر بونابرت تعميم سياسة القبض على جميع مشايخ "قرى الجمهور"، ويتم اقتيادهم إلى القلعة. وتهديدهم جميعاً فى حال عدم استجابتهم للوفاء بتسديد كامل المستحقات، بأن يراكم عليهم غرامة ثقيلة، تقدر بـ ٣/١ الحصيلة، وأنه سوف يمهّلهم أسبوعين، حتى إذا ما مضى يوم ٢٩ أغسطس، دون تسوية حسابات قرى الجمهور - فإنه سوف يضطر إلى قطع رقابهم^(٢٩) ويعلن بأنه لن يعترف بإيصالات السداد التى حررها لهم الممالك عند تحصلهم للضرائب خلال فترات المطاردة^(٣٠).

ويبدو موقف "ديوان القاهرة" الرافض لقرار القبض على مشايخ القرى عاملاً أساسياً فى إثناء القيادة العامة عن متابعة ضغوطها وتهديداتها للمشايخ: فقد أعلن "المشايخ والعلماء أعضاء الديوان بأنهم لن يعودوا لممارسة مهامهم بالديوان إذا لم يفرج عن مشايخ القرى". وهذا التكتاف يثير امتعاض مدير المالية "بوسيلج" الذى يكتب رسالة مطولة إلى بونابرت؛ ليحيطه علماً بأبعاد المشكلة؛ وليؤكد له بأن الديوان، غير مرة، كان عقبة حقيقية أمام الإدارة المالية فى تحصيل الضرائب من القرى: "لقد خلط الديوان بين كل شئ؛ فهو ينصت للشكاوى التى يقدمها مشايخ القرى فى كل أقاليم مصر، وهم وغيرهم لا يريدون إلا أن يتملصوا من دفع الضرائب أو يحصلوا على تخفيضات لها. ويظل الديوان يتبارى فى الدفاع عنهم بحماس شديد الأمر الذى يجعلنى أنشغل بالتحقيق فى كل حالة..والذى يؤلمنى - بشدة - حقيقة أنه إذا لم يدفع كل شخص، فإتانا لن نجد للجيش أى مورد مالى، ولذلك فإتانا مضطرون إلى خوض جولات صعبة وشاقة جداً، للحصول على الأموال.."^(٣١).

على أن، "بوسيلج" نفسه سوف يقر فى تقريره المالى الشامل عن مجمل فترة بونايرت، والذي حرره لحكومة الإدارة الفرنسية بأن سياسة القبض على مشايخ القرى واتخاذهم رهائن لم تحقق نتائج ذات بال^(٣٢). وهو ما أدى إلى تراكم متأخرات المال الميرى بقرى الجمهور، تماماً كشأن متأخرات قرى الرعايا. وتصبح الخزانة، من ثم، خاوية من "سول"(*) واحد عند مغادرة بونايرت لمصر فى ٢٨ أغسطس ١٧٩٩^(٣٣) بل إن تقريراً للمنظم العام للصرف بالجيش "دور" سوف يكشف عن ارتفاع مديونية الخزانة لقطاع الخدمات فى الجيش (الأغذية - الصحة - الملابس - الأحذية.. إلخ) وهو ما يعنى وجود عجز عن تغطية الاحتياجات الأساسية للجنود، بشكل دفعه إلى أن يقرر، فى نهاية التقرير بأنه لا حل للأزمة المالية إلا بعقد السلام^(٣٤) وهو ما يعنى إنهاء مشروع الاحتلال!

ويدرك كبير ثقل التركة التى ورثها عن سلفه، وبالقدر نفسه يشعر بأهمية الحاجة إلى تهدئة الأوضاع؛ حتى لا تخرج عن نطاق السيطرة : فجميع مشايخ القرى يعاودون مواقعهم فى الريف دون أن يمسه شىء من تهديدات بونايرت السابقة. ويؤدي تعزيز الاحترام والتقدير لمشايخ "ديوان القاهرة" إلى استمرار دورهم، دون تحديد لاختصاصات معينة، تحول دون تدخلهم فى المسائل المتصلة بالمالية والضرائب، وذلك خلافاً لما أمله مدير المالية. ومن ثم، يجد الديوان نفسه مطلق الحق فى التدخل فى مشاكل الأرض والضرائب؛ إذ بعد أسابيع قليلة، يبرز عريضة شكوى لمشايخ قرى، جاءوا من ولاية البهنسا يطالبون، لأسباب وجيهة، بتخفيض الضرائب^(٣٥). ورغم الحاجة الماسة للأموال، إلا أن العريضة تلقى استجابة سريعة من جانب الإدارة الفرنسية^(٣٦).

وكان الشاغل الرئيسى المهيمن على اهتمامات كبير منصباً على كيفية تأمين احتياجات الجيش، والبحث عن الوسائل التى تحقق إيرادات إضافية للخروج من الأزمة، وذلك دون اللجوء إلى أسلوب المصادرات والضرائب الاستثنائية التى طالما أرهقت الأهالى فى فترة سلفه^(٣٧).

وبداهة ينعكس ذلك على مجمل سياسته المالية : فهو فى البداية يولى اهتماماً ملحوظاً بمشكلة "بواقى المال الميرى" عن عام ١٢١٣ (٩٨ - ١٧٩٩)^(٣٨) باعتبار أن

تحصيل أى مبالغ من المشايخ والفلاحين من هذه المتأخرات يمكن أن يساهم فى تغطية جانب من المصروفات الضرورية المتزايدة. وسعيًا إلى تعظيم العائد الربعى لاستغلال أراضي قرى الجمهور، فإنه يجرى اتخاذ قراراتين مهمين : الأول تعديل شروط إيجار أطيان أملاك الجمهور بالشكل الذي يؤمل معه إدراج فوائض أفضل من سابقتها، والثانى تعميم الضرائب على مجمل أنواع الأراضي التى تقع داخل قرى الجمهور.

قرار ١٨ سبتمبر ١٧٩٩ والشروط الإيجارية الجديدة

أولى كليب اهتمامه بإعادة النظر فى شروط العقود الإيجارية قبل أيام معدودة من بدء السنة المالية الثانية، فقد أصدر فى ١٨ سبتمبر أمراً يومياً^(٣٩) يقضى بأن "قرى الجمهور" سوف تطرح للإيجار وليس للالتزام. والإيجار نفسه سوف يقوم على فكرة "المزايدة" L'adjudication، وليس على مبدأ "التوافق" بين المستأجر والمالك : إذ بعد أن يتقدم الراغب فى الإيجار إلى مدير المالية، ويسجل معه مساحة الحصة وقيمتها الإيجارية المقترحة، يقوم الأخير بمطالعة مختلف التقديرات المقدمة، ويحرر للقائد العام تقريراً وافياً بها، يوضح به العقود الأكثر جدارة بالقبول، والأخرى التى يتعين إرجاءها؛ انتظاراً لعقود أكثر أهمية لها. على أن الاعتماد النهائى لن يتم قبل جلسة المزاد العلنية. وأنه إذا ما تقدم مزاييد L'enchérisseur بسعر أعلى، لأى عقد، فإنها تثول إلى الأخير وتطرح عن المتقدم الأول.

ومن الواضح أن كليب حاول الإفادة من مبدأ "المزايدة" فى نظام الالتزام، ليطبقه على الإيجار؛ وربما كان ذلك بهدف التعرف على القيمة الحقيقية لما يمكن أن تغله الأراضي؛ بعيداً عن التقديرات المشكوك فيها والتى قدمها المباشرون الأقباط. والمستأجر الجديد سوف يطلق عليه "متعهد" Soumissionnaire؛ باعتباره مسئولاً أمام الإدارة المالية عن زراعة الأراضي وتسديد المستحقات. والقيمة الإيجارية، بصفة عامة، سوف تشتمل على مختلف أنواع الضرائب التى كانت تحصل فى زمن المماليك^(٤٠).

وفى وسعنا تفسير تمسك كليب فى عدم إدارة "قرى الجمهور"، من خلال نظام الالتزام؛ بأن ذلك كان جزءاً من حل للأزمة المالية؛ إذ كان يترتب على رد الحصص

لبعض الملتزمين أن يُستبعد من جملة مساحتها جزء لا يخضع للضرائب والمعروف بـ "الأوسية"، فضلاً عن أن الالتزام يؤدي إلى حرمان خزانة الاحتلال من عائدات ضريبتى "الفايظ والبرانى" اللتين كانتا تتولان للملتزم. ووفقاً للجدول التالى يتضح أن هاتين الضريبتين مثلتا ما يعادل تقريباً ٦٠٪ من جملة الإيرادات الضريبية المحصلة من قسرى الجمهور!!^(٤١).

جدول يوضح إجمالى المال الفايظ والبرانى إلى

إجمالى الإيرادات المحصلة من قسرى الجمهور لسنة ١٢١٣

اسم الولاية	الإجمالى للإيرادات	إجمالى الفايظ والبرانى
	«بقرى الجمهور»	«بقرى الجمهور»
الفيوم	٧,٠٠٠,٣٠١	٤,٠٧٢,٥٤١
الأشمونيين	٦,٦٧٦,١٠٦	٣,٢٠٧,٦٥٠
منفلوطية	٢,٨٦٨,٩٨٨	١,١٣٧,٧٢١
جرجا	٣٦,٧٠٦,٥٧٦	٢٣,٤٥٣,١٨٥
الإجمالى	٥٣,٢٥١,٩٧١	٣١,٨٧١,٠٩٧
النسبة	٪١٠٠	٪٦٠

المصدر: تم رصد بيانات هذا الجدول من خلال دفاتر ترويع المعلمين الأقباط لسنة ١٢١٣ (٩٨) - (١٧٩٩): الفيوم (٢٢٥٧) الأشمونيين (٢٢٦٤)، المنفلوطية (٢٢٦٥)، جرجا (٢٢٦٧).

وإذاً يمكن النظر إلى هذا القرار باعتباره وسيلة للحفاظ على موارد الخزانة. على أن تشديد كليبر على مبدأ "المزايدة" لا يعنى - أو بالأحرى - لا ينهض دليلاً على وجود طلب قوى أو تزاحم على استئجار الأراضى؛ فالأمر لا يعدو رغبة قوية فى تحقيق زيادة فى مجمل الإيرادات التى تغلّها أراضى الجمهور وحسب. ورغم أن طرح الأراضى للإيجار لم يختلف فى كنهه عما كان سائداً فى زمن المماليك^(٤٢) إلا أن الظروف ظلت غير ملائمة لتفاعل الأهالى مع سلطة محتل، فرض نفسه كمالك للأراضى، فى الوقت الذى لم يوفر المناخ الأمن للممولين. فقد ظلت القرى تعاني من المناوشات والمطاردات

العنيفة بكل أقاليم الصعيد قاطبة. وكان الجانبان (الفرنسى والمملوكى) ما يزالان فى حالة سباق على جباية الضرائب، وكل حزب بما لديه من قوة عسكرية يحاول قهر القرى على الدفع^(٤٣).

ويؤكد الجبرتى، من ناحية أخرى، بأن سوء فيضان ١٢١٤ (١٧٩٩-١٨٠٠)، والذي أدى إلى شراقى مساحات واسعة، كان من بين الأسباب التى نفرت الأهالى من حياة الأراضى^(٤٤) ومراسلات المسئولين الماليين وحكام الأقاليم بالصعيد سوف تؤكد ما ذهب إليه الجبرتى؛ فقد برزت ظاهرة "التسحب الجماعى" فى قرى الجمهور بالصعيد؛ حيال رفض مدير المالية طلبات تخفيض الضرائب بقدر الشراقى^(٤٥)؛ إذ أعلن بأن الإدارة: "ليست مستعدة لأن تسمع كل الطلبات الراغبة فى تخفيض الضرائب، فجميع هذه الطلبات سوف ترفض كلية، فنحن فى حاجة ماسة إلى الأموال، ويمكننا أن نكون أقل سخاءً عن أن نكون عادلين فى هذه المسألة"^(٤٦).

ومن الجدير بالذكر أن هذا الإعلان سبق صدور قرار ١٨ سبتمبر بأسبوعين، ويُفترض، من ثم، أنه حدٌ كثيراً من استجابة الأهالى للعرض الذى اقترحه كبير لإيجارات الأراضى. وبين مراسلات هذا الأخير نجد إشارة واضحة إلى أن إقليم بنى سويف لم يتقدم أحد لاستئجار حصة واحدة من أراضى الجمهور^(٤٧). وبالمثل لم تصلنا أية عقود إيجارية خاصة بأقاليم مصر العليا والتى سوف تشكل بعد بضعة شهور ولاية مملوكية، تُدار دخولها لحساب مراد بك وأتباعه من الأمراء المماليك^(٤٨).

ويفهم من تساؤل استيف عن الأطيان التى استؤجرت فى فترة سلفه وزير المالية "بوسيلج" بأنها لم تطرح للإيجار من بعده^(٤٩). وهو الذى قفل عائداً لفرنسا فى ١٤ مارس ١٨٠٠^(٥٠). ويشير سكرتير المالية بيروس، بصفة عامة، إلى أن عملية طرح القرى للإيجار قد فشلت برمتها، وخاصة أن أكثر من تقدم للاستئجار كان من الجباة الأقباط؛ إذ يقول: "لقد علمتنا التجربة بأن طرح القرى لهؤلاء المستأجرين لم يكن مفيداً، بل كان مؤذياً لنا وللفلاحين كذلك؛ إذ كانوا يفرعونهم باسمنا، ويعتصرونهم بطلب الضرائب القديمة المتعسفة، فى الوقت الذى لا يكفون فيه عن طلب التخفيضات، وإعطائهم المهلة تلو الأخرى، تحت الزعم بأن الوضع سيئ بالقرى إلى حد يعجزهم عن السداد"^(٥١).

ويتأكد للفرنسيين صعوبة إدارة الأراضي من خلال "وسطاء مستأجرين"، وحالئذ لا يجدون بداً من العودة - مرة أخرى - للاعتماد على "مشايخ القرى" الذين حملوهم كامل المسئولية عن جباية الضرائب من الفلاحين. غير أن ظروفًا عديدة تتضافر معاً، لتشكل معضلة تحول دون إبداء المشايخ وفلاحى قراهم أية مرونة أو استجابة للتعاون مع المسئولين الماليين الفرنسيين؛ فسوء الفيضان وإصرار الإدارة المالية - كما تقدم - على تحميل الشراقي على الفلاحين، ودخول ريف الصعيد - على نحو خاص - فى حالة من عدم الاستقرار، من جراء التقلبات السياسية السريعة والمتلاحقة على امتداد أربعة شهور (من يناير - إبريل ١٨٠٠) والتي صاحبته ضغوط غير عادية على القرى، من قبل الفرنسيين والمماليك والعثمانيين، فى آن واحد؛ حيث سعى كل طرف إلى الاستئثار بإيرادات الجباية دون الأطراف الأخرى^(٥٢) - جميع هذه العوامل قد ساهمت فى خلق مناخ مضطرب، كما أوجدت حالة من اللامصداقية فى الجميع، خلافاً للإحباط الذى أصاب الفلاحين والمشايخ فى إمكانية تجاوز محنة الاحتلال الفرنسى على المدى القريب؛ حيث عاد الفرنسيون أدراجهم، واستأنفوا نشر قواتهم فى الأقاليم.

ووفقاً لشهادة سكرتير المالية: "كان الوضع المالى، عقب انهيار معاهدة العريش، مؤسفاً للغاية un état déplorable؛ فالنفقات العادية والاستثنائية لا يمكن تغطيتها بالاعتماد على حصيلة غير كافية تماماً؛ من الموارد الضريبية، فى الوقت الذى يتواصل فيه العجز عن سداد مرتبات الجنود، وجزء كبير من مصر تعرض للخراب، والتضحيات لا تحصى.."^(٥٣) وفى ظل هذه الظروف المعقدة كان من المحتم تهدة القرى؛ لترويضها ودفعها إلى التجاوب مع المسئولين الماليين.

"احتواء المماليك" : شرط لاستقرار الجباية وتجاوب القرى ؟

كان قد وضع تماماً أن الفشل فى تحقيق الأمن فى ريف الصعيد قد مثل لب المشكلة الأساسية، والتي ترتبط، على نحو وثيق، بفشل تجربة المطاردة للأمير مراد وبماليكه؛ إذ انهكت حرب العصابات والمناوشات الجيش والخزانة المالية معاً؛ فقد أثبت الزعيم المملوكى بأنه خصم لا يُنال unennemi insaisissable^(٥٤)، وأن القلاقل والاضطرابات التى تسبب فى إثارتها بطول الصعيد كانت عاملاً رئيسياً فى إعاقة عملية جباية

الضرائب من قرى الجمهور^(٥٥). وفى ظل الحالة المالية المتعثرة، وخيبة الأمل فى العودة إلى فرنسا، بعد انهيار معاهدة العريش، يجد كليبر نفسه مضطراً إلى معاودة الاتصال بمراد بك، ودعوته للسلام والتحالف، لأجل تحقيق الأمن فى الريف والسيطرة على الموارد الضريبية. وسوف تؤكد الأحداث أهمية هذه الواقعية السياسية التى طالما ميزت سياسة كليبر فى تعامله مع الوضع المتردى للمالية والجيش.

وقد كان الجميع يدرك أهمية السلام مع مراد بك؛ فهذا الأخير له تأثير كبير على مشايخ القرى والفلاحين، حتى لقد أكد هكتور دور Hector D'aure (المنظم العام للصرف)، فى واحدة من مراسلاته المهمة: "أن كلمة واحدة من مراد بك إلى مشايخ القرى تكفى لوصول الغلال للقاهرة"^(٥٦).

وبعد نجاح المفاوضات وعقد المعاهدة (فى ٥ أبريل ١٨٠٠) والتى بمقتضاها أعطى لمراد بك وللماليكه "ولاية جرجا" - عهد كليبر إلى الزعيم المملوكى بالعمل على حث القرى على التجاوب ودفع مستحقات الميرى^(٥٧) ويلاحظ الجنرال دونزلو Donzelot (حاكم أسبوط والمنيا) انتشار خبر الصلح والسلام بين المماليك والفرنسيين، وأن مشايخ القرى قد أقبلوا على استقبال الأمير مراد بك، وقدموا له التحية اللائقة، وأن الأخير وأتباعه من الأمراء المماليك أوصوا مشايخ القرى باستقبال الفرنسيين والتعاون معهم فى دفع الضرائب^(٥٨).

ويبدى مراد بك اهتماماً بالتأكيد للجانب الفرنسى على أنه سوف يبذل ما فى وسعه؛ لدفع القرى إلى الوفاء بما عليها من مستحقات: "وإن شاء الله تعالى ما دام احنا وانتم موجودين هنا لم أحدا يقدر يقصر فى دفع المطلوب.." ^(٥٩). وتكشف مراسلات هذا الأمير عن دور مهم لأتباعه من الصناجق والكشاف المماليك فى تفعيل حركة التحصيل الضريبى^(٦٠). وتؤكد مراسلات بعض المسئولين الماليين على وجود تعاون واضح لمراد بك فى تقديم المراكب اللازمة لنقل غلال الفرنسيين من جميع القرى بين أسبوط والقاهرة. وكانت قلة المراكب من بين الصعوبات التى واجهت الفرنسيين فى العامين السابقين^(٦١).

ويتضافر مع جهوده فى تذليل صعوبات الجباية من شتى قرى الجمهور، تأثيره القوى على قبائل البدو التى أقبلت على محاكاته فى عقد معاهدات سلام مع الفرنسيين^(٦٢)، وكانت هذه الخطوة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لأهالى القرى؛ لأنها أزالَت المخاوف من غارات البدو؛ وبذلك أصبح الريف فى مأمن من التهديدات الخارجية، سواء من قبل المماليك أو من جهة العربان. ويلاحظ الجنرال زاينوشيك تحقق الهدوء فى دائرته الشاملة لأقاليم مصر الوسطى^(٦٣).

وسرعان ما تنعكس هذه التطورات على أوضاع الجباية؛ إذ تنعم، لأول مرة منذ بداية الاحتلال، باستقرار نسبى؛ يؤكدُه العديد من الإيصالات التى حررها المشايخ والفلاحون للمستولين الفرنسيين، والتى يقرون بها بما عليهم من مستحقات الميرى، وبما سوف يسددونه من أقساط، كما يلاحظ أنهم أبدوا استعداداً لحل مشكلة "بواقى المال الميرى" التى ناهضوا الإدارة المالية - قرابة العامين - فى دفعها^(٦٤).

على أن هذه العلاقة الهادئة نسبياً ما لبثت أن انقلبت مرة أخرى؛ فتحت وطأة الأزمة المالية الشديدة تلجأ الإدارة الفرنسية إلى معاودة سياسة فرض الضرائب الاستثنائية، وابتداع ضرائب جديدة؛ بقصد إيجاد مصادر مالية ثابتة؛ لأجل حل المعضلة الأساسية المتمثلة فى الفجوة الواسعة بين الإيرادات والمصروفات^(٦٥)، والتى ازدادت سوءاً إثر تقلص عدد القرى المنضوية تحت أملاك الجمهور، وخاصة فى الصعيد مصر.

تقلص قرى الجمهور وتفاقم الضغوط المالية

وفى الحقيقة أدى تنازل كليبر للأمير مراد بك عن أقاليم "مصر العليا" إلى تناقص أملاك الجمهور فى ريف الصعيد، ومن ثم تراجع معدل الإيرادات الضريبية الناتجة عن هذه الأقاليم، والمعروف أن "قرى الجمهور" كانت قد تعرضت للتناقص من قبل، إبان مفاوضات العريش (بين ديسمبر ١٧٩٩ ويناير ١٨٠٠)؛ حيث كان كليبر قد سمح برد بعض القرى للترميمها القدامى، نظير دفعهم لمبالغ مالية معينة. وهو وإن كان قد رمى، من

وراء ذلك، إلى تحصيل ما يمكنه من إيرادات؛ تساعد فى تأمين الإنفاق على عملية انسحاب الجيش من مصر، إلا أن فشل المعاهدة فى أواخر مارس ١٨٠٠ قد تسبب فى فقدان عائدات الفايز والبرانى من تلك القرى التى رُدَّت للملتزمين. وسوف تستوقف هذه المسألة سكرتير المالية بيروس؛ حيث سجلها فى تقريره المالى؛ باعتبارها أحد عوامل انخفاض الإيرادات^(٦٦).

وتشكل معاهدة (كلير - مراد) العامل الثانى فى تقلص "قرى الجمهور"؛ فقد أصبح ٣ / ١ قرى الصعيد تقريباً خارج نطاق أملاك الجمهور؛ حيث يفهم من بنود المعاهدة أن أقاليم مصر العليا (إسنا - قنا - جرجا) أصبحت أشبه بالالتزام الكبير، يسددها عنها الزعيم المملوكى خراجاً نقدياً وعينياً للخزانة الفرنسية؛ وذلك تحت مسمى "الميرى المستحق لصاحب السيادة على مصر" *dû au souverain d'Egypte* Miri^(٦٧)؛ فالفرنسيون اعتبروا أنفسهم قد حلوا محل "الدولة العليا"، وأنهم أصبحوا المالك الفعلى للأراضى. وكان هذا هو عين المنظور الذى صيغت من خلاله بنود المعاهدة، فقد اشترط الجانب الفرنسى على مراد بك ألا يغير من طبيعة الملكيات العقارية للأراضى، وإنما ينتفع هو وأتباعه الأمراء بإيرادات مصر العليا وحسب، وفيما عدا ذلك فللأمير المملوكى أن يدير الأقاليم بالطريقة التى يراها مرضية^(٦٨). وكان نابليون قد وصف، فى مذكراته، هذا الامتياز "بالإقطاع"، وبأن وضع مراد بك كان بمثابة "إقطاعى تابع للجمهورية" !! *à titre de Feudataire de la République* وهو تشبيه لا يخلو من مبالغة^(٦٩)، ولسنا فى حاجة إلى مناقشة هذه المسألة؛ فالفوارق جد واسعة بين نظامى الالتزام والإقطاع.

وأياً كان الأمر، فالمؤكد أن التنازل عن أقاليم مصر العليا لمراد بك قد شكل ضغطاً آخر على الخزانة، واستناداً إلى البيانات الواردة فى "دفاتر الترايع" يمكن عمل الجدول التالى الذى يوضح نسبة الإيرادات التى فقدتها خزانة مالية الاحتلال، ويبين كذلك إجمالى مساحة القرى التى خرجت عن دائرة أملاك الجمهور :

اسم الولاية	المساحة بالقيراط	%	الإيرادات بالبارة	%
	س	ط		
أقاليم: الفيوم، الأشمونين، المنفلوطية	٨	٢٢٨١	١٠,٢١٨,١٣٤	%٢٢
أقاليم مصر العليا: إسنا، قنا، جرجا	٩	١٠٣٤	٣٦,٧٠٦,٥٧٦	%٧٨
الإجمالي	١٧	٣٣١٥	٤٦,٩٢٤,٧١٠	%١٠٠

المصدر: تم رصد بيانات هذا الجدول من خلال دفاتر ترابيع ولاية الفيوم (س ٢٢٥٧)؛ الأشمونين (س ٢٢٦٤)؛ منفلوطية (س ٢٢٦٥)؛ جرجا (س ٢٢٦٧) لسنة ١٢١٣ (٩٨-١٧٩٩).

ويتضح من الجدول أن ولاية جرجا (إسنا، قنا، جرجا) كانت من أخصب أقاليم الصعيد قاطبة؛ فعلى الرغم من أنها لا تمثل سوى ٣١٪ (أى نحو ثلث مساحة الصعيد) إلا أنها تساهم بنحو ٥ / ٤ إيرادات الصعيد. وبسبب الوضع المالى المتردى، على نحو مستمر، فإن كليبر قد بدا حريصاً - عند تنازله عن هذه الولاية الغنية للمماليك - على احتفاظ الخزانة بجزء مهم من إيرادات هذه الولاية؛ فالخراج، بنوعيه النقدى والعينى، والذى ألزم مراد بك بدفعه للخزانة الفرنسية، بلغ "١٠,٢٥٠,٠٠٠ بارة" (٧٠) أى ما يمثل ٢٨٪ من إجمالى إيرادات مصر العليا البالغة، وفقاً لدفاتر الترابيع، "٣٦,٧٠٦,٥٧٦ بارة". والمعنى المتضمن، على هذا النحو، يشير إلى أن مالية الاحتلال فقدت أكثر من ٣ / ٢ إيرادات إسنا وقنا وجرجا؛ كمقابل لشراء السلام مع المماليك! وإذا وضعنا فى الاعتبار، أن البيانات الإجمالية فى دفاتر الترابيع - على نحو ما سنرى - كانت موضع شك، وأقل كثيراً من الواقع - لتبين لنا أن المالية الفرنسية ضحت بجزء كبير جداً من إيرادات ولاية جرجا، وهو ما يعتبره البعض أحد الأسباب الرئيسة التى أدت إلى تدهور مالية الاحتلال (٧١).

وفى هذا الإطار يمكن فهم الإجراءات التى اتجه كليبر إلى اتخاذها؛ لتعويض ما فقدته الخزانة من إيرادات مصر العليا: فقد قرر عدم طرح أية حصة من "قرى الجمهور" للالتزام تحت أى مبرر (٧٢)، ومن جانب آخر اتجه إلى تعميم الضرائب على مجمل الأراضى، المعفاة من الضرائب كالأواشى والرزق والأوقاف وأراضى الأوتلاق (التي كانت دخولها

تحصل للبasha العثماني؛ لتعامل كـ "أراضي الفلاحة" الديوانية، ومن ثم يتم تحصيل ضرائب الميرى والكشوفية والفايظ على كل قيراط منها (٧٣). ولأجل تعويض إيرادات جمركى القصير وإسنا اللذين تُركا - كذلك - لمراد بك (٧٤)، فإن كليبر يقرر إنشاء "جمرك أسبوط" على الحدود بين الولاية المملوكية ومناطق النفوذ الفرنسى (٧٥). ويُبالغ فى تحديد الرسوم الجمركية؛ بقصد تحويل تجارة البحر الأحمر إلى ميناء السويس بدلاً من ميناء القصير (٧٦).

على أن هذه الإجراءات التعويضية وغيرها لم تُجدِ كثيراً فى سد الفجوة الفاعرة فى الموازنة المالية ككل، وبما زاد الأمر سوءاً اعتذار الأمير مراد بك عن سداد الخراج الملزم بدفعه؛ فقد كتب للجانب الفرنسى: "وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا فى سنة تاريخه، لأن حاصل لنا تعب من قبل المعاش، والأمر إلى الله تعالى وإلى حضرتكم السعيدة" (٧٧). بل والأكثر من ذلك طالب القيادة الفرنسية بالموافقة على ضم بضعة قرى أخرى من إقليم سوهاج إلى ولايته؛ نظير زيادة تُضاف على الخراج (٧٨). وتحت الحاجة الماسة لاستقرار الأوضاع فى الريف ولا استمرار السلام مع المماليك، فإن القائد العام منو، ورغم امتعاضه الشديد، لا يجد بداً من الموافقة (٧٩).

تفاقم الأزمة المالية واستئفاف العلاقات المتوترة فى الريف

ومن كل حذب وصوب يُطالب منو بالأموال، على حين كانت الخزانة تئن من قلة ما يرد إليها من إيرادات الضرائب. وكان شراقى مساحات واسعة من الأراضي قد أثر، على نحو بالغ السوء، على انخفاض المحصلة النهائية للجبايات العينية، فى سائر الأقاليم، وإن كانت الصورة تبدو أكثر كآبة فى أقاليم مصر الوسطى؛ حتى ليتشكك "دور" (المنظم العام للصرف والمسئول عن أغذية الجيش) فى مدى إمكانية تغطية الاحتياجات الغذائية الضرورية. وأعرب فى رسالة مطولة للقائد العام منو عن قلقه البالغ: "إننا فى حالة عوز شديد للحبوب.. وانتظر بفارغ الصبر تقرير زملائنا (أعضاء اللجنة الإدارية)؛ ليطلعونا على حقيقة وضعنا فى هذا العام، فيما إذا كان فى إمكاننا تأمين احتياجات مختلف المواقع أم أننا سنضطر إلى شراء الحبوب (من الأسواق)..؟" (٨٠).

وتظل المخاوف مستمرة، ومن أسبوع لآخر، خلال صيف ١٨٠٠، يتأكد صعوبة إمداد مخازن الجيش بالحبوب، وخاصة من الصعيد، ويوشك احتياطي المؤن الغذائية على النفاد؛ فالإسكندرية التي كان مقرراً أن تُمد بالغلل التي تؤمن الاحتياجات الغذائية للجيش، لمدة عام كامل، تجد أن مخزونها لا يكفي لمدة شهرين!، والمخازن التي أنشأها كليبر، ليضخ بها ما يمكنه من حبوب تبقى خاوية^(٨١)، وما زاد الأمر ضغطاً على إيالة اتجاهه منو إلى استرضاء الجنود، عبر دفع مرتباتهم المتأخرة؛ وذلك من خلال سحبه للاحتياطي الذي كان كليبر قد ادخره، من قبل، لخوض أية عمليات عسكرية ضد التحالف الأنجلو عثماني. وهو ما يعنى أن أمن الجيش بات مهدداً! ^(٨٢) وفي ٢٢ سبتمبر ١٨٠٠ (أى مع مطلع العام المالى الثالث) يعلن فليسيان Félician (صراف الخزنة الرئيسى) payeur principal : "بأن الخزنة تخلو تماماً فى هذا التوقيت من سول واحد" ! فى الوقت الذى يجب أن ينتظر الصرافون فيه، لمدة أربعة شهور تالية، أى حتى شهر نيفوز (٢١ ديسمبر - ٢٠ يناير ١٨٠١)؛ لكي تصلهم إيرادات القسط الأول من الميرى^(٨٣).

وترادفت الظروف المتردية للمالية؛ لتشكل الخلفية الأساسية التي اضطرت منو إلى ضرب العديد من الضرائب غير العادية Les impositions extraordinaires ، وطلب القروض الإجبارية بدون فوائد Les emprunts forcés ، فقد أكدت التجربة، فى فترة سلفيه، أنه بدون اللجوء إلى هذه الوسيلة يصعب تماماً تأمين نفقات الجيش من خلال الاعتماد على الدخول العادية Les revenus ordinaires^(٨٤) وخلال الفترة من أغسطس إلى أكتوبر ١٨٠٠ لا يألو منو جهداً فى البحث عن الجهات التي يمكن أن تصبح مصدراً جديداً وثابتاً للإيرادات، وكذلك حاول ضبط الموارد القديمة وإعادة ترتيبها؛ لكي تدر أموالاً مهمة على خزنة المالية الخاوية. ودون الدخول فى تفاصيل السياسة الضريبية لمنو^(٨٥) يهمنى التركيز هنا على ما كان له تأثير مباشر على جباية الضرائب من الريف.

والواقع أن "الأمر اليومى، لمنو المتعلق بمشايع القرى^(٨٦) كان له أثر سلبي على العلاقة بين الممولين للضرائب والإدارة المالية: فقد فرض على مشايخ القرى ضريبة يدفعونها نظير الإبقاء على مواقعهم كمشايع للبلاد. وفى مقدمة الأمر برر القائد العام

إصداره لهذه الضريبة بأنها لا تعدو ما كانوا يقدمونه للسلطة السابقة من هدايا: "فمشايخ البلاد من حين دخول الجمهور الفرنسي بمصر ما دفعوا ما كان متوجه عليهم يدفعوه.. على ما جرت به العادة من قديم الزمان.. باسم تقادم فى كل سنة للحكام وذلك تحت أن يلبسوههم ويقرروهم بوظيفتهم.." وعلى ذلك فإن "خزنة الجمهور السلطانية قد خسرت هذه المداخل التى كانت تورد إليها وتحق لها شرعاً ودينا.." ويذهب منو إلى أن هذا يعطيه الحق فى إلزام المشايخ بدفع الرسم مضاعفاً لتعويض الخزنة عن عامى ١٢١٣ و ١٢١٤ (١٧٩٨-١٨٠٠) فهم : " ما دفعوا شيئا بمدة سنتين أعنى منذ حين أخذ الفرنسيون هذه البلاد من العوايد الواجبة عليهم ".

ويلاحظ ارتفاع هذه الرسوم التى قدرت بحسب مساحة كل قرية؛ فقد تراوحت بين ٢٥ : ٢٥٠ ريالاً (٢٢٥٠ رة إلى ٢٢٥٠٠ رة)؛ ولذلك وُصفت بأنها "ضريبة تناسبية" Une imposition proportionnelle^(٨٧) وحيث إن العديد من القرى يتعدد بها المشايخ، فإن "الأمر اليومى" جعل التسديد يتم بصورة جماعية؛ فيجرى تقسيم الضريبة بحسب مساحة حصص الأراضى الواقعة فى دائرة كل شيخ داخل زمام القرية. واللافت للنظر أن منو عمم الضريبة على جميع القرى (جمهور ورعايا)؛ أى أن مشايخ حصص الملزمين سوف تشاطر مشايخ الجمهور دفع الرسوم^(٨٨) وهو ما يؤمل معه غل إيرادات مهمة للخزنة.

وكان منو قد حرص على تضمين "الأمر اليومى" ما يظهر إحاطته بما يتمتع به المشايخ من امتيازات ضخمة قررتها "العادات القديمة"، وأن جزءاً كبيراً منها يتكبده الفلاحون فى كل عام. ولم يكن التعريض بتلك الممارسات، ذات الطابع التعسفى، سوى لفت نظر المشايخ إلى أن إقرارهم فى "منصب المشيخة" أو بالأحرى تجديد تقلدهم لها - على نحو ما أشار فى أمر يومى آخر - هى واحدة من "المكرمات الفرنسية" La générosité française^(٨٩) التى تغض الطرف عن تعسفهم، وتتحرى تثبيتهم فى مواقعهم، وإن أبدت مرأى رغبتها فى تحقيق العدالة والانتصار للفلاح.

ويرصد الجبرتنى فى يومياته وقع هذا "الأمر اليومى" على مشايخ القرى، والذى جاء دون شك - مفاجأة لهم، إذ يقول : "فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد" وإن كان

كاتب الحوليات قد أفرط فى شففته على هؤلاء المشايخ؛ زاعماً بأن "منهم من لم يملك عشاءه (٩٠). وأياً كان الأمر، فإن تهديد منو بسرعة عزل من لم يستجب للدفع، قد جعل المشايخ يترادفون على القاهرة: "فيأتون أفواجا ويذهبون أفواجا" (٩١) وكانت هذه الاستجابة قد استوقفت نظر المراقبين فى الجيش؛ إذ أن جميع أنواع الضرائب الأخرى لم تكن لتحصل إلا من خلال الجولات العسكرية (٩٢).

على أن هذا لا يعنى أن المشايخ تكالبوا على الوفاء بتسديد كامل الضريبة؛ فالثابت أنهم دفعوا جزءاً من المستحقات التى تؤكد نواياهم فى الامتثال لـ "الأمر اليومى" وحسب؛ وذلك لئلا يحل فى مواقعهم آخرون، فيما اتجهوا إلى نقل الضريبة على أهالى القرى: فقد أكد الجبرتنى بأن المشايخ طلبوا المباشرين الأقباط، واتفقوا على توزيع الضريبة على الأطيان، بحيث تدمج فى "مال الخراج"، وأعدت قوائم جديدة بأسماء القرى والكفور وبجملته المستحقات على كل منها بعد إضافة هذه الضريبة (٩٣)، واتجهت فرق الأوجاقات العثمانية (المنوط بها حفظ الأمن فى الريف)، وكذا الجبابة والكتبة الأقباط والمماليك اتجهوا إلى مسaire مشايخ القرى، وحملوا الفلاحين ما فرضه عليهم منو من ضرائب (٩٤).

وسرعان ما يُفاجأ الفلاحون بزيادة معدلات الضرائب على الأضيان، وبصورة غير محتملة، ويصبح الريف فى حالة من الغليان، تنذر بتوقف جباية جميع الضرائب. وبسبب إصرار منو على تحصيل الرسوم الجديدة؛ فإن المشايخ والجبابة والأقباط والأوجاقلو ومن إليهم من "أرباب العوايد" يمتصون فى مطالبة القرى بالزيادات المطلوبة، ويكتفى منو بإصدار منشور؛ يحث فيه الفلاحين على عدم الانصياع لمطالبهم: "يا أهالى مصر ودوايرها نعلمكم بأنكم لم تدفعوا لا للأغا ولا لساير الحكام أرباب العوايد... فقد صدر أمرنا إليكم أن لا تدفعوا لهم شياً وتدفعوا العوايد الجديدة إلى الفرنساوية وغيرهم الذى بيدهم فرماننا..". وحاول منو كذلك - فى المنشور نفسه - إبطال دعوى الجبابة بأن الضرائب زادت من جانب الإدارة المالية: "إن كان سمعتم من أحدا يقول ما زلت تدفعوا عوايد أكثر من ذلك فلا تصدقوهم لأن من الحسد والقهر يقولوا أكثر من ذلك" (٩٥).

وبداهة، لم يكن لهذا المنشور أو لغيره من أثر؛ ومن ثم يتواصل الضغط على الفلاحين، ويزداد انزعاج الفرنسيين، ويضطر منو إلى تأنيب الجبابة عبر إصدار منشور آخر وصفهم فيه بـ "الأشرار" Les malfaiteurs وأنذرهم بدفعهم إلى المحاكمة للاقتصاص منهم^(٩٦) غير أن الأحداث، من يوم لآخر، ظلت تدل على ضعف السلطة الفرنسية عن وضع حد لهذه الضغوط. وحالئذ لا يجد الفلاحون من سبيل سوى اللجوء إلى سلاحهم التقليدى المدمر: "التسحب الجماعى"، وآخرون، وهم الغالبية، أثروا زراعة مساحة محدودة من الأراضى، مخلقين وراءهم مساحات شاسعة من الأراضى الجيدة للبوار؛ بقصد النيل من السلطة، عبر تخفيض الإنتاج، ومن ثم تخفيض حصيلتها من الموارد الضريبية.

ورغم فداحة الخسائر التى سوف تتكبدها الخزانة إلا أن منو يظل يدلل على عدم درايته بالوسائل الفاعلة فى مواجهة هذه المسألة الخطيرة التى تكاد تنذر بانقلاب الريف على السلطة^(٩٧)، إذ يكتفى بإصدار منشور جديد، يستحث فيه الفلاحين على الالتفات للزراعة: "يا أهالى بر مصر ومصر القاهرة إنى أنا أدعيكم بتفليح وتحريث أراضيكم وبساتينكم فإنى أرى فى كل يوم أراضى غير محروثة ومتروكة فعمروا جدرانها وصهاريجها والسواقى الناقلة لها الماء فى أملاككم وأغنوا بالبركة جميع أطيان بر مصر بالهنا والعافية فلا تفزعوا قط إنما ستلاقوا فى كل وقت فى جميع المواضع الأمانة والصيانة..."^(٩٨)

لقد بات واضحاً للفلاحين أن سياسة إصدار المنشورات، الواحد تلو الآخر، والوعود المتتالية برد الأموال^(٩٩) ليست سوى دعايات واهمة، وأنهم، فى مجريات الواقع، يقهرون فى كل يوم على دفع تلك الرسوم. ويؤدى هذا إلى نتيجة عكسية؛ إذ يفقد الريف الثقة فى مدى إمكانية سلطة الجمهور على توفير سياج حماية للفلاحين من الابتزازات والضرائب الجديدة المضافة على قوائمهم. كما أن تردد الأنباء عن وجود استعدادات جادة للجيش العثمانى والإنجليزى، فى شهر يناير ١٨٠١، لخوض معركة مصيرية - كان قد أحدث نوعاً من الاضطراب لدى جميع الأهالى المرتقبين للحظة التحرر من الاحتلال؛ فتوقف حركة تسديدهم للضرائب^(١٠٠).

ويجارى مشايخ القرى الاتجاه نفسه ؛ ويمتنعون عن مواصلة دفع ضريبة التعيين فى المشيخة. وعبثا يحاول منو إمهال المشايخ الفترة بعد الأخرى ؛ لدفعهم إلى الوفاء بكامل المستحقات، غير أن الأنباء فى كل يوم تتزايد وتؤكد بأن الآفاق باتت تنذر بقرب حدوث معركة وشيكة، وحالذاك تتعثر الجباية تماماً^(١٠١).

وفى هذا المناخ المتوتر كان من المتوقع ألا نلاحظ أية ردود فعل لـ "المشروع العظيم" Le Grand Proje الذى أعلنه منو فى ٢٠ يناير ١٨٠١^(١٠٢) والذى تضمن مزايا متعددة بالنسبة للفلاحين ولمشايخ القرى على وجه التحديد: فهو يرمى إلى القضاء على التجاوزات الشاذة، وجعل معدل الضرائب ثابتاً وموحداً على مساحة الأطيان، ونوعية هذه الأخيرة، والأكثر أهمية هو تملكهم للأراضى؛ بحيث يصبحون الطبقة الوحيدة المالكة Une seule classe de propriétaires والمساواة بينهم وبين الملتزمين القدامى "الواحد منهم مثل الآخر يخضع لدفع ضريبة واحدة، على قدر متساو، وأن الفلاحين أحرار فى التصرف فى حيازتهم بحسب إرادتهم ورغباتهم.." ولن يتدخل فى شئونهم أى سلطة خلافاً لسلطة الاحتلال. وأن أية تجاوزات سوف تلقى العقوبة الصارمة التى يحددها بـ "الضرب بوقاحة وسفالة حتى الموت". كذلك يبرز المشروع مكانة خاصة لمشايخ القرى؛ حيث اعتبرهم أمناء رئيسيين فى جباية الضرائب فى مقابل اختزال دور المباشرين الأقباط. والجانب المادى فى المخصصات التى حددها للمشايخ، مقارنة بالمباشرين، سوف تجسد هذه المفارقة الجديدة^(١٠٣).

على أن كل هذه المزايا لم تستثر اهتمام الفلاحين والمشايخ، وإنما ظلت الشواغل الأساسية فى إطار ارتقاع مجىء العثمانيين ووقوع الحرب. ولأن تنفيذ المشروع الإصلاحى لن يتم قبل عمل "مسح شامل للأراضى" والذى يحتاج إلى شهور طويلة، فإن القائد العام منو، وتحت وطأة الحاجة الماسة للأموال، يقرر عمل "جباية مؤقتة une perception provisoire" التى حددها بثلاثة ملايين فرنك. كما يطالب مراد بك بسرعة تسديده للخراج، والأخير لا يرسل سوى مقدم الأقساط والذى يسارع منو بتلقفه؛ لیسدد به جزءاً من نفقات شهر بلوفيز (٢٠ يناير ١٩ فبراير ١٨٠١)^(١٠٤) غير أن هذا يجعل المراقبين يتحققون من فراغ مالية الخزانة، وأن الإيرادات التالية جد نادرة.

ترقب الانسحاب وتوقف الجباية بأقاليم الصعيد

وتواصل معاناة القيادة العامة من جراء عجز الخزانة عن تدبير الموارد الضرورية؛ فقد كان من الصعب ترويض القرى، فى مثل هذه الفترة الحرجة، على دفع الضرائب؛ ومن ثم يتم اللجوء، كما هو معتاد، إلى تكثيف حركة الطواير العسكرية وجولاتها بين القرى، غير أن التحقق من بدء الاجتياح الفعلى للقوات العثمانية والإنجليزية (فى مارس ١٨٠١) كان قد جعل "الجباية مستحيلة" Le recouvrement impossible^(١٠٥)، وتترادف الشواهد المادية المؤكدة على أن الاحتلال الفرنسى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأهمها - بالقطع - انسحاب الجنود الفرنسيين من إقليم بعد آخر من الصعيد فى الاتجاه إلى القاهرة، وهبوط المماليك الذين دعاهم الفرنسيون إلى سرعة الإحلال محلهم وتأمين الحفاظ على النظام فى جميع أقاليم الصعيد التى جلى عنها الجيش الفرنسى^(١٠٦).

وتصبح "قرى الجمهور" - أو بالأحرى - قرى المماليك المصادرة بسائر أقاليم الوجه القبلى - لأول مرة منذ مجئ الاحتلال - تحت سيطرة مراد بك وأتباعه من الأمراء المماليك. غير أن وفاة مراد بك المفاجئة (فى ٢٠ أبريل ١٨٠١) يمرض الطاعون الذى انتشر فى جميع البلاد وخاصة أقاليم الصعيد - تتسبب فى إشاعة الفوضى وانعدام الأمن. والبدو هم أول من ينتهزون هذه الظروف؛ ويقطعون الطرق ويكثفون عمليات السلب والنهب^(١٠٧). ولا تمثل هذه الحوادث سوى بداية لضغوط ثقيلة سوف تتواصل - على مدار الفترة التالية - تعرض أقاليم الوجه القبلى لها^(١٠٨).

وتضحى خزانة مالية الاحتلال عاجزة تماماً عن تلقى أية دخول أو إمدادات غذائية من شتى أقاليم الصعيد فى الوقت الذى انتشر فيه الزحف العثمانى والإنجليزى على أقاليم الدلتا. وعلى ذلك وجد الفرنسيون أنفسهم، فى القاهرة، فى حالة عزلة قبل بدء الحصار الأنجلو - عثمانى.

ومع استمرار تدهور الموقف العسكرى يضطر الجنرال بليار (حاكم القاهرة) إلى الدخول فى مفاوضات على التسليم والانسحاب. وتشير لحظة التوقيع على المعاهدة، فى ٢٧ يونيو ١٨٠١، إلى انقطاع صلة "قرى الجمهور"، بشكل نهائى، بالإدارة المالية

الفرنسية. ويدخل الريف بصفة عامة، والصعيد؛ على نحو أخص، مرحلة صعبة للغاية؛ من جراء انعدام الأمن، وتسلبت العسكر المماليك والعثمانية على الفلاحين ومشايخ القرى، وتضارب التوجهات بين الإبقاء على الالتزامات وبين الشروع في مصادرتها وتعظيم إيرادات الباب العالي؛ بالشكل الذي استثار انتقاد الأهالي بدرجة عميقة، وصلت إلى حد تمنى أكثر الفلاحين "أحكام فرنساوية" (١٠٩) الأمر الذي يعكس إدانة أدبية كاملة من جانب المجتمع لواقع الممارسات التعسفية والابتزازات الشاذة التي ارتبطت بعودة البلاد إلى كنف "الدولة العلية".



يتضح مما سبق أن الفرنسيين، بعد مصادرة "قرى المماليك"، وجدوا أنفسهم في إطار علاقة مباشرة مع أهالي القرى التي أصبحت تعرف في الوثائق المالية بـ "قرى الجمهور". غير أن الفرنسيين لم يكن لديهم تصور ناجز وملائم لإدارة جباية الضرائب من هذه القرى. ومع فشل البحث عن "وسطاء جدد" (ملتزمين أو مستأجرين)؛ حيث كان الأهالي ما يزالون مقتنعين بإمكانية عودة المماليك للسلطة - اضطر الفرنسيون إلى الاعتماد على مشايخ القرى وإرغامهم على تحمل مسئولية الجباية، بشكل كامل، في فترة عصيبة، اضطرب خلالها الريف في معظم أقاليم الصعيد.

على أن تجربة الاحتلال، بالرغم من ذلك، ظلت تمثل مرحلة مهمة في بروز دور مشايخ القرى كأهم طبقة يمكن الارتكان إليها في حفظ الأمن وجباية الضرائب. وإذا كان ذلك يمثل امتداداً لدورهم التقليدي السابق، إلا أن التغير الحقيقي ظل متمثلاً في أنهم أصبحوا، من الآن فصاعداً، على اتصال مباشر بالإدارة المركزية؛ فقد عملوا كموظفين رسميين أو مندوبين عن حكومة الاحتلال الفرنسي، وبالكيفية نفسها لجأ إليهم محمد علي، ومن ثم تعززت وضعيتهم في القرن التاسع عشر كأهم طبقة في المجتمع الريفي، تتمتع - بعد تفويض نفوذ الملتزمين - بالشراء الواسع والسلطة معاً.

وفي مقابل ذلك انزوى كبار الملتزمين من الأمراء المماليك، ولم يعد ممكناً تصور استردادهم لمكانتهم ولقراهم مرة أخرى؛ فالدولة العلية سوف تبذل قصارى جهدها في تفويض نفوذهم، وحرمانهم من مواردهم المالية؛ وينجز محمد علي المهمة - فيما بعد -

على نحو أكثر حسماً، ومن ثم فإن اللحظة التي أُعلن فيها عن ضم " قرى الممالك " لأملاك " الجمهور الفرنسي " كانت بالفعل لحظة فارقة؛ إذ بعدها تلاشت للأبد صورة سادة الأمس في عيون فلاحهم الذين ارتبطت قراهم بالدولة المركزية.

وكان من نتائج هذا التناول أن الأمن أو الاستقرار السياسى كان شرطاً أساسياً لاستقرار عملية السيطرة على الموارد الضريبية اللازمة لكل سلطة؛ ولذلك فإن " حرب العصابات " التي جرت حوادثها وسط حقول الفلاحين، بطول أقاليم الصعيد، دون نتيجة حاسمة - كانت سبباً رئيساً فى تعطل الجباية، وتراكم متأخرات الضرائب، ومن ثم حرمان الخزانة من الإيرادات التي كان الجيش فى ميسس الحاجة إليها. وشكل هذا الخلفية الأساسية التي أملت، خلافاً لأسباب أخرى، على القيادة العامة حتمية عقد السلام مع الممالك غير أن ثمن هذا السلام، من ناحية أخرى، كان فادحاً ومؤثراً للغاية على مالية الاحتلال؛ إذ فقدت الخزانة ٤ / ٥ ما كان يغله الصعيد من مختلف الموارد الضريبية. وكان لذلك مردوده على مالية الجيش؛ إذ لم تعد الإيرادات المحصلة بكافية؛ لتغطية النفقات الضرورية، وكان تزايد وطأتها يحتم، بشكل متكرر، اللجوء إلى فرض الضرائب الاستثنائية، واستحداث ضرائب أخرى غير عادية، الأمر الذي جعل الفرنسيين لا يستفيدون كثيراً من حالة الاستقرار التي عمت أقاليم الصعيد بعد السلام مع الممالك. ومن ثم ظلت العلاقة بين " قرى الجمهور " والإدارة المالية، طيلة فترة الاحتلال، بعيدة عن أن تتسم بطابع المرونة أو التجاوب الحقيقى المتواصل.

هوامش الفصل الثاني

(1) Peyrusse, A: op. cit., p. 476, 477.

(٢) انظر الفصل الثالث.

(3) Bonaparte à Rampon, à Atfyeh, (24 août 1798), corres., T. 4, N^o 3104, p. 396.

(4) Bonaparte à Rampon, (20 sept. 1798), Ibid, t. 4, N^o 3352, p. 528; Dugua à Bonaparte, (20 Av. 1799), La Jonquière, t. 5, pp. 57-8.

(٥) يمكن الرجوع للتقرير الشامل الذي حرره الجنرال ديزيه عن مجمل العمليات العسكرية للغزو الفرنسي للصعيد:

Desaix à Bonaparte: "Rapport sur la campagne de La Haute - Égypte". (8 août 1799), Dans: Pièces diverses relatives aux opérations militaires et politiques du général Bonaparte, Paris an 8 (1799-1800), pp. 190-232.

(6) Belliard à Desaix, (5 déc. 1798), à Beni-souef, La Jonquière, t. 3, p. 361.

(7) Zayonchek à Dugua, (21 Mai 1799), Polonais., pp. 249-250.

(8) Zayonchek à Desaix, (12 Mai 1799), Ibid, p. 246; Denon, v. : op. cit., p.82;

كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص ص ٢٤٧، ٢٥٦، ٣١٨-٣١٨.

(9) Belliard à Desaix, à Beni-Souef, (4 déc. 1798) La Jonquière, t. 3, p. 360,

Note (1); Homsy, G: La Général jacob et l'expédition de Bonaparte en Égypte, (1798-1801), Marseille 1921, p. 54.

(١٠) الجبرتي: مدة الفرنسيين، ص ٣٨. ويلاحظ أن الجبرتي في مؤلفه "عجائب الآثار" سوف

يخفف من حدة نقده لمسلك المعلم يعقوب، ويختزل هذه الرواية في جملة قصيرة:

"وصحبتهم يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبات". انظر:

الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٥.

(١١) أشار كل من "شوفاليه" و "شو" إلى هذا المنشور؛ اعتماداً على "مجموعة وثائق مارسيل"

Fonds de Marcel : انظر :

Chevalier: "La politique financière de L'expédition d'Égypte", Cahiers d'histoire égyptienne, t.VIII, (1956), (pp. 47-68), p. 51; Shaw, S-J: Ottoman Egypt in the age of the french Revolution, Harvard 1964, p. 142.

(12) Chevalier, M : op. cit., pp. 51-52.

(13) Ibid, p. 52; Shaw: Ottoman Egypt, p. 142.

(١٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص ٢٢٩. وإن كان الجبرتي قد أشار إلى ذلك على وجه العموم بالنسبة لكل من تراجع عن شراء حصة من الالتزام خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

(١٥) هناك العديد من القرى التي أحرقت تماماً وأصبحت أطلالاً ورماداً، ومن ذلك - على سبيل المثال: قرية سرسنا بالفيوم، وقرية أبو جرج بسوهاج، وقرية بنى عدى ببجرجا.

انظر: عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨، ص ص ٤٠٤-٤٠٥، ٤٠٧-٤٠٨، نبيل الطوخي: المرجع السابق، ص ص ١٤١، ١٥١، ١٧٥.

(16)Desaix à Bonaparte, De Kous, (21 fev. 1799), La Jonquière, t. 3, pp. 577 - 578.

(١٧) اضطر بونايرت إلى إلزام مدير المالية بوسيلج بأن يسارع قدر استطاعته بإمداده بالأموال: "فأنت تعرف كم هي ضرورية وخاصة في هذا التوقيت الذي تشتد حاجتنا فيه إلى الأموال التي تؤمن المتطلبات غير العادية لحملة سوريا": انظر.

Bonaparte à Poussielgue, (8 Fév. 1799), Corres., t. 5, N^o 3917, pp. 303-304.

(١٨) نشر الصاوي نص هذا الأمر اليومي (الصادر باللغة العربية) بين ملاحق دراسته. انظر:

الصاوي: المرجع السابق، ملحق رقم (٤٣): Chevalier, M : op. cit, p. 52-53.

(١٩) كان هنري لورنس هو من فسر الأمر اليومي "على هذا النحو راجع:

هنري لورنس: المرجع السابق، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢٠) حسين أفندي: المصدر السابق، ص ٤١؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ص

٥٠-٥١.

(٢١) هنرى لورنس: المرجع السابق، ص ٣٢٢، هامش رقم (١٢٦) حيث نجده يشير في هذا الهامش إلى أن الأمر اليومى كان بداية تحديث أخذ يستمر بشكل تدريجى طيلة السنوات الثلاث للاحتلال!

(22) Denon, v: op, cit., pp. 252-253.

(23) Zayonchek à Bonaparte, (7 Juillet 1799), Polonais..., p. 285; Desaix à Bonaparte, (Campagne de la Haute- Égypte), Pièces diverses..., an VIII, p. 227.

(24) Poussielgue au Directoire exécutif, (9oct. 1799), klé..., t. 3, p.145; Copies of original letters from the french Army in Egypt, Londres, 1800, v. 3, p. 106.

(25) Zayonchek à Berthier, (23 Juin 1799), Polonais..., p. 270.

(26) Zayonchek à Dugua, (20 AV. 1799), Ibid, p. 215.

(27) Situation de l'Égypte pendant L'Expédition de Syrie par Dugua à Damas, (5 Mai 1799), Dans: Guitry (Commandant) : L'Armée de Bonaparte en Égypte, (1798-1799), Paris 1897, p. 316.

(28) Dugua à Bonaparte, (20 AV. 1799), La Jonquière, t. 5, pp. 57-8;

الرافعى: المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٦.

(29) Bonaparte à Dugua, (12 août 1799), Ibid, t. 5, p. 547.

(30) Ordre du Jour de Bonaparte, (18 août 1799), Corres., t. 5, N^o 4368, p.568.

(31) Vincennes, B⁶ 28: poussielgue à Bonaparte, (6 août 1799).

وهو يُنبه بونايرت إلى ضرورة وضع حد لتدخل الديوان وتحديد صلاحياته.

(32) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé, t. 3, p. 145.

(*) السول Le Sol: هو أصغر وحدة نقدية فى النقد الفرنسى، وكان كل ٢٠ سول يعادلون فرنك

واحداً، وكل سول واحد يعادل ١, ٤ بارة مصرية. انظر:

Chevalier, M: op, cit, p. 62, Note (50).

(33) Kléber au Directoire exécutif, (26 Sept. 1799), Klé..., t. 2, p. 520.

- (34) Aperçu des Sommes dûes, époque à Laquelle le Général Kléber a pris le Commandement de l'armée, (7 Oct.1799), Dans: Copies of Original letters..., t.3, pp. 57-59.
- (35) Vincennes, B⁶ 81: Le Divan du Caire à Kléber, (5 Oct. 1799).
(صادرة باللغتين العربية والفرنسية).
- (36) Vincennes, B⁶ 81:
"إعلام لكامل مشايخ وفلاحين ناحية أبو جرج".
- (37) Kléber au Directoire, Le Caire, (26 Sept. 1799) Klé..., t. 2, p. 520.
- (38) Kléber à Poussielgue, (2 Sept. 1799); (3 Oct. 1799); (7 Déc. 1799). Klé..., t. 3, pp. 12, 121-122, 288.
- (39) Ordre du Jour, (18 Sept.1799), Ibid, t. 3, pp. 78-79.
- (٤٠) أشار بيروس إلى أنها شملت "المبرى والفايظ والكشوفية"، وإن كنا نلاحظ بوضوح تحصيل الفرنسيين "للبراني" كذلك وفقاً لما جاء بدفاتر الترايع. انظر: Peyrusse, A: op, cit, p. 466.
- (٤١) يشير بوسيلج في تقريره المالى عن العام الأول إلى أن أقاليم الصعيد تدر من ضريبتى "الفايظ والبراني" عيناً ما قدره "٨٠٠٠٠ ر ١ إردب" من كل أنواع الحبوب! راجع: Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé..., t. 3, p. 143.
- (42) Kléber à Poussielgue, (3 Oct. 1799), Ibid, t. 3, pp. 121-122.
- ويمكن الرجوع لنموذجين نشرهما عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى ملاحق دراسته: المرجع السابق، ملحق رقم ١٥، رقم ١٦، ص ص ٢٩٥-٣٠١.
- (43) Reynier à Dugua, Benisouef, (1 Fév. 1800).
- دار الوثائق: محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ٦، ملف ١٧، ورقة ٢٩.
- (٤٤) الجبرتنى: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٩؛ مظهر التقديس، ص ٢١٢.
- (٤٥) انظر الفصل الثالث.
- (46) Vincennes, B⁶ 183: Poussielgue à Zayonchek, (5 Sept. 1799).

(47) Kléber à Poussielgue, (3 Oct. 1799), Klé..., t. 3, pp. 121-122.

(48) Traité avec Mourad Bey, (5 Avril 1800), Ibid, t. 4, pp. 803-804; Peyrusse,

A: op, cit, p. 471.

(٤٩) حسين أفندي: المصدر السابق، ص ٤٨. ويلاحظ أن استيف في سؤاله يُنبئ عن عدم معرفته
بمسار الجهة التي آلت إليها حصيلة الأطنان المستأجرة، برغم أنه كان على رأس هيراركية
الصرافين الفرنسيين !! مما يوحي بقلة مردود حصيلة الإيجارات بصفة عامة.

(50) Peyrusse, A: op, cit., p. 451;

الصاوي: المرجع السابق، ص ٢٢٣، هامش (٤).

(51) Ibid; pp. 466-467.

(٥٢) أنظر الفصل الثالث.

(53) Peyrusse, A: op, cit., p. 451.

(54) Histoire Scientifique, t. 3, p. 406.

(55) Zayonchek à Dugua, Polonais..., pp. 316-17.

(56) D'aure à Hussien, Chef ambassadeur de Mourad Bey, (15 Av. 1800).

دار الوثائق: محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ٥٠، ظرف ٧، ورقة ٧٩.

(57) Note officielle de la part du général en Chef Kléber, concernant la conduite
à tenir par Le très Illustre et honoré Mourad Bey, Klé..., t. 4, pp. 806-7.

(58) Pièces diverses..., pp. 301-2.

(٥٩) المكتبة المركزية - جامعة القاهرة، محافظ الحملة الفرنسية: محفظة بدون رقم "رسالة مراد

بك إلى الجنرال دونزلو"، رقم (٥٤) بتاريخ ١٤ محرم ١٢١٥ (٧ يونيو ١٨٠٠).

(٦٠) الأرشيف نفسه: مراسلات الأمير مراد بك إلى الجنرال دونزلو، رقم (٥٢) بتاريخ ١١ محرم

١٢١٥ (٥ يونيو ١٨٠٠)، رقم (٥٤) بتاريخ ١٤ محرم ١٢١٥ (٧ يونيو ١٨٠٠)، رقم (٧٦)

بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢١٥ (٦ يوليو ١٨٠٠).

(61) D'aure au prince de la Haute- Égypte Mourad Bey, (7 Fru. An VIII);

D'aure à Ibrahim Kiaya de Mourad Bey, (Même date).

دار الوثائق: محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ٥٠، ظرف ٥، ورقة ٢، ورقة ٣.

(62) Vincennes, B⁶ 51: Friant à Menou, au Caire, (23 août 1800); Zayonchek à Kléber, Beni-Souef, (22 Mai 1800), polonais., p. 407.

(63) Zayonchek à Kléber, Beni-Souef, (15 et 22 Mai 1800), Polonais..., pp. 405-406.

(64) Vincennes, B⁶ 81.

توجد إقرارات المشايخ والفلاحين في هذه المحفظة، وقد صُنفت تحت مسمى quittances
أى إيصالات أو براءات ذمة.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة يمكن الرجوع لتقرير سكرتير المالية "بيروس" الذى قدم
تحليلاً دقيقاً للضرائب الاستثنائية والقروض الإجبارية. انظر:

Peyrusse, A: op, cit., pp. 456-463.

(66) Ibid; p. 468.

(67) Traité avec Mourad Bey; (5 Av. 1800), Klé..., t. 4, pp. 803-804, Art. (1 et
2).

(68) Ibid; Art. (5).

(69) Napoléon Bonaparte: op, cit., p. 310.

(٧٠) حُدِّد الخراج العيني بـ ٣٥ ألف أردب، وبحسب السعر الرسمى فى قوائم حسابات عام
١٢١٤ كان الإردب بـ ١٥٠ بارة، ومن ثم فإن الخراج العيني عند تحويله إلى ما يعادله نقداً
يتتج ٢٥٠٠٠ رة بارة، على حين كان الخراج النقدي محلياً بـ ٢٥٠ كيساً؛ أى ما يعادل
٢٥٠٠٠ رة بارة، وبذلك يصل إجمالى الخراج إلى ١٠٢٥٠٠ رة بارة.

(71) Rigault, G: Le Général Abdallah Menou et la dernière phase de
L'expédition d'Égypte (1799 - 1801), paris 1911, pp. 127-128.

(72) Ordre du Jour, (28 Av. 1800), Klé..., t. 4, pp. 850-854, Art. (22).

(73) Peyrusse, A: op. cit., pp. 465, 477.

(74) Traité avec Mourad Bey..., Art. (4).

(75) Ordre de Kléber, (12 Juin 1800), Klé..., t. 4, pp. 966-967.

(٧٦) فاطمة الحمراوى: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٣٦٣ .

(٧٧) صورة جواب من ميرالوا "مراد بك" إلى "عبد الله منو" سارى عسكر، رقم (٦٧) بتاريخ ١٥ من صفر ١٢١٥ / ٨ من يوليو ١٨٠٠).

(78) Menou au Ministre des affaires étrangères, (24 Sept. 1800), Kléber et Menou en Égypte depuis le départ de Bonaparte, Documents publiés pour la société d'Histoire contemporaine, par Rousseau, paris 1900, pp. 357-358.

وحاول منو من خلال هذه الرسالة توضيح موقفه من معاهدة كليبر - مراد ؛ ولذلك جاءت الرسالة كتقرير عما جرى مع الأمير المملوكى.

(79) D'Aure à Donzelot, (14 Juillet 1800).

دار الوثائق: محافظ الحملة الفرنسية، محفظة ٥٠، ظرف ٦، ورقة ٢٤٩.

(80) D'Aure à Menou, (27 Juillet 1800).

الأرشيف نفسه: محفظة ٥٠، ظرف ٥، ورقة ٣٢، ٣٣.

(81) Histoire Scientifique, t. VIII, pp. 74-75.

(82) Rigault: op, cit., pp. 134-135.

وكانت قيمة المبلغ المدخر ٥٠٠٠٠٠ فرنك (يعادل ١٤٠٠٠٠٠٠٠ بارة). ووصف ريجو تصرف منوب "الفعل الطائش" *Mesure imprudente*.

(83) Ibid.

(84) Peyrusse, A: op, cit., pp. 456-463; Histoire Scientifique, t. VIII, pp. 74-75.

(٨٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه الرسوم الجديدة انظر:

Histoire Scientifique, t. VII, pp. 77-88; Rigault, G: op, cit., pp. 130-135.

(٨٦) أمر يومى من حضرة السرى العسكر العام فى ٥ فروكيندور سنة ٨ (٢٣ أغسطس ١٨٠٠)

صادر باللغتين العربية والفرنسية ، ونشر الصاوى جزءاً مهماً منه فى ملاحق دراسته راجع:

الصاوى : المرجع السابق، ملحق رقم (٨٨)، والتعليق ص ص ٢٣٧-٢٣٨.

(87) Peyrusse, A: op, cit., pp. 483-484.

ويلاحظ أن الجبرتي ضاعف الأرقام المقروضة على كل مساحة من الأفلنة، لأنه احتسبها
بجملة ما هو مطلوب تسديده عن العامين السابقين (١٢١٣-١٢١٤). انظر: الجبرتي:
عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٤.

(88) Ibid.

(٨٩) أمر يومى من حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية المحرر فى ٨ نيفوز سنة ٩
(٢٩ ديسمبر ١٨٠٠) منشور فى: الصاوى: المرجع السابق، ملحق رقم (١٠٠) والأمر صادر
باللغتين العربية والفرنسية.

(٩٠) الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٤. (حوادث جمادى الثانية ١٢١٥).

(٩١) نفسه، ج ٤، ص ١٧٤ (فى إطار ترجمته للشيخ سليمان الفيومى الذى كان على رأس هيئة
مفتشى المشايخ فى الأقاليم).

(92) Rigault, G: op, cit., p. 242.

(٩٣) نفسه، ج ٣، ص ص ٢٢٤-٢٢٥. (حوادث جمادى الثانية ١٢١٥).

(94) Menou à Donzelot, (1 Oct. 1800); (22 Nov. 1800).

ويبدو من رسالة منو أن الظاهرة انتشرت فى الصعيد وبصفة خاصة فى إقليم المنيا. دار الوثائق
(قاعة البحث والإطلاع): "أصول وثائق الحملة الفرنسية" محفوظة بدون رقم ، ملف 15 ،
وثيقة 13.

(٩٥) "من عبد الله جاك منو إلى جميع أهالى مصر ودوايرها" _ (٢٨ سبتمبر ١٨٠٠) منشوراً فى:

الصاوى: المرجع السابق، ملحق رقم (٩٨)، (والمنشور صادر باللغتين العربية والفرنسية).

(٩٦) "من عبد الله جاك منو إلى جميع أهالى مصر" (٧ نوفمبر ١٨٠٠) المرجع نفسه، ملحق رقم

(٩٩). (المنشور صادر باللغتين العربية والفرنسية).

(97) Rigault, G: op, cit., p. 242.

(٩٨) "من عبد الله جاك منو إلى أهالى مصر" (٨ ديسمبر ١٨٠٠) المكتبة المركزية _ جامعة القاهرة:

وثائق الحملة الفرنسية، حافظة (211). (المنشور صادر باللغتين العربية والفرنسية).

(٩٩) يلاحظ أن منو ردد التزامه برد الأموال للفلاحين فى مراسلاته مع كبار القادة حكام أقاليم

الصعيد. انظر:

Menou à Donzelot, (2 Nov. 1800).

دار الوثائق (قاعة البحث والإطلاع): "أصول وثائق الحملة الفرنسية" محفوظة بدون رقم ، ملف ١٥ ، وثيقة ١٣.

(100) Peyrusse, A: op, cit., p. 469.

(101) Ibid; pp. 469, 484; Menou à Donzelot (12 Fév. 1801).

دار الوثائق (قاعة البحث والإطلاع) "أصول وثائق الحملة الفرنسية" محفوظة بدون رقم ، ملف ١٥ ، وثيقة ٢٢ ، ونشر الصاوى أمراً يومياً لمنو يُمهل فيه المشايخ لفترة أخرى لاستكمال السداد. انظر: الصاوى : المرجع السابق، ملحق رقم (١٠٠).

(102) Ordre du Jour, (20 Jan. 1801), Kléber et Menou..., pp. 382-393.

(١٠٣) انظر الفصل الرابع.

(104) Peyrusse, A: op, cit., p. 469; Rigault, G: op, cit., p. 243.

وبلغ حجم ما أرسله مراد بك ٨٧ , ٥٠ فرنك عن سائر أقاليم مصر العليا.

(105) Peyrusse, A: op, cit, p. 469.

يلاحظ أن حصيلة "الجباية المؤقتة" - وفقاً لبيانات بيروس - لم تنجز كاملة، فما تم جبايته بالفعل لا يكاد يصل إلى — المبلغ المحدد !

(106) Vincennes, B⁶ 133: Belliard à Mourad Bey, (15 Mars 1801); Belliard à Donzelot, (19 et 26 Mars 1801).

(107) Vincennes, B⁶ 133: Belliard à Osman Bey Tombourgi, (1 Mai 1801); Histoire Scientifique..., t. VIII, p. 255.

(١٠٨) الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣١٧.

(١٠٩) يرصد الجبرتي بين يومياته العديد من الملاحظات والتفاصيل الدقيقة للوطاة التي عانى منها الريف أثناء جلاء الفرنسيين وما بعد رحيلهم. انظر :

الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ص ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٧-٣١٨، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٧-٣٣٩، ٣٧٥-٣٧٦.

الفصل الثالث إدارة الجباية بقرى الرعايا

كانت المخاوف تختلج في صدور الملتزمين، من جرّاء تمنّع الفرنسيين عن الإفراج عن حصص الالتزام، في الوقت الذي عُميت فيه مصادرتهم لكل "قرى الممالك". وبعد إفصاح بونايرت عن مقاصده، في جلسة الديوان العمومي، في الإبقاء على النظام المالي، وتمكين أرباب الالتزام، من غير الممالك، من حصصهم، هدأت - إلى حد ما - سريرة هؤلاء الملتزمين.

ومع ذلك كان جل الملتزمين في حيرة شديدة بين الحفاظ على حصص التزامهم، وبين الخوف من المغامرة بالتعاقد مع السلطة الجديدة التي اشترطت على المتقدم دفع رسم التسجيل والذي حُدّد بـ ٢٪ من قيمة حصة الالتزام، وكان هذا الرسم - فيما يبدو - ثقيلاً نسبياً؛ فالجبرتي يوضح أن ثمة ملتزمين عجزوا عن استرداد حصصهم "لقصّر أيديهم عن [دفع] الحلوان"^(١) وخلافاً لذلك، كانت تطورات الأحداث، من فترة إلى أخرى، لا تشير ألبتة إلى تحقق استقرار الأمور، بشكل قطعي ودائم للفرنسيين؛ الأمر الذي جعل بعض الملتزمين على قناعة تامة بأن الاحتلال الفرنسي ظرف مؤقت، سرعان ما يتلاشى مع وصول الجيش العثماني، فأثروا الانتظار؛ لئلا "يتكرر عليهم الحلوان والمغارم" غير أن قنوط الملتزمين من طول الانتظار، دون نتيجة حاسمة، وهم الذين ليس لهم دخول أخرى لمعاشهم، دفعهم دفعاً إلى مطالبة الإدارة الفرنسية بحصصهم، يقول الجبرتي: "فلما طال المطال وضاق حال الناس عرضوا أمرهم وطلبوا من مراحم فرنسا الإفراج عن بعض ما كان بأيديهم ليتعيشوا به..." غير أن مرامي الفرنسيين كانت متجهة إلى تقويض مجمل ما تبقى من الالتزامات، فيما سماه الجبرتي بـ "نزاع المفروج عنه"^(٢).

ويدرس هذا الفصل، على نحو محدد، مضمون هذه العلاقة التي ربطت الملتزمين بالإدارة المالية، بقصد فهم طبيعة المشكلات التي برزت بين الجانبين، في ظل ظروف غير مستقرة تماماً، وهو ما يساعدنا على تحليل الأسباب التي أقضت - في نهاية المطاف - بالفرنسيين إلى إعادة طرح مسألة "الالتزام" من جديد، ومناقشة الكيفية التي يتم بها جدياً تقويض هذا النظام برمته.

الملتزمون وإدارة التسجيل والأمالك

كان بونابرت قد أسند إلى " إدارة التسجيل والأمالك L'administration de l'enregistrement des domaines بعد إبطال العمل بديوان الروزنامة - مهمة الإشراف على جباية الضرائب من قرى الالتزام . وبات على كل الملتزمين أن يتعاملوا مع هذه الإدارة الجديدة التى شغلت مهام قلم "أفندى الغلال"، وقلم "أفندى الشهر" اللذين كانا مسئولين عن تحصيل الميرى من سائر أقاليم الصعيد قبل عام ١٧٩٨^(٣). وأصبحت " إدارة التسجيل والأمالك " الجهة الرسمية لتوثيق " تقاسيط الالتزام " وتقديم "الإفراج الديوانى " أو ما كان يعرف بـ " فرمان تمكين الالتزام "^(٤). وكان الملتزم، لحظة دفعه لرسم التسجيل (٢٪) يحصل على "عقد الالتزام " "Le contrat d'affermage" والذي حددَ لمدة سنة مالية واحدة، تبدأ من الأول من فائد يميز سنة ٧ (٢٢ سبتمبر ١٧٩٨)، ومن ثم يصبح لزاما على كل ملتزم، مع كل عام يمضى، أن يجدد تسجيله لعقد الالتزام^(٥).

ولما كان الصعيد يتفرد - بخصوصية واضحة - فى نوعية أراضيه ، وموارده الضريبية ، ومواسم حصاها، فقد كان لابد من مراعاة ذلك فى عقود الإيجار : فالفلاحون فى الصعيد يدفعون ضرائب النبارى والبعلى والعقر والشتوى نقداً، غير أن هذه الأنواع لا تشكل سوى ١ / ٥ حصيلة الضرائب؛ إذ كانت ٤ / ٥ إيرادات الصعيد تسدد، بصفة أساسية، من الحبوب، ويطلق عليها "ضريبة البياضى"^(٦) والتى كانت تحصل بين مارس ومايو . وبينما كانت "ضريبة البعلى" تدفع محصولها بين يوليو وأغسطس، كانت "أراضى النبارى" تسدد ضرائبها بين نوفمبر ويناير^(٧). وحيث كانت نوعية المحاصيل ، ومقدار إنتاجها ، ومعدل المصاريف اللازمة لها تتوقف على : نوعية الأراضى ، ودرجة خصوبتها، وقربها أو بعدها من ساحل النيل - فقد كان لابد أن تتباين معدلات الضرائب على وحدة الفدان من إقليم إلى آخر^(٨) ، وإذا كان الملتزمون مضطرين لنقل الحبوب من قراهم، مهما كانت بعيدة إلى مراكز الشئون الرئيسة على شاطئ النيل، فقد كانت الإدارة ملزمة بتخفيض الميرى بقدر التعويضات المحددة التى تمنحها للملتزمين فى مقابل ذلك^(٩).

وقضلاً عن ذلك كانت أراضي الصعيد دوماً في حاجة إلى المسح السنوي، ولذلك عُرِفَتْ بـ "أراضي المساحة". وكان جزءاً من الأرض يعرف "بالكلالة" الذي لا يخضع للمقارنة، على نحو ما كان سائداً في معظم ولاية الفيوم، أو في الأراضي التي عرفت بأراضي "طرح النيل" (١٠).

وعلى النقيض من ذلك كان الفلاحون في أقاليم الدلتا وفي جزء من شمال الصعيد (٢/٣ بنى سويف و ٣/٤ أطفيج) يدفعون الضرائب نقداً؛ ولأن الأراضي هناك "أثرية" (أي لا تخضع للقياس السنوي) فقد كان من السهولة بمكان تحديد معدل ما يفرض على حصص الملتزمين بشكل ثابت. وإذا كان لابد أن تراعى إدارة التسجيل عند تحريرها لعقود الالتزام هذا التباين الشديد؛ ولذلك أعدت نموذجين للعقود deux Contrats- types ورُوعِيَ في العقد الذي خصَّ أقاليم الوجه القبلي، ذلك الاختلاف في نوعية الأراضي ودرجة جودتها، وخصوصية الدورة الزراعية، ومن ثم مواقيت جباية الضرائب، بالإضافة إلى التعويضات الممنوحة للملتزمين؛ لقاء نقل الحبوب من قراهم وشحنها على مراكب النيل (١١).

وكانت إدارة التسجيل والأملاك تعتمد، بشكل أساسي، على "خازندارية الجمهور" (الصرافين الفرنسيين) بالأقاليم، بالإضافة إلى حصيلة إيرادات الضرائب من الملتزمين. وكان الخازندار الفرنسي يتلقى من «قضاة الجمهور» (مديرى التسجيل بالقاهرة) ما يُعرف بـ «التمسكات» الخاصة بكل ملتزم في الولاية، التي يسجل بها اسم الملتزم وقريته، ومساحة حصته، وتسديده لرسم التسجيل، والمبالغ التي لا تزال مستحقة عليه؛ حيث لم يكن للخازندار أن يتحصل أية رسوم دون مراجعتها على هذه «التمسكات» (١٢).

ومثلما كانت إدارة التسجيل تعتمد "تقسيط الالتزام"، والذي بموجبه تمنح "أوراق الإفراج" Le titre de garantie de propriété (١٣)، فإنها كانت ملزمة بإرسال "تذاكر التصرف" المحررة باللغة العربية Des billets en arabe إلى مشايخ القرى والفلاحين؛ والتي يوقعها اثنان من مديرى إدارة التسجيل (١٤)؛ لما لذلك من

أهمية في التأكيد على اعتراف السلطة الجديدة بإقرار الملتزم على حيازته؛ كما يتوافر للأخير المصدقية الكافية التي تجعل الممولين للضرائب بقريته لا يترددون في دفع الضرائب له . وربما تعزيزاً لذلك كان مديرو التسجيل يحرصون على جعل "مصطفى أفندي" (وكان هو ونسيم ملطى عضوين مصريين من بين أعضاء خمسة مشكلين لإدارة التسجيل) الطرف الدائم في التوقيع على "تذاكر التصرف"؛ نظراً لما هو معروف للجميع عن تخصص "أفندية الروزنامة" في توثيق وتسجيل "تقاسيط الالتزام"، أو أى تغير يطرأ على مسار توريث أو نقل الحيازة بصفة عامة (١٥).

وثمة نموذج نادر لهذه "التذكرة" نشره "المويلحى"، ومنه يتضح أن "التذكرة" كانت تخرج في صورة أمر موجه للمشايخ والفلاحين: "أنكم صرتوا في التزام (فلان) وإنه بموجب التقسيط الذى بيده [والذى] عليه علامات قضاة الجمهور الفرنساوى فإنكم تكونوا تحت الطاعة وتغلقوا المال المطلوب منكم لأجل دفع المال الميرى تعلموا ذلك" (١٦).

ولم تكن "التذكرة" تهم الملتزمين وحدهم؛ فقد وجد بالأرشفيف الفرنسى نموذج آخر يخص "رزقة" بإقليم البهنسا، يؤكد حرص القائمين عليها أو المستفيدين من ريعها، على إعلام أهالى الناحية باستقرار التصرف فى إدارة أراضى الرزقة بين أيديهم (١٧).

ولا يبدو - كما يمكن للظاهر أن يوحي - أن مثل هذه الوثائق تمكنا من تعميم فهمنا لمدى استجابة الملتزمين ونظار الأوقاف والرزق لمسألة التسجيل والحصول على "تذكرة التصرف"؛ فالشكوى التى رفعها الملتزمون لبونايرت فى أواخر يناير ١٧٩٩، والتى أبدى الأخير اهتمامه بالرد عليها، كانت تتعلق بحصص الالتزام التى تعرضت لجبايات قسرية، لكل مصادر الضرائب، بما فى ذلك الرسوم المعروفة للملتزمين (الفايظ والبرانى)؛ حيث لم يستجب هؤلاء الملتزمون لتسجيل قراهم، وكان هذا سبباً أساسياً فى جر الجباية العشوائية إلى حصصهم لصالح الجمهور .

وخلافاً لما تحمله هذه الوثيقة من دلالة على اكتراث القائد العام بتهدة الملتزمين واحتواء الموقف، من خلال تأكيده على خصم ما تم جبايته من "الفايظ والبرانى" من جملة الأقساط المستحقة عليهم، فإنها تظل تدلل على أن حركة الإقبال أو الاستجابة

للتسجيل كانت بعيدة عن أن تأخذ إيقاعاً سريعاً^(١٨) كما أن "الأمر اليومي" الصادر فى ١٦ يونيو ١٧٩٩ (أى مع اقتراب السنة المالية الأولى من نهايتها) بعمل غرامة كبيرة قدرها ١٠٪ على كل من لم يدفع "كامل الميرى"^(١٩) تقطع بأن ثمة عدداً من الملتزمين لم يتجاوب، على الإطلاق، مع الشرط الذى أعلنه بونايرت، غير مرة، بأن كل ملتزم لم يسجل التزامه ويرغب فى الاحتفاظ بحصصه من الأراضى يشترط عليه دفع ٣/١ حصيلة الأقساط^(٢٠).

على أن التعليق الذى سجله سكرتير المالية بيروس بشأن موقف المصريين من إجراء التسجيل، يمكن ان نعتبره قرينة أكثر دلالة؛ إذ يشير إلى أن "المصريين لا يرون فى ملكيتهم أى شئ يدعوهم لدفع رسوم على ثرواتهم وإيجار أراضيهم وبيوتهم .. فالعادة لديهم أنهم يرتبطون فيما بينهم، فى مجرى شئونهم الخاصة، بالكلمة أو بالتعهد الشفاهى Par des engagements Verbaux ؛ نافرين من الإجراءات الروتينية (الشكلية) التى كنا نريد ترويضهم عليها .." ولهذا ظلت بعض الالتزامات غير مسجلة حتى الشهور الأولى من عام ١٨٠٠^(٢١).

وارتبط بهذه المسألة وجود قرى عديدة، تم حجبها عن الفرنسيين، ولن تتمكن إدارة التسجيل من رصدتها، وإنما بفعل المراقبة الدءوب والناشطة لبعض الوكلاء الماليين سوف يتم - بالتدريج - التعرف على بعضها. الأمر الذى يجعلنا نفترض وجود عدد من الملتزمين ظلوا مجهولين للإدارة المالية لفترة طويلة من عمر الاحتلال .

اضطراب الجباية وتراكم متأخرات الميرى

الواقع أن إدارة التسجيل باشرت جباية الميرى من "قرى الرعايا" استناداً إلى القوائم التى قدمها المعلم "جرجس الجوهري" (كبير المباشرين الأقباط)، وهى قوائم تتسم بالعمومية؛ إذ حررت بأسماء الأقاليم وبجملة ما على كل منها من أموال الميرى، وحتى حينما كان الفرنسيون يطالبونه بالتفاصيل، كان يتجه إلى تسجيلها بأسماء النواحي الرئيسية لكل إقليم، متجنباً تحديد عدد القرى التى تنصوى تحت كل ناحية(*) كما لم يسجل أسماء الملتزمين ومساحة حصصهم وقيمة "الميرى والكشوفية" المربوطة على حصة كل منهم^(٢٢).

وكان قد ترتبت على ذلك نتيجتان؛ الأولى : صعوبة إحاطة الجانب الفرنسى بكل ما تشتمل عليه الأقاليم من قرى ونواح . والثانية وهى الأصعب من حيث تداعى الآثار السلبية - تتمثل فى : فقدان الملتزمين وأهالى القرى الثقة فى المسئولين الفرنسيين القائمين على إدارة الجباية ؛ إذ بدون قوائم محددة كان الجميع يمتنع عن الدفع . ولطالما عبر الوكلاء الفرنسيون عن مخاوفهم من الاصطدام بالملتزمين والفلاحين؛ من جراء عدم توافر القوائم التفصيلية الدقيقة^(٢٣).

وتزايدت خطورة هذه المسألة فى ظل القلق والاضطرابات الشديدة التى نجمت عن امتداد المواجهات العسكرية، بين المماليك والفرنسيين، إلى حقول الفلاحين نفسها، والتى دائماً ما كانت تخلف وراءها تدميراً، واسع النطاق، للمزروعات ، ولشبكة الري، خلافاً لأعداد متفاوتة من فلاحى تلك القرى البائسة^(٢٤)، وهو ما لا بد قد ترك أثراً سلبية على قوة العمل وحجم الإنتاج . ويزداد الأمر صعوبة؛ من جراء عدم التنازل من الجانبين عن المطالبة بحصيلة مستحقات الميرى ؛ إذ أنهم فى حالات متكررة، أُجبروا على الدفع مرتين . وتضطر قرى عديدة إلى "التسحب الجماعى" ، وهى الظاهرة التى برزت بوضوح فى قوائم تحصيل الضرائب، للعام المالى الأول (١٢١٣هـ / ٩٨-١٧٩٩)، وعلى نحو ملحوظ، فى إقليمى إسنا وقنا ؛ حيث كان يشار إلى مثل هذه القرى بأنها : " Villages in hobites en ec moment " ؛ أى "قرى خاوية من السكان فى هذه الآونة"^(٢٥) . ولم تُجدِ محاولات الفرنسيين فى ردِّ هؤلاء الفلاحين إلى قراهم^(٢٦).

وسرعان ما انعكس هذا المناخ بالغ التوتر على مصالح الملتزمين أنفسهم؛ فالإشارات التى ترد متناثرة، توضح وجود صعوبات غير عادية فى تحصيل الضرائب . وربما كان لفشل بونابرت فى احتلال سوريا أثره الكبير فى ذلك؛ فالمجتمع الريفى لم يكن متابعاً لمعارك المماليك والفرنسيين المحلية فحسب، وإنما كان ثمة وسائل متاحة جعلته على دراية بما جرى بسوريا^(٢٧). هذا بالإضافة إلى سوء الطالع الذى بشر به ذلك الفيضان المنخفض (صيف ١٢١٤/١٧٩٩)؛ ومن ثم فالريف قلق بما فيه الكفاية لتأجيل دفع الضرائب. و"فيفان دينون" قدم شهادته كمراقب على ما كان يحدث فى الصعيد فى تلك الآونة :

"الفلاحون لا يرفضون الدفع فحسب ، ولكنهم ما من حيلة بارعة إلا ولجأوا إليها ؛ ليؤجلوا تسديد الضرائب ولو ساعات قليلة..." سواء أكان هذا فى الأقسام التابعة لقراريط الجمهور أو قراريط الرعايا^(٢٨). والجنرال زاينوشيك (حاكم الفيوم وبنى سويف والمنيا) يؤكد بأن "فلاحى إقليم البهنسا" (خلال عام ١٢١٣ / ١٧٩٩) كانوا شديدي المراس والعناد فى دفع الضرائب^(٢٩). وتضطر إحدى الملتزمات فى ناحية "تومبادى" بولاية الأشمونين لرفع عريضة شكوى لإدارة التسجيل والأموال؛ تطالب بتدخلهم؛ لحث فلاحى حصتها على دفع مستحققاتها من الضرائب^(٣٠). وثمة حالة مماثلة للشيخ السرسى - أحد أعضاء ديوان القاهرة- الذى طالب الإدارة الفرنسية، من خلال الديوان، بالتدخل للضغط على فلاحى قريته، الممتنعين عن دفع ضرائبه، رغم نفوذه الواسع ومكانته المعروفة لدى الفرنسيين^(٣١). ولم تكن هذه الشواهد مجرد حالات استثنائية؛ فقد أُعدت، فى منتصف أغسطس ١٧٩٩، قائمة طويلة بالتأخرات التى تراكت على الملتزمين^(٣٢).

ولعل الملتزمين أنفسهم كانوا غير مكترئين بالوفاء بتسديد "أقساط الميرى"، وإن تعنت القرى ربما قدم لهم المبرر الذى يستندون إليه فى تأجيل الدفع الى أقصى مدى ممكن؛ حتى إذا ما انقلب الحظ على الفرنسيين، يتجنبون الانزلاق أو التورط فى دفع الضرائب مرة أخرى للباب العالى.

إجراءات صارمة واستجابة سلبية

وتحت وطأة الحاجة الماسة للأموال سوف يغض الفرنسيون الطرف عما يعم الريف من توترات، ويحملون الملتزمين المسئولية كاملة. ويصبح لزاماً على هؤلاء الملتزمين الإسراع بتسوية حساباتهم الضريبية أمام إدارة التسجيل.

وبعد فشل تجربة احتلال بلاد الشام، وتوقع مواجهة عسكرية وشيكة الحدوث ضد جيش التحالف الأنجلو-عثمانى ، فإن بقاء الخزانة خاوية من الأموال، إنما يعرض الجيش لخطر محقق ؛ ولهذا كانت أولى الشواغل الأساسية للقائد العام عقب عودته من سوريا، التصدى لمشكلة تعثر الجبايات وتراكم متأخرات أقساط الميرى على الملتزمين : فقد

أصدر أمراً يومياً (فى ١٦ يونيو ١٧٩٩) ينذر فيه بأن من لم يواف الخزانة بمستحقات القسطين الأول والثانى (٣ / ٢ القيمة الإيجارية) خلال الأسبوعين التاليين (أى حتى ٣٠ يونيو ١٧٩٩) فإنه يتعرض لغرامة نسبتها ٥٪ من إجمالى المستحقات، وتتضاعف النسبة إلى ١٠٪ لكل من لم يدفع كامل الميرى، ويتجاوز المهلة تتوالى الغرامة التراكمية بواقع ١٪ عن كل يوم يمضى دون دفع كامل للأقساط، وأخيراً إذا لم توف الحصيلة حتى ٢٠ يوليو ١٧٩٩ ويثبت أن فلاحى القرى سددوا الأموال والغلال، فإن الملتزمين يجرى حبسهم، ومصادرة كل تعلقاتهم التى تضم لـ "ديوان الجمهور" وأن إدارة التسجيل سوف تحيط وكلاءها بالولايات بأسماء هؤلاء الملتزمين الذين تتحول حصصهم - عندئذ - للأملاك الفرنسية^(٣٣)؛ لتدار بطريقة مباشرة من خلال مشايخ القرى .

وفى المجريات الواقعية، وبالرغم من القوة الفعلية للتهديد بتعميم المصادرة والحبس - فإن الملتزمين، فى معظمهم، لا يبدوون أية استجابة . وقلما تشير الشواهد - بدقة كافية - إلى أن بونابرت نفذ تهديده السابق على الملتزمين بصفة عامة . والمعلومات الراهنة والواضحة تتعلق برسالة بعث بها إلى مدير المالية بوسيلج فى ١٢ أغسطس (أى قبيل رحيله بعشرة أيام) تتضمن تهديد زوجة "حسن بك الجداوى" بالقبض عليها، ونزع قرى الالتزام التى تخصها إن لم تسدد فى الحال^(٣٤). وربما كان التشدد فى حالتها راجعاً إلى أن فلاحى قراها قد وافوها بالضرائب بالفعل . غير أن هذه الحالة الخاصة لا يمكن اعتبارها قرينة على بدء تنفيذ العقوبة على الملتزمين الآخرين؛ إذ برغم ما كشفته "قائمة متأخرات الملتزمين" Comptes des Fermiers عن تراكم الأقساط على الكثيرين أمثال الشيخ البكرى والشيخ المهدى والشيخ السرسى، والتى حررت فى ١٥ أغسطس، إلا أننا لا نلاحظ ردود فعل مشابهة لتلك التى اتخذت ضد زوجة حسن بك، فى الوقت الذى كانت الخزانة تشكو - بالفعل - من قلة الإيرادات المحصلة .

والأقرب للاعتقاد أن القائد العام أثر تجنب توسيع دائرة الاصطدام بالملتزمين، وبصفة خاصة كبار الملتزمين من المشايخ والعلماء الذين أعربوا قبل أيام قليلة عن استيائهم وغضبهم من حبس "مشايخ القرى" بالقلعة؛ من جراء تأخيرهم عن سداد الضرائب^(٣٥). وهو مالا بد قد أزعجه؛ لفرط رغبته فى أن يغادر مصر وهى متمتعة بنوع

ما من الاستقرار^(٣٦)، حتى وإن كان من النوع الهش . ولعل المنشور الذى سجله "الجبرتى" فى يومية ٢٨ أغسطس يؤكد هذا التحليل؛ إذ قد نّم عن وجود حالة ضرورة إلى تهدئة الأوضاع؛ عبر إعطاء مهلة إضافية : "فمن كان عليه مال مირى ملزوم بغلاقه، ومن لم يغلّق ما عليه بعد مضى ٢٠ يوماً عوّب بما يليق به"^(٣٧).

ومن واقع استمرار تراكم متأخرات الميرى الخاصة بعام ١٢١٣ (٩٨-١٧٩٩)، على مدار الفترة التالية، يمكن الاستنتاج بأن إدارة الاحتلال قد تخلت عن تهديدها للملتزمين بالحبس والمصادرة . ولا يخفى أن رحيل بونايرت فجأة ، فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩، يظل يشير إلى أنه أثر أن يترك مسئولية تسوية حسابات متأخرات الميرى لخليفته وبالفعل سوف تمثل هذه المشكلة إحدى المعضلات الأساسية التى تشغل بها الإدارة المالية حتى نهاية فترة الاحتلال .

وبقدر ما كان بونايرت متوازناً مع الملتزمين المحليين (المصريين)، بقدر ما كان أكثر تشدداً مع نظرائهم من الملتزمين الفرنسيين Les Fermiers Français^(٣٨)؛ فقد أصدر توجيهاته إلى الجنرال دوجا Dugua حاكم القاهرة بأن يتولى تسوية متأخرات الميرى المتراكمة على هؤلاء الملتزمين ، ومن يرفض السداد يخضع لعقوبتى المصادرة والسجن . وكان استيف (الأمين العام للخزانة) هو المكلف بإمداد الجنرال دوجا بأسمائهم^(٣٩).

وقد لاحظ الجنرال دوجا أن القائمة ضمت أسماء مهمة لجنرالات ومشاهير بالجيش؛ أمثال : "الجنرال مورا Mura والجنرال دستنج Destaing والجنرال فوجيير Fugière والجنرال لانوس Lanousse ومساعد الجنرال كامبيس Cambi، فضلاً عن المواطن تاليان Tallien (الذى سيتولى إدارة المالية نفسها بعد ذلك) .. إلخ ، وهم كفاءات لها اعتبارها، ويصعب إلحاق الإهانة بهم عبر اقتيادهم لسجن القلعة . وإذا كان التكليف بالمهمة قد حتم على دوجا إنجازها، فإن الأخير سوف يلجأ إلى استغلال رصيده علاقته بهم، ولا سيما مع الجنرالين لانوس ودستنج: فقد حرر خطاباً لهما، أكد فيه بأن هذه المهمة أكثر قسوة عليه بقدر ما هى ثقيلة "فالقائد العام أعطى الأوامر بالتنفيذ دون مراعاة لتمييز الرتبة أو الجنس، والمبالغ المستحقة جد كبيرة Une somme très considérable،

وأنه لَحَرَىُّ بكما أن تسارعا بالتسديد؛ إذ أن كل يوم يمضى يضاف إلى الحصيلة ١٪ كغرامة تأخير D'une amende de retard " وأنهى رسالته بالتأكيد على جدية التنفيذ، من خلال الإشارة إلى حالتين طُبِّقَتَ عليهما العقوبة؛ حيث كان قد اقتيد كل من مساعد الجنرال كامبيس، والقائم بأعمال الجنرال مورا إلى سجن القلعة، وبينما أطلق سراح الأخير، فإن كامبيس ظل في الحبس (٤٠).

وليس لدينا معلومات عن حجم هذه الالتزامات، وإن كان يبدو من واقع كشف حسابى قدمه داللونفيل Dallonville مدير إدارة الأملاك - أنها لم تقل أهمية عن التزامات كبار المشايخ بالقاهرة؛ إذ يتضح من القائمة أن تاليان وحده كان مسئولاً عن تسديد ١,٧٠٦٠,٠٦٠ بارة، وهو رقم يفوق ما كان مقرراً على الشيخ البكرى الذى كان مطالباً بتسديد ١,٤٠٨,١٠٨ بارة. كما أن مجموع متأخرات الجنرالين دستنج ومورا تكاد تعادل متأخرات الشيخ المهدي والشيخ السرسى المعروفين بكبر حيازتهما من الأراضى (٤١).

ولقد كان بونايرت ممتعضاً من عدم مراعاة الملزمين الفرنسيين (العسكريين والمدنيين) للموقف الصعب الذى تمر به مالية الجيش. على أنه سوف يُحْمَلُ الإدارة المالية مسئولية هذه النتيجة السلبية التى يؤكد بأنها لم تنجم سوى عن إهمال شديد للغاية وعجز فاضح فى تأدية المهام (٤٢). وكان هذا التقرير آخر ما وجه بونايرت - قبيل رحيله بأيام - لإدارة الجباية.

الاتجاه إلى تحجيم قرى الالتزام

ويتولى كليبر القيادة العامة للجيش فى أواخر أغسطس ١٧٩٩، وفى إطار مساعيه الحثيثة؛ لتقليل الفجوة الواسعة بين الإيرادات والمصروفات، فإنه يجد نفسه فى مواجهة الملزمين؛ وخاصة أن متأخرات الأقساط أربت على مليونى فرنك (أى أكثر من ٥٦ مليون بارة) (٤٣). بيد أن تصديه للمشكلة أفضى به إلى اتخاذ قرار حاسم بالتوقف عن طرح "قرى الجمهور" للالتزام، وذلك فى "أمره اليومى" الصادر فى ١٨ سبتمبر ١٧٩٩، والذى أكد فيه على بطلان كل عقود الالتزام التى أبرمت، فى مطلع السنة المالية الجديدة (١٢١٤/١٧٩٩-١٨٠٠) لحصص من الأراضى التابعة للأملاك الجمهور، وأنه قد

صار لازماً على قادة الدوائر الإقليمية أن يقبضوا على أولئك الذين يحاولون - بصفة ملتزمين - جباية أية ضرائب من تلك القرى^(٤٤). وحال إعادة تنظيم هيكل الإدارة المالية والنظام الضريبي (فى ٢٨ أبريل ١٨٠٠) سوف يعيد كليير التأكيد على ما جاء فى قرار ١٨ سبتمبر: "Ilne Pourra plus, Sous aucun prétexte, être passé de baux pour afferriages de villages"

(لن تمرر، تحت أية ذريعة، إيجارة لالتزامات القرى) ^(٤٥).

ولا مشاحة أن قرارى (١٨ سبتمبر ١٧٩٩، و ٢٨ أبريل ١٨٠٠)، على هذا النحو، قد قطع الطريق على إمكانية الإفراج عن القرى المصادرة، ومن ثم تجمدت مساحة التزامات "قرى الرعايا"، ولم يعد فى إمكان الملتزمين، الذين لم يتقدموا، فى العام المالى الأول، لتسجيل حصصهم - أية فرصة لاسترداد قراهم؛ فقد عُمم القرار، وتشددت الإدارة المالية فى تنفيذه، فيما عدا التزامات حسن طوبار (*) التى جرى اعتبارها استثناء وحيداً وضرورياً. وفى رسالته إلى الصراف العام للخزانة، أفصح كليير عن السبب الذى أفضى به إلى طرح هذا الاستثناء: "أن من بين الأسباب القوية التى تدفعنى لأن أسوس حسن طوبار، إنما تتمثل فى قوة تأثيره الفاعلة فى هذه البلاد، وهذا ما حدا بى إلى أن أترك له التزامه، فلتعملوا تقارير خاصة، تضع هذا الرجل تحت عيونى"^(٤٦).

على أية حال، كان تحجيم "قرى الالتزام" هو أحد إجراءات أساسيين، اتخذهما كليير فى إطار إعادة تنظيمه لإدارة جباية الميرى من "قرى الرعايا". وكان الإجراء الثانى متمثلاً فى إبطال المكاتب الفرعية لإدارة التسجيل التى كانت موزعة على الأقاليم، وإن كان الأمر اليومى (الصادر فى ٢٨ نوفمبر ١٧٩٩) قد أبقى على "إدارة التسجيل والأملاك المركزية" بالقاهرة، لتباشر مهامها العادية فى توثيق الحيازات، وما يطرأ عليها من تغيرات^(٤٧). على حين استُبدل بالمكاتب الفرعية إدارة جديدة يتولاها "الأفندية" الذين كانت لهم خبرة طويلة بإدارة جباية الميرى، وهو ما يؤمل معه وضع حد لمشكلة متأخرات الحبوب التى تراكمت، بشكل خاص، على ملتزمى القرى بالصعيد^(٤٨).

إدارة أفندى الملتزمين

يصبح حسين أفندى (*) على رأس هذه الإدارة، على أننا نجهل التاريخ الرسمي لتكليفه بوظيفته الجديدة . ويبدو من تاريخ أول مراسلة بينه وبين رئيس المالية بوسيلج أنه كان يصدد إعداد الهيئة المكتبية لإدارته، خلال الأسبوع الثاني من سبتمبر ١٧٩٩ (٤٩)، وعلى ذلك فإن إدارة أفندى الالتزام باشرت مهامها بعد قرار كليبر بقصر مجال الالتزامات على القرى التى سُجلت فى العام المالى الأول .

ويتجلى مجال اختصاص إدارة حسين أفندى من واقع تلقيه بـ أفندى الملتزمين Effendi des Multésime (٥٠)، أو بحسب توقيعه على تقاريره "كاتب الميرى" (٥١)، ووفقا لتقرير المراقب الإنجليزى جون كيث John Keith ، الذى أتيح له خلال سريان معاهدة العريش، الاتصال بالشخصيات الإدارية المهمة "كان حسين أفندى أكثر من يعرف شئون الميرى وأنه لا يمكن تعويضه بآخر"، وقد ترجم وظيفته إلى "المراقب على شئون الميرى" "Controller for the affairs of the miri" (٥٢). وإن كان هذا لا يعنى أنه تولى مهام الإشراف على كل الميرى؛ فالثابت أنه اختص بميرى قرى الرعايا الذى يشار إليه فى الوثائق الفرنسية Le Miri des Propriétaires تمييزاً عن ميرى الأملاك العامة Le Miri des domaines nationaux وإن كان النوعان من الميرى قد خضعا لرقابة مدير المالية (٥٣).

ولما كانت الضرائب العينية هى المجال الأصعب على الضبط، والأكثر إثارة للمشكلات مع الملتزمين وأهالى القرى (٥٥)، فقد ارتأت الإدارة المالية - على ما يبدو - قصر مهمة "حسين أفندى" على تنظيم "الميرى العينية" (٥٦). ويبدو هذا سبباً كافياً لتفسير اقتصار تقارير ومراسلات "حسين أفندى" على ولايات جرجا والمنفلوطية والأشمونين والبهنسا التى كان غالب مواردها الضريبية من الحبوب (٥٧). وللسبب نفسه لم تدرج قرى ونواحي ولاية الفيوم فى قوائمه، برغم أنها تابعة إدارياً ومالياً للصعيد؛ وذلك لأن مدفوعات نقدية (٥٨). وحال تحول إقليم جرجا إلى "ولاية مملوكية"، بدءاً من ٥ أبريل ١٨٠٠، فإن نطاق الأقاليم التى كانت تتبع إدارة حسين أفندى تتحدد بحصص

الملتزمين فى كل من أسيوط والمنيا وبنى سويف^(٥٩). وعندما يتجه كليبر فى إصلاحه للنظام الضريبى بعمل "الضريبة النقدية العامة" فإن حسين أفندى يكلف بتحويل الحبوب المحصلة إلى ما يعادلها بالنقود، وذلك بحساب الأردب على "١٥٠" بارة^(٦٠). وعلى ما يبدو كان المباشرون الأقباط قد زاحموا أطرافاً أخرى فى عملية تسويق الغلال والمواشى^(٦١)، وذلك قبل تسديدهم للحصيلة لإدارة "حسين أفندى".

والمعنى المتضمن، على هذا النحو، يشير إلى أن وظيفة "حسين أفندى" قاربت وظيفة "قلم أفندى الغلال" الذى كان مسئولاً عن تنظيم شئون الميرى العينى بسائر أقاليم الوجه القبلى. وهو وإن كان أحد أهم أقلام "الروزنامة"، إلا أن ذلك لم يكن ليعنى أنه صار "روزنامجى" فى زمن الاحتلال الفرنسى، على نحو ما تصور البعض^(٦٢). ولا حاجة لنا إلى بحث هذه المغالطة؛ فالروزنامة - على نحو ما وصفها فى مجمل أجوبته على تساؤلات استيف - أبطلت تماماً^(٦٣)، وحتى وظيفته كأفندى للالتزام، طوال فترة الاحتلال، لم تعد سوى إدارة مكتبية لتنظيم ميرى الغلال؛ إذ لم يكن له حتى التدخل فى حل مشاكل الإنتاج بين الفلاحين والملتزمين، أو بين الأخيرين والإدارة المالية. هذا فضلاً عن أنه لم يكن مسئولاً عن مشكلة المتأخرات والبواقي المتراكمة على الملتزمين من عام لآخر، فمثل هذا النوع من المشكلات كان من اختصاص المسئولين الماليين الفرنسيين^(٦٤). وقد يفسر ذلك هدوء العلاقة، على نحو دائم، بينه وبين الإدارة المالية التى أولته ثقته، وذلك على النقيض من وضع نظرائه من المباشرين الأقباط، وهو ما كان مردوده واضحاً فى حرص الإدارة الفرنسية على استمرارية دوره طيلة فترة الاحتلال.

وبالرغم من الصمت المطبق من جانب المصادر بشأن التنظيم الذى احتوى "جماعة الأفندية"، إلا أنه على ضوء عدد قليل من الوثائق العربية بالأرشيف الفرنسى، والتى تحمل توقعات هؤلاء الأفندية، يمكن الاستنتاج بأن نوعاً من التنظيم الهيراركى لهذه الجماعة كان قد ساد الأقاليم، بحيث يصبح فى كل ناحية رئيسة واحد منهم يجرى

تلقية باسمها "أفندى الناحية" (٦٥)، يتقدمه "أفندى الولاية" (٦٦) الذى يعد مسئولاً عن "أفندى النواحي بالولاية". والذى ترجم الفرنسيون وظيفته إلى "Chef des effendis de province" (أى مقدم الأفندى بالولاية) (٦٧).

ولم نجد بالوثائق ما يشير إلى وجود علاقة إدارية بين "حسين أفندى" و "أفندى الولايات". وثمة وثيقة التماس رفعها ملتزمو ناحية "صفت راشين" Saft Rchin بولاية بنى سويف ضد "أفندى الناحية" الذى رفض أن يسلمهم إيصال "المخالصة" Un reçu de Miri؛ بسبب أنه لم يتلق من القاهرة ما يفيد بأن القرية سددت الضرائب (٦٨). ومن مسار الشكوى التى رفعت لمدير التحصيلات العينية (رينيه) نفهم بأن الأخير كان هو المعنى بالأمر، وليس "حسين أفندى" الذى كانت إدارته - كذلك - تتبعه مباشرة. وعلى ذلك فإن الجهة الرقابية والمسئولة عن محاسبة الأفندى، فيما نيظ بهم من مهام - كانت ممثلة فى واحدة من الإدارات المالية والفرنسية لإدارة الوكلاء الفرنسيين، الذين عمل الأفندى كمندوبين مساعدين لهم فى جباية الضرائب (٦٩)، ثم بعد إلغاء إدارة الوكلاء فى ٢٨ أبريل ١٨٠٠ صار الأفندى يتبعون مباشرة إدارة التحصيلات العينية.

وتلقى وثيقة "الالتماس" السابقة الضوء على دور الأفندى فى مراجعة مستندات تسديد "الميرى" بالشكل الذى يشير إلى مواصلة "أفندى النواحي والولايات" لدورهم التقليدى السابق على سنة ١٧٩٨: إذا كان "أفندى الناحية" يرسل إلى الملتزم أحد الجاويشية الذين يحملون "تذكرة الميرى" التى كانت بمثابة إخطار بالدفع، يحدد به إجمالى الضرائب المقرر دفعها بين يدي الروزنامجى بالقاهرة. وكان الأخير بعد تلقى الحصيلة المطلوبة يعطى للملتزم إيصالاً مؤقتاً؛ ليدفع به إلى "أفندى الناحية" الذى يسارع بمطابقة الإيصال المؤقت بالسجل المحرر به اسم الملتزم والأقساط المقررة عليه، بعدها يسلمه المخالصة النهائية (٧٠)، أو - بحسب تعبير وثائق الترايع - إيصال "القبض الوافى" (٧١).

وتستمر الإجراءات نفسها، في زمن الاحتلال، غير أن إلغاء الروزنامة وإبطال وظيفة الروزنامجى جعل الملتزمين يسددون بين يدي "مدير الحدود" (مدير المالية الفرنسى) الذى يوالى إخطار الوكلاء الماليين فى الأقاليم بما سددوه بالفعل، ويحدد البواقي التى ما تزال مستحقة الدفع^(٧٢)، ومن المؤكد أن هذا كان سبباً فى ندرة الوثائق المتعلقة بالأفندية، إذ لم توجه إليهم الإخطارات مباشرة، وإنما عبر مرءوسيهم الوكلاء الفرنسيين. ووفقاً لهذه الإفادات كان الأفندية يدفعون بإيصال "القبض الوافى" للملتزمين.

ولما كان الملتزمون قد اعتادوا الماطلة فى الدفع، "مدير الحدود" يجد نفسه مضطراً إلى إلزام الوكلاء الماليين بالتحصيل العام من القرى، بقطع النظر عن كونها تابعة لأملاك الجمهور أو كانت تخص التزامات الرعايا، وأن يتم بعدها محاسبة الملتزمين^(٧٣). وربما لذلك مال الملتزمون إلى دفع الميرى للمباشرين الأقباط؛ لأجل الحصول على إقرار بخط يد هؤلاء الآخرين وتوقيعهم؛ فقد علمتهم الظروف أن المباشرين الأقباط هم رجال كل سلطة فى إدارة جباية الضرائب، ولذلك حرصوا على أن يحتوى نص الإيصال على الإشارة إلى "أن غلال الميرى تعلق الملتزم صارت فى عهدة الوكيل القبطى..."^(٧٤)

ومن ثم يجنبون أنفسهم - قدر الإمكان - أن يستهدفوا للدفع الحصيلة المقررة مرتين. ومن جانب آخر، وفيما يدل على مبلغ حالة القلق والخوف من تقلبات السلطة السياسية والعسكرية، نجدهم يعززون مستنداتهم فى دفع الضرائب باللجوء إلى "نواب الشرع" بمحاكم النواحي، وهم يصطحبون الشهود؛ لتدعيم الإثباتات، فيسجلون فى دفتر نائب الناحية ما سلموه من الغلال، ولأن حصيلة الحبوب تنقل على المراكب، فإنهم ينزعون إقراراً من "الرويسا" بالكمية التى شُحنت على مراكبهم، ويصبح نص الوثيقة شاملاً لكل البيانات السابقة^(٧٥).

بين الحسابات الهازئة وحفظ تراث الروزنامة

وعلى هذا النحو صارت "إرساليات الحبوب" فى عهدة المباشرين الأقباط. وحال إسناد مهمة تنظيم قوائم ميرى الملتزمين لحسين أفندى تعين على المباشرين أن يسلموه

نتائج الحصيلة^(٧٦)، مصحوبة بالقوائم التي تحدد ميرى كل ناحية تم جباية الحبوب منها . وفى نهاية كل شهر كان على حسين أفندى أن يوافق "مدير الدخول الطبيعية" بتقرير مفصل بما تسلمه من المباشرين الأقباط^(٧٧). والسؤال الضروري ينزع إلى التعرف على مدى توحد أو تباين المواقف بين إدارة أفندى الملتزمين وبين إدارة المباشرين، بشأن كل ما كان يطلب منهما من قوائم حسابية أو استفسارات معينة، فإلى أى حد اتفقت أو تناقضت مصالح الجانبين بعد ما اندرج كل منهما فى العمل مع الإدارة المالية ؟

الواقع إن غياب وجود قوائم شاملة ومحددة بأسماء جميع القرى والنواحي ومكلفتها الضريبية - حال دون إمكانية مراجعة قوائم الميرى ، وكشف ما بها من مغالطات أدرجها الجباة فى مجمل حساباتهم الضريبية؛ ونتيجة لذلك استمرت قوائم الميرى تُحرر بطريقة مجملة غير تفصيلية ، ولم تجد الإدارة المالية من سبيل - طيلة العامين الماليين (١٢١٣-١٢١٤ / ١٧٩٨-١٨٠٠) - سوى العمل فى إطار تلك القوائم، وذلك على الرغم من تزايد المظان والشكوك المطلقة فى صحة بياناتها.

غير أنه مع مطلع العام المالى الثالث والآخر ١٢١٥ (سبتمبر ١٨٠٠) يتوافر عاملان أساسيان، يؤديان معاً إلى إتاحة الفرصة؛ لوضع تقييم حقيقى لكل قوائم الحسابات التى ترفع إليهم ، الأول منهما تمثل فى : حصول مدير المالية استيف على قوائم مفصلة، عُرِفَت بـ "دفاتر الترابيع" التى اضطر المباشرون إلى تحريرها؛ كضمن لنيل حريتهم؛ بعد أن طال اعتقالهم طوال شهور صيف ١٨٠٠^(٧٨). ومن ثم أتيح مصدر جديد لقوائم الميرى، يسمح بعقد المقارنة . وهنا يأتى دور العامل الثانى والمتمثل فى : تعيين رينيه Reynier (الوكيل المالى السابق لدائرة بنى سويف والفيوم) فى وظيفة "مدير الدخول الطبيعية" "Directeur des sunevel en nature" فقد كان معروفاً بدأبه وحصافته فى مراجعة كشوف الحسابات القبطية إلى الحد الذى أزجج المباشرين الأقباط^(٧٩).

وعلى ذلك أصبح فى الإمكان إعمال المقارنة ، واختبار مدى صحة ما احتوته "دفاتر المباشرين" ، أو على الأقل رصد مواطن التباين بينهما وبين كل القوائم التى رفعت، على مدار العامين السابقين، للإدارة المالية، بما فى ذلك قوائم حسين أفندى التى بادر

رينيه بإلزام الأخير بتقديمها بطريقة مغايرة، توضح أسماء القرى والنواحي وأسماء الملتزمين، ومساحة حصصهم في كل قرية (بالقيراط)، وقيمة المستحقات على كل منها، وما تم دفعه من الأقساط، والبواقي التي ما تزال مستحقة السداد^(٨٠).

وبين مراسلات رينيه يمكن رصد نموذج يوضح أهمية الجهد الذي بذل في المقارنة بين قوائم حسين أفندى وقوائم المباشرين الأقباط، وهو نموذج يتعلق بحسابات إقليم بنى سويف: فقد تكشف لرينيه وجود ١٤ قرية، بها قرارات تخص ملتزمين لم يرد ذكرهم في قوائم حسين أفندى، على حين رصدتهم المباشرون القبطى للدائرة، وسارع رينيه بمخاطبة حسين أفندى، وفي لغة هادئة طالبه بتقديم تفسير للأمر^(٨١) "والتحقق فيما إذا كانت هذه القرارات قد سقطت من القائمة؛ نتيجة سهو أم دفعت نقداً؟"^(٨١)؛ حيث كان حسين أفندى مختصاً - كما ذكرنا آنفاً - بضبط "الميرى العينى" فحسب.

لقد وجد حسين أفندى نفسه - على نحو مفاجئ - في وضع حرج لا يمكنه إيجاد مبرر لكل ما جاء بحسابات المباشرين من تجاوزات صارخة، في الوقت الذي يخشى فيه أن تطوله شبهة الإهمال أو الاختلاس، كما أن مصالحه الخاصة تملى عليه ضرورة الاحتفاظ بوظيفته التي جعلته على رأس الأفندية، ومن ثم فهي تفوق وظيفة "أفندى المحاسبة"^(٨٢) التي كان يشغلها قبل مجيء الاحتلال؛ ولذلك لم يكن أمامه من سبيل سوى درء المسؤولية عن جانبه؛ بكشف المغالطات المتعمدة الواردة في قوائم المباشرين، بشأن ميرى الأربع عشرة قرية. ولفرط ثقته في صحة بياناته، دعا رينيه إلى ضبط قوائمه الخاصة على ضوء تصويباته تلك: "فإن كان يا سيدي عندكم غلط في بعض القرارات فتصلحوه على موجب ذلك"^(٨٢).

ويلاحظ أن هذه التصويبات قد فضحت بعض أساليب المباشرين في التحايل على إيرادات المالية؛ إذ كان أكثرها خطورة اتجاه المباشرين إلى تسجيل بعض القرى على أنها "التزام رعايا" في حين كانت في الحقيقى "قرى مملوكية" مصادرة ومصنفة تحت "التزام جمهور"، الأمر الذي يعنى أن إيرادات "الفايظ والبرانى" من هذه القرى لن تعرف طريقها لخزانة السلطة الفرنسية. ورصدت ملاحظات حسين أفندى تغيير

المباشرين الأقباط في نوعية الميرى، فيحولون في دفاترهم "الميرى النقدي" إلى "ميرى عيني"، وهو ما تم على مستوى ١٠ نواحٍ من إجمالى الـ ١٤ ناحية^(٨٣) التى ذكرهم رينيه . والهدف من ذلك واضح : فالقرى التى تدفع "الميرى العيني" يتم تخفيض مدفوعاتىها بقدر التعويضات المحددة لنقل الحبوب من القرى إلى الساحل ولنققات شحنها ونقلها للقاهرة.

ومن المؤكد أن مثل هذه الملاحظات قد ساهمت فى إثارة شكوك الفرنسيين فى مدى صحة ومصداقية ما جاء فى مجمل "دفاتر المباشرين". ويبدو أن الاختبارات والمراجعات المستمرة قد كشفت الكثير من التجاوزات فى تلك الدفاتر، على أن أكثرها خطورة - وفقاً لما ذكره سكرتير المالية بيروس - كان متمثلاً فى عدم صحة الحصيلة الجملة لكل أنواع الضرائب المقررة على الأقاليم^(٨٤). ومن خلال نموذج لناحية، توافر لها بيانات واضحة فى قائمة حسين أفندى وفى دفاتر الترايع، وهى ناحية "منبال" بولاية بنى سويف، اتضح أن حصيلة الضرائب المسجلة بالترايع لا تمثل سوى ١/٤ المستحقات المفترض تحصيلها!!^(٨٥). وإذا كان ذلك يؤكد صحة ما جاء فى تقرير سكرتير المالية، إلا أننا لسنا فى وضع يتيح لنا التأكد من مدى إمكانية تعميم هذه النتيجة بالنسبة لسائر القرى والنواحي .

والثابت أن رينيه وجد صعوبة كبيرة فى فهم الكثير من قوائم المباشرين الأقباط؛ بسبب اعتيادهم على تدوين الحسابات بطريقة مجملة وبأسماء النواحي الرئيسية ؛ مما جعله يؤكد للإدارة المالية على أن تقرير "المعلم ميخائيل متى" - مباشر ولاية بنى سويف - به كثير من "الغموض" des obscurités^(٨٦)، ومن ثم سوف يضطر رينيه وهو بصدد تحرير تقريره الشامل عن متحصلات ميرى "قرى الرعايا" لعام ١٢١٤ (١٧٩٩-١٨٠٠) - إلى تمييز مجموعة النواحي التى ذكرها "المعلم ميخائيل متى" بعبارة تحمل اسمه : D'eclara tion de Mikáél Matta ؛ (أى وفقاً لما أعلنه ميخائيل متى)، وبالعبارة نفسها أشار إلى البيانات والقرى التى صوبها "حسين أفندى بأنها Déclaration d'Hussein Effendi^(٨٧).

ورغم أهمية ما قدمه حسين أفندى إلا أنه يظل مجرد إيضاحات لما سُئل بشأنه ، وليس مراجعة شاملة لكل دفاتر المباشرين ؛ فقد نأى بنفسه عن أن يُستخدم كأداة فى كشف أساليب تحايل المباشرين على إيرادات السلطة الفرنسية . ويبدو هذا واضحاً فى رسالته إلى رينيه التى يؤكد له فيها أنه ليس من اختصاصه مراجعة ميرى الغلال فى "قرى الجمهور" التى لم يسبق له تحمل مسئولية تنظيم قوائمها والتى اضطلع بها المباشرون (٨٨) .

لقد كان حسين أفندى مدركاً ضرورة تحقيق قدر من التوازن بين ما يحفظ له مصالحه لدى الفرنسيين وبين ما ينأى به عن الاصطدام بالمباشرين ؛ وخاصة أن توحيد الموقف بين الجانبين (الأفندية والمباشرين) كان مطلباً ضرورياً كذلك ؛ لئلا ينفلت الأمر من بين أيديهم ، وتصبح كل أسرار النظام المالى واضحة للفرنسيين أو لغيرهم .

ولم تغب هذه المسألة ألبتة عن وعى الأفندية والمباشرين : فقد سبق لـ حسين أفندى أن شارك كلاً من "المعلم يعقوب" و "المعلم لطف الله" فى كتابة مذكرة مالية ، رفعها الثلاثة لمدير المالية استيف ، فى ظروف بالغة الصعوبة ، بلغ خلالها سخط الفرنسيين على المباشرين والأفندية ذروته ؛ وذلك عندما اعتقل استيف المباشرين الأقباط ، واشترط للإفراج عنهم ولنوال حريتهم أن يمدوه بدفاترهم وأن يفضوا بما لديهم من معلومات . وفى هذه اللحظة تفتق ذهن الثلاثة عن تقديم مذكرة تحوى ملاحظات عامة عن شكل حياة الأراضى فى مصر "Notes Sur le mode de possession des terres" ، قدمت لمدير المالية فى ٣ يوليو ١٨٠٠ (٨٩) وتعد نموذجاً بالغ الدلالة لنوعية المعلومات التى كان يمكن أن يفضى بها ثلاث شخصيات من أكثر من أقادوا ، من بين سائر الأفندية والمباشرين الأقباط ، من التقرب للفرنسيين .

ففى الواقع أن ما تضمنته المذكرة ليس سوى لوحة عامة عن التنظيم المالى وحياة الأراضى ، على النحو الذى ساد منذ فتح السلطان سليم الأول لمصر ، فى مطلع القرن السادس عشر . والمعنى على هذا النحو ، يجعل المذكرة تقترب ، إلى حد كبير ، من

مضمون "أجوبة حسين أفندى" على التساؤلات التى طرحها عليه استيف، حتى
ليمكن القول : بأن الأطروحتين (مذكرة ٣ يوليو ١٨٠٠، وأجوبة ٢٧ مايو ١٨٠١) ليستا
إلا تقريراً نظرياً، حُجبت بمقتضاه - عن وعى كامل - معظم التغييرات الواقعية
والتطورات المختلفة التى عبث بالنظام المالى طيلة ثلاثة قرون.

وتعد هذه الرؤية المثالية التى قدمت عن النظام بمثابة شاهد على احتكار شديد
للمعلومات، لم تستطع تهديدات المحتل كسره . ومن الطريف أن يصرح حسين أفندى
فى أجوبته بأن الشرط الرئيسى لرجال الروزنامة هو القدرة على كتمان المعلومات؛ لأنها
"من أسرار الملوك"، وأن هؤلاء الروزنامية سلا يقع فيهم تغيير ولا تبديل إلا بالموت أو
بخیانة ظاهرة!! (٩٠).

وكيفما كان الأمر فإن استمرار تعثر جباية الميرى، وتفاقم حدة الأزمة المالية، قد حتما
ضرورة إعادة تنظيم المالية؛ فلم يؤد إحلال "إدارة أفندى الملتزمين" محل "إدارات
التسجيل" إلى تحسين وضع الجباية من "قرى الرعايا"؛ فتراكم الأقساط التى لم
تُسد، من عام لآخر، أصبحت سمة أساسية للملتزمين، خصوصاً فى صعيد مصر الذى
بلغت فيه متأخرات الأقساط، عن أعوام (١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤ / ١٧٩٨، ١٧٩٩، ١٨٠٠)
ما قدره : "١,٦٣٩,٤٠٣" إردباً!! من الحبوب؛ أى ما يعادل ٩٠٪ تقريباً من إجمالي
حصيلة الغلال فى عام كامل!! (٩١). كما تكشف للفرنسيين أن جباة الضرائب، عند
تقديمهم لقوائم الضرائب، انحازوا للملتزمين على حساب الفلاحين (٩٢)، فى الوقت
الذى استمر فيه الملتزمون فى جباية "الرسوم العرفية" المجهولة تماماً للفرنسيين . وكان
استيف قد صرح للقائد العام منو (فى ٢١ ديسمبر ١٨٠٠) بأنه من المستحيل تمييز تلك
الضرائب : "إن كل شىء مشروع وفقاً لهم (الملتزمين) ووفقاً للعرف، ولا شىء يدل على
ذلك!!" (٩٣).

ولا يخامر المراقبون الشك فى أن هذه الممارسات الشاذة كانت وراء انعدام الحافز
لدى الكثير من الفلاحين للاهتمام بالأرض واستصلاح البائر منها؛ فكل تحسن ما
تطوله سريعاً يد أرباب العوائد الذين يحملون الأراضى المستصلحة بالمزيد من الأعباء

الضريبة^(٩٤). وهو ما يبدو سبباً كافياً لانحسار المساحة الزراعية والتي يقدرها «توزار» بـ أراضى الصعيد !! . ويقطع النظر عن مدى دقة أو صحة هذا التقدير، فمما لا شك فيه أن ترك مساحات شاسعة من الأراضى دون زراعة قد أثر بدوره على انخفاض الموارد الضريبية. وكان «فيفان رينون» قد أبدى الملاحظة نفسها، والتي فسرناها بأنها موقف صارم من الفلاحين أن يعتمدوا حرمان مستبديهم من فائض عملهم Superflu de leurs travaux^(٩٥).

وإذا تطلب الأمر إيجاد علاج جذرى للأزمة المالية . ولأن هذه الأخيرة طالت تأثيراتها السلبية الجميع؛ من جراء وطأتها الشديدة، فإن الكثيرين من المسئولين الماليين والعسكريين يجدون أنفسهم مدفوعين إلى تقديم اقتراحات عديدة، سوف تحفز القائد العام منو على إصدار أمره اليومي (فى ٨ سبتمبر ١٨٠٠) الذى دعا فيه كل الفرنسيين إلى تقديم الأفكار والمقترحات الجديرة بإصلاح المالية وزيادة الإنتاج والإيرادات^(٩٦). وحيث إن معظم المقترحات سوف تمس مصالح الملتزمين، فإن استمرار إدارة "أفندى الملتزمين" فى مباشرة جبايات الضرائب من "قرى الرعايا"، يصبح رهن ما سوف تسفر عنه الأفكار المقترحة للإصلاح المالى من نتائج فعلية .

محاولة تنحية الملتزمين وهدم النظام القديم

استعرض كل من "ريجو" و "لورنس" فى مؤلفيهما جملة الأفكار والمقترحات التى تقدم بها كل من باجاليانو ودالماس وليبنوز ورينيه، وتوزار واستيف... إلخ عن انعكست أفكارهم فى المشروع الإصلاحى الكبير الذى أصدره القائد العام منو (فى ٢٠ يناير ١٨٠١)^(٩٧). والملاحظ - بصفة عامة - على تلك المقترحات أنها فى مجملها اتفقت على الإطاحة بنظام الالتزام، والقضاء على الوسطاء، الذين ينظر إليهم باعتبارهم متطفلين على اقتصاد البلاد، فى مقابل تحسين وضعية الفلاحين، عبر توزيع مساحات معينة من الأراضى عليهم، وتحديد الضرائب مرة واحدة، وتثبيتها على أساس وحدة الفدان، وأخيراً الاهتمام بإصلاح البنية الأساسية لشبكة الري، وتوزيع ماء النيل بين القرى، بطريقة عادلة، تضمن انتهاء حروب ومنازعات القرى فيما بينها، والتى كثيراً ما كانت تتسبب فى تعطيل الزراعة فى مساحات كبيرة . كذلك بدا واضحاً أن ملمحاً

رأسمالياً قد طُبِعَ هذه المقترحات ككل ، تَمَثَّلَ فى العمل على توفير "الحافز على الإنتاج" ؛ لزيادة الرقعة الزراعية - من ناحية؛ ولتحقيق سرعة فى أداء الفلاحين للضرائب - من ناحية أخرى .

ويحاول منو تهيئة الأجواء لتقبل فكرة تغيير النظام القديم، ولن يعنيه، فى المقام الأول، سوى الفلاحين؛ بصفقتهم الممولين الحقيقيين للضرائب . ومن ثم يوجه منشوراً خاصاً لهم فى ٢٨ أكتوبر ١٨٠٠^(٩٨)، ركز فيه على توعية الفلاحين بأنهم ليسوا فى مرتبة أدنى من الملتزمين، الذين لا يملكون عليهم سلطة، ومن ثم فليس ثمة ما يلزم الفلاحين على الاستجابة لجشعهم وهم - على نحو دائم - يطالبونهم بأداء "التكاليف العرفية" (الضرائب غير المسجلة) التى تلتهم معظم العائد الربعى، وتسبب فى فقرهم وشقائهم . وطالما أن سلطات الاحتلال سوف تعاقب المتجاوزين من الملتزمين بمصادرة ممتلكاتهم، فإن على الفلاحين أن يصروا على عدم دفع شىء ، ولو بارة واحدة، فوق ما هو مقرر عليهم وأنه بإمكانهم تفادى مظالم هؤلاء الوسطاء بأن يسارعوا بأنفسهم إلى الصرافين الفرنسيين بالأقاليم؛ لتسديد الحصيلة المستحقة عليهم .

وفى الواقع كان هذا اختباراً قوياً لمدى إمكانية جعل العلاقة المباشرة بين الفلاحين والإدارة المالية غمطاً يسود العلاقات الإنتاجية بالريف، كما يعد هذا "المنشور" الأول من نوعه الذى يعلن فيه عن دعوة صريحة إلى رفض سلطة الملتزمين على القرى . ومن الواضح أن مرامى "منو" كانت فى اتجاه يحول بين الملتزمين وبين سيطرتهم على الإيرادات الضريبية غير المعلومة تماماً للفرنسيين ؛ وطالما أن هذه الأخيرة، لا سبيل لحصرها أو للتعرف على طبيعتها وأنواعها، فإن بقاءها بين يدى الفلاحين يصبح هدفاً فى حد ذاته، إذ كان المأمول من تحسين العائد الربعى للفلاحة أن يحفز الفلاحين على زيادة الإنتاج وخاصة فى ظل انخفاض قوة العمل فى الريف^(٩٩) . كما لا يخفى أنه فى حال تحقق استجابة الفلاحين لسرعة تسديد الضرائب بأنفسهم ، فإن الملتزمين لن يجدوا مبرراً لمراكمة "بواقى الميرى" ؛ مما يؤمل معه وضع حلٍ ناجع لمشكلة المتأخرات .

وكانت ردود الفعل غير متوقعة ؛ فقد فسر الفلاحون "المنشور" على أنه دعوة إلى الكف عن دفع أى شىء للملتزمى الضرائب ، ويشير إلى ذلك كاتب الحوليات بوضوح:

"أرسلوا (الملتزمون) إلى حصصهم يطالبون الفلاحين بما عليهم من الخراج ، فامتنع الفلاحون من الدفع، وأخبروا أن الفرنساوية حرجوا عليهم ومنعواهم من دفع المال للملتزمين" (١٠٠).

ويبدو أن الإدارة الفرنسية قد أبدت ارتياحاً كبيراً لموقف الفلاحين؛ باعتباره خطوة بالغة الأهمية في إزالة المخاوف من الاصطدام بالمجتمع حال المضي في تفويض نظام الالتزام . ويتعزز موقف الفلاحين مع إثارة الفرنسيين الصمت والذي يمكن رده إلى تحريضهم لدى شيوع هذه الظاهرة على مستوى كل الأقاليم؛ فقد كانت القيادة العامة تتلقى شكاوى فردية من الملتزمين دون الاكتراث بالرد عليها (١٠١)، وأقصى ما كان يصدر عن الإدارة المالية إعلانها بفحص المشكلة وسعيها إلى تهدئة الموقف بين الملتزمين والفلاحين (١٠٢). ويفترض بأن عرائض الشكاوى قد تزايدت في هذه الفترة عينها؛ من جراء حلول موسم تحصيل القسط الأول من الميرى في نهاية نوفمبر ومطلع ديسمبر ١٨٠٠.

ولا يجد الملتزمون تفسيراً لامتناع "سارى عسكر" عن الرد على "العرضحالات" التى أخذوا يرسلونها تباعاً سوى أن نوايا سلطات الاحتلال تتجه الى تجريدهم من أموالهم وبلادهم ؛ بما جعلهم يرفضون مواصلة دفع "فردة الملتزمين"؛ مبررين ذلك بعجزهم عن "غلقها لتوقف الفلاحين عن دفع المال بأمر الفرنساوية وعدم تحصيلهم المال من بلادهم.. (١٠٣)

عريضة الملتزمين وصدائها المؤثر

وحينما تردد على لسان "الخازندرا العام للمالية" أن النية تتجه إلى مصادرة التزام "قرى الرعايا" ارتعدت فرائض الملتزمين، وبدأت جموعهم تتكالب على القاهرة، ووجد الموقف العصيب صفوفهم، وكتبوا "عريضة جماعية" إلى "ديوان القاهرة" (١٠٤). وتنطوي هذه الشكاوى على دلالات ذات مغزى بشأن مفهوم الملتزمين للملكية ولحقوق التصرف فيها : فقد أوضحوا للجانب الفرنسى بأن دفع الملتزم الميرى للباب العالى، وحصوله على "التمكين السلطاني" هو ما يجعله مالكاً لحصته من الأراضى؛ وما يؤكد

ذلك ممارسته لكل حقوق التصرف : البيع ، والشراء ، والرهن ، والإيجار . وطالما بقى محافظاً على دفع مستحقات الميرى، فإن ملكيته لا تنزع عنه، فضلاً عن أنه بعد مماته تنقل الحيازة لأبنائه بعد دفع رسم "الحلوان" . وأن هذا هو "ترتيب مصر"، وإذا ليس ثمة ما يضيفى الشرعية على ما أسموه "العمل بنظام بلاد الفلاحين"، أى توزيع قرى الملتزمين على الفلاحين؛ "فالأرض ملك الملتزم لم هى ملك الفلاح". والملتزم معه التمسكات الموثقة من السلاطين العثمانيين ومن إدارة التسجيل الفرنسية نفسها، وهم قائمون على دفع "الخراج" وكل الضرائب الاستثنائية التى طُلبوا بها من قبل . وأنه إذا كانت بغية الفرنسيين من وراء ذلك زيادة "المال الميرى" فإن العادة جرت مع السلاطين العثمانيين أن يحددوا لهم "المال المضاف" وهم يتولون تسويته على قراهم . وعلى ذلك فليس ثمة ما يبرر، تحت كل الظروف، مصادرة بلادهم؛ إذ أن ذلك "لم هو شأن الملوك"!! .

وعرج الملتزمون بعد ذلك على إبراز البعد الإنسانى فى المسألة : فهم الطبقة الاجتماعية المتميزة التى تدهور حالها بفعل الضرائب الاستثنائية الثقيلة (١٠٥) التى اضطرتهم إلى الاستدانة؛ فمنهم من رهن حصة التزامه، أو بعض منقولاته وأمتعته ، والنساء رهنّت مصاغهن، وهن منقطعات عن أزواجهن الأمراء المشتين فى البلاد . وأنهم، من ثم، يهابون بالفرنسيين ألا يقطعوا المصدر الوحيد لمعيشتهم؛ لئلا يصبحوا "صعاليك" يهيمنون على وجوههم بأولادهم ويسألون الناس إلخافاً فى بلاد غير بلادهم؛ إذ مع تحقيق مصادرة الأراضى سوف يفقدون رصيدهم بين الناس، وحالئذ لن يأتمنهم أحد على أى نوع من المعاملات .

وتؤدى "العريضة" إلى إثارة مناقشات واسعة بين فورييه Fourier (المندوب الفرنسى الدائم بالديوان) وبين الملتزمين ومشايخ الديوان أنفسهم . وإزاء احتدام المناقشة يضطر فورييه إلى حسم هذا الموقف الشائك بأنه مسألة خارج اختصاص الديوان . ويدفع بالعريضة إلى القائد العام (١٠٦) .

ولما كان منو لم ينجز بعد مشروعه المقترح لإصلاح المالية؛ حيث كان ما يزال يتلقى التقارير والمقترحات، لجأ إلى تهدئة الملتزمين واستيعابهم، ولا سيما وأنه لم يتخذ بعد قراراً نهائياً بشأن مصير قراهم . وإذا يخشى من احتمالات حدوث حركة جماهيرية يفتعلها هؤلاء الملتزمون، وخاصة وأن كبار المشايخ والعلماء، ذوى التأثير الواسع، كانوا من كبار

الملتزمين - فإنه يسارع بالرد على "العريضة" عبر منشور (فى ٢٢ ديسمبر ١٨٠٠) وجهه إلى هؤلاء المشايخ والعلماء وسائر الملتزمين والفلاحين . أعرب فى مقدمته عن دهشته وغضبه من مقدمى "العريضة"؛ لأنه - على حد قوله - لم يفكر قط فى تجريد الملتزمين من حصصهم، وأنهم أساءوا فهم مقاصده؛ لأنهم يكونون مشاعر العصيان والتمرد، فى الوقت الذى ينشغل فيه، على نحو دائم، بتحقيق السعادة للأهالى : فهو وإن كان يعد بعض الإجراءات الجديدة التى سوف تحدث تغيراً مهماً فى شكل إدارة تحصيل الإيرادات التى تتعلق بقرى الالتزام، إلا أنه حريص، فى الوقت نفسه، على تأمين العائد الربعى للملكيتهم *Davantage de leur propriété* وحتى يشتت ذهنية مقدمى العريضة عن مراميه الأساسية فى الإجهاز على غالب المردود العينى والنقدى الذى تدره قرى الالتزام فإنه يلجأ - كعادته - إلى استخدام مفردات الخطاب الدينى؛ من زاوية تحريره تحقيق ما يقتضيه الدين من معاملات؛ تحقق العدالة فى توزيع الثروات، الأمر الذى يمكنه، بعد طمأننتهم على مصالحهم، من انتقاد أساليبهم فى استغلال الفلاحين، وأن هذه الممارسات منافية للدين، وأنها تفرض ضرورة الإصلاح الضريبى (١٠٧).

وهكذا حاول منو احتواء الملتزمين فى الوقت الذى تفادى فيه النفى القاطع لبقاء أوضاع الحياة على ما هى عليه؛ وذلك حتى لا يكون لمشروع الإصلاح الذى أوشك على الانتهاء من إعداد، وقع المفاجأة التى يخشى أن تستثيرهم مرة أخرى .

ويلاحظ أن "الجبرتى" لم يصدر فى يومياته هذا المنشور، وإن كان يسجل ما أعلنوه بالديوان من أن مصادرة قرى الملتزمين وتمليكها للفلاحين ليست إلا "أكذوبة، وإن صدرت عن الخازن دار، فإنما كانت على سبيل الهزل أو يكون التحريف من الترجمان أو الناقل" (١٠٨)

المشروع العظيم ومصير قرى الالتزام

ويدرك منو أهمية أن تمضى سياسته الإصلاحية، التى ترمى إلى إحداث التغيير فى شكل النظام القديم، فى إطار تحول هادى، لا يستشير أصحاب المصالح ولا الجماهير المرتبطة بهم؛ وذلك اعتماداً على "سياسة التعويض" *La politique de dédommagement*؛

كبديل ملائم، عند إلغاء منخصصات هؤلاء الملتزمين^(١٠٩). والأمر ليس قاصراً على مجال الالتزام الريفي فحسب وإنما الالتزام الحضري كذلك^(١١٠).

ومن ثم ، فإن منو سوف يحرص، عند اتجاهه لإلغاء الالتزام، على تعويض الملتزمين : فقد أصدر الأمر اليومي الشهير في ٢٠ يناير ١٨٠١^(١١١) والذي تضمن ما يعرف بـ "المشروع العظيم" Le Grand projet ناصاً على تحديد ٢٤ / ٧ من ناتج القرية (أى ٢٩٪ من إجمالي حصيلة الضرائب) كمعاش سنوى للملتزم Une pension annuelle، والذي يتولى مشايخ القرى تسليمه لكل الملتزمين مع حلول كل قسط من الأقساط الأربعة المحددة فى (٢١ ديسمبر، ١٩ فبراير، ١٩ أبريل، ١٩ يونيو)؛ حيث لن يسمح لأى ملتزم أن يحتك بفلاحى قريته . وبالقدر نفسه يحرم عليه التدخل فى الشئون الإدارية والقضائية بالقرية؛ إذ لم يعد للملتزمين أى نوع من السلطة على أهالى القرى، وأن كل من يتجاوز هذه المسألة، على نحو خاص، سوف يتعرض للتحقير والضرب حتى الموت^(١١٢).

وينص الأمر اليومى - كذلك - على تملك الفلاحين لأراضى الفلاحة فى مقابل الإبقاء على "الأواشى" فى ملك الملتزمين، ويمارس الطرفان (الملتزم والفلاح)، على حد سواء، كل حقوق التصرف على الأرض على أن الملكية التى يعنىها منو فى مشروعه ليست الملكية التامة ؛ فهؤلاء الملاك (فلاحون وملتزمون) ملزمون بدفع الضرائب على كل أراضيهـم ، وذلك وفقاً للمعدل الثابت والمحدد بـ ٦ ، ٥ ، ٤ قرش بوطاقة، على أساس وحدة الفدان الواحد المقسم بحسب جودة وخصوبة الأرض (عال - وسط - دون)، كما يظل مبدأ المسئولية الجماعية فى أداء الضرائب المقررة على القرية سارياً دون تمييز "أراضى الأواشى" عن "أراضى الفلاحة"، ومن ثم ينتهى التمييز التقليدى بين هذين النوعين من الأراضى، والذي كان قد ساد فى مصر ، لقرون طويلة ، وبالمثل لن يكون ثمة فاصل بين قرى الرعايا وقرى الجمهور؛ طالما أن جميع الأراضى سوف تدار لحساب الجمهور . والاستثناء الوحيد يظل شاملاً لأراضى الرزق والأوقاف المرصدة على المساجد والمؤسسات الدينية^(١١٣).

ويتحفظ المشروع على إمكانية إعادة النظر فى النسبة المحددة للملتزمين (٢٤ / ٧)؛ فيما إذا كان من الملائم الإبقاء عليها أو تعويضهم بملكية تامة لجزء من أراضي الأواشى والرزق التى بـ «قرى» الجمهور^(١١٤) وإذا فالهدف الواضح يتجه إلى غلُّ أيدى الملتزمين عن تحصيل جزء كبير من رسومهم بقدر ما يرمى إلى تعظيم الفائض الذى يثول للخزانة . وقد أكد سكرتير المالية بأن الرغبة كانت شديدة فى رفع نصيب الخزانة إلى ٢٤ / ٢٠ قيراطاً؛ أى جعل مالية الجيش تستحوذ على فائض لا يقل عن ٨٣,٥٪ من جملة مدفوعات كل قرية، وأن تخصص النسبة المتبقية لنفقات جباية الضرائب^(١١٥).

وكان مقررأ أن يتم تنفيذ هذا المشروع الشامل للإصلاح الضريبى بعد القيام بمسح جديد، يتم تحت إشراف "لجنة فرنسية" تضبط عدد الأفدنة المزروعة ، والبائرة ، ونوعية ودرجة خصوبتها ، وأسماء المتعاقدين Les Cantractants (من الملتزمين القدامى والفلاحين)، وحصّة كل منهم^(١١٦). وأن تتحرى اللجنة الدقة؛ لتصويب البيانات المغلوطة التى يصعب حصرها، بما كان المفروضون من سالخولا ومشايخ القرى والجباة الأقباط " قد أدرجوها فى الدفاتر التى سلّمت للمالية^(١١٧).

وعلى ذلك تكونت "لجنة المساحة" (فى مارس ١٨٠١ م)، وبدأ مسئولوها فى وضع الترتيبات اللازمة لإنجاز هذه العملية الصعبة^(١١٨). وحظر على الملتزمين نزول القرى؛ لثلا يستحوزوا على متحصلات عام ١٢١٥ (١٨٠١) من الفلاحين الذين لم يكونوا أقل متابعة للموقف : إذ كانوا أكثر حذراً فى الاستجابة لدفع الضرائب لجميع الأطراف ، ولحظة شيوع خبر اجتياح القوات العثمانية والإنجليزية للبلاد توقفوا عن دفع الضرائب تماماً. وسعى الفرنسيون إلى الضغط على مشايخ الديوان ؛ لدفعهم إلى تحرير منشور للفلاحين، يحثهم وبشكل عاجل ، على مواصلة تسديد الضرائب ، غير أن مشايخ الديوان وقد أدركوا اقتراب جيش الصدر الأعظم من القاهرة، لا يجدون حرجاً فى الرفض ، ويذكرون الجانب الفرنسى بالمبدأ القديم : "هذا غير ممكن لحصول البلاد فى حياة القادمين، وقطع الطريق... وعدم الانتظار..."^(١١٩).

ويجد استيف فى موت العديد من الملتزمين بالطاعون^(١٢٠) مصدراً يمكن أن يمد الخزانة بعائدات مهمة؛ إذ يجتمع بمشايخ الديوان ويعرب لهم عن عزم الإدارة المالية على

ضبط قرى الملتزمين الذين ماتوا بالطاعون إلى أملاك الجمهور إذا لم يتقدم ورثتهم للمصالحة ودفع الحلوان، وأنه لا يمهلهم سوى "ثمانية أيام فمن لم يصالح على الالتزام الذى له فيه شبهة فى تلك المدة ضبطت حصته ولا يقبل له عذر بعد ذلك ..". وإذا كان استيف يعى تماماً مبلغ الشكوك التى تخامر نفوس الملتزمين ومشايخ الديوان، فى مدى بقاء السلطة بين أيدي الجيش الفرنسى، فإنه - كعادته فى الجلسات التى عقدت فى الفترة الأخيرة - يواصل تأكيده على قوة الجيش على دحر الأعداء القادمين؛ ومن ثم فإن عدم الاستجابة السريعة لدفع الحلوان سوف تتسبب فى ضياع حيازاتهم إلى الأبد (١٢١). على أن هذه التهديدات لا تنطلى على الجميع، وتعقيبات الجبرتى - بوصفه أحد الملتزمين - تؤكد ذلك؛ فهى بالنسبة لهم ليست سوى "تمويهات وخرافات .. وكلام كثير من بحر الغفلة" (١٢٢).

لقد تأكد للملتزمين أن مصالحهم باتت مهددة تماماً فى حال استمرار النفوذ الفرنسى بمصر، وعلقوا آمالهم على انتصار جيش التحالف، كفرصة أخيرة؛ تحفظ عليهم حيازاتهم وقراهم. ولم يكن ليخطر ببال أحدهم أن الفترة التالية سوف تضع نهاية حاسمة لمصير نظام الالتزام، وتغل يد الملتزمين عن الانتفاع بحيازة أراضيهم، وتدفع بهم نحو وضع اجتماعى مغاير تماماً لما كانوا عليه قبل عام ١٧٩٨.



يتضح مما سبق أن إدارة الجباية بـ "قرى الرعايا" لم تلق صعوبات وتحديات أقل مما واجه نظيرتها بـ "قرى الجمهور". وبات واضحاً للجميع صعوبة ترويض الريف، وخصوصاً فى الصعيد، على التجاوب مع الإدارة المالية التى لم تستطع تحقيق سيطرة فعلية على جميع الموارد الضريبية، وهو ما انعكس - سريعاً - فى تفاقم الأزمة المالية والتى وصلت إلى حد عجز الخزانة عن تأمين الاحتياجات الأساسية للجيش.

ومع فشل كل الاجراءات التى اتخذت، فى إطار البحث عن مخرج من الأزمة، والسى تزايدت وطأتها فى العام المالى الأخير (١٢١٥/١٨٠٠-١٨٠١) - لم يجد الفرنسيون من سبيل سوى الإطاحة بـ "الوسطاء" وبالنظام المالى الذى يشملهم، وإدخال تغيير جذرى يختزل المسافة الفاصلة بين المولين للضرائب والسلطة المركزية؛

بهدف تحقيق السيطرة على معظم الفائض . غير أن وصول العثمانيين والإنجليز حال بينهم وبين تحقيق هذه المرامي .

على أنه من الصحيح أن تجربة الاحتلال تركت أثراً عميقة على مصير "النظام الالتزام"؛ فالضربات التي تلقاها هذا النظام خلال السنوات الثلاث، وأهمها بالطبع إضعاف قوة الممالك، إلى أقصى حد، وهم الذين كانوا يستحوزون على ٣ / ٤ قرى الصعيد (و ٢ / ٣ قرى مصر) قد مهدت الطريق للإجهاد على ذلك النظام؛ حيث بات من المستحيل أن يستعيد الملتزمون وضعهم السابق قبل عام ١٧٩٨، وأضحى مستقبلهم أكثر غموضاً، والجبرتي يصفهم بأنهم أصبحوا "حيارى باهتين... لا يدرون عاقبة أمرهم" (١٢٣) .

وعلى الرغم من أن جباة الضرائب كانوا جزءاً من النظام القائم، إلا أن خبرتهم العميقة بالحسابات، واحتكارهم المحكم للمعلومات الدقيقة، وعلاقتهم القوية بالمولين للضرائب - قد جعل من الصعوبة بمكان التخلي عنهم أو تهملهم؛ فهم أدوات ضرورية لإدارة النظام المالي، ولكن مصالحهم تحدد، في الوقت نفسه، درجة تفاعلهم مع السلطة . وكان حرص "الأفندية" على استمرارية دورهم قد فرض عليهم ضرورة الحفاظ على "تراث الروزنامة"؛ إذ لم يفصحوا عن شيء ذي بال، وكل ما قدموه بالفعل، وفي ظروف صعبة وتحت ضغوط متواصلة، كان من قبيل العموميات . على أن مواطن احتكاك المسئولين الماليين بالمباشرين الأقباط كانت أكثر وضوحاً، وظلت العلاقة، طيلة السنوات الثلاث بالغة التوتر، وبسبب ذلك سوف نجد الفرنسيين يخوضون جولات صعبة في استكشاف عالم الروزنامة الحسابي، وهو ما يمثل لب الإشكالية التي يعالجها الفصل التالي .

هوامش الفصل الثالث

- (١) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٩ .
- (٢) نفسه
- (٣) حسين أفندي : المصدر السابق، ص ص ٢٨-٢٩؛ استيف : وصف مصر، مج ٥، ص ١٢١ .
- (4) Arrêté de Bonaparte, (14 dec . 1798), Corres., t.5, N^o 3759, pp. 209-210.
- ونجد بين ملاحق دراسة "الصاوي" المنشور العربي لهذا الأمر . راجع
- الصاوي : المرجع السابق، ملحق رقم (٦٩) .
- (5) Chevalier, M: op. cit, P.51.
- (٦) استيف : المصدر السابق، مج ٥، ص ٩٦ .
- (7) Tableau de l'impôt, pp. 1-2; Rapport sur les finances et les contributions de la province de Girgé par Morand, pp. 1-5.
- (8) Tableau de Petrucci, p. 6-7;
- استيف : المصدر السابق ، مج ٥، ص ٩٦، هامش (١)
- (9) Chevalier, M: op. cit, P.52;
- استيف : المصدر نفسه، ٩٧ .
- (١٠) حسين أفندي : المصدر السابق، ٣٤ .
- (١١) استيف : المصدر السابق، ص ١٠٩ .
- (12) Chevalier, M : op , cit, P.52.
- (13) Arrêté de Bonaparte. (14 déc . 1798), Corres., t.5, N^o 3759, pp. 209-210.
- (١٤) نشر "المويلحي" نموذجاً للإفراج الديواني الصادر باللغة الفرنسية في مقالته عن تسجيل الملكية زمن الاحتلال الفرنسي انظر :
- Ibrahim El Mouelhy : L'Enregistrement de la propriété en Égypte durant l'occupation française (1798-1801), Bulletin Institut d'Égypte, t. xxx, 1949, [197-228], p. 216.

(15) Corres., N^o 3759, pp. 209-210.

(١٦) لانكريه : وصف مصر، مج ٥، ص ص ٤٤-٤٥.

(17) El Mouelhy, I : op. cit, pp. 212-213 .

(18) Vincennes, B⁶81 : "ordre aux paysans d' El Djornous (de Bahnassa), (Le 29 Mars 1799) .

ونص التذكرة صادر بالعربية والفرنسية ويتوقع مصطفى أفندي وباليانو وتاليان .

(19) Vincennes, B⁶94 : "Ordre du Jour (Le 27 Jan.1799), Circulaires d'Estève Payeur général de l'armée d'orient, p. 122.

(٢٠) الصاوى : المرجع السابق، ملحق رقم (٧٠)

(21) Conseil d'administration, (20 oct . 1798), Corres ., t.5, N^o 3509, pp. 81-82; Arrêté de Bonaparte, (14 déc . 1798), N^o 3759, pp. 209-210.

(22) Peyrusse, A : op. cit., p. 475.

(*) الناحية : وحدة مالية تضم عدداً متفاوتاً من القرى والكفور قد يصل الى ١٥ قرية، وتسمى الناحية عادة باسم القرية الرئيسية Le village principal انظر :

Peyrusse, A: op.cit 413;

- جيرار : وصف مصر، مج ٤، ص ١٥٩ .

(٢٣) لدينا نموذجان مما قدمه المعلم جرجس الجوهري من قوائم الميرى الأول قدم للمجلس الإدارى بمقر قيادة بونايرت، والثانى رفع لمدير المالية بوسيلج بأمر من بونايرت . انظر :

Etat des contributions en Conseil d'administration, (20oct.1798), Corres., t.5, N^o3509, pp.80-82; grains des villages de la province de Girgé, rédigé par l' Intendant général, (22 Jan. 1799).

المكتبة المركزية - جامعة القاهرة، حافظة (196) ملف (V111-q)

(24) Vincennes, B⁶161 : "Reynier à Tallien, (14 déc. 1799) .

وسوف يتم معالجة هذه المسألة على نحو يوضح أبعادها فى الفصل الخامس .

(25) Vincennes, B⁶81 : Le divan du Caire à Kléber, (5 oct. 1799).

الشكوى صادرة باللغتين العربية والفرنسية . وتخص أهالي ناحية "أبو جرج" بولاية
البهنساوية .

(٢٦) يلاحظ أن خمس عشرة قرية تسحب فلاحوها من إجمالي ثلاث وثلاثين قرية بإسنا، على
حين نجد نحو خمس قرى فقط في إقليم قنا من إجمالي ثلاثين قرية . انظر:

Tableau général des Villes et Villages de la province d'Esné; Tableau
général du montant des contribution de la province de Thêbes. (17 Juin
1799).

- المكتبة المركزية _ جامعة القاهرة، حافظة (186).

(27) La Jonquière: op. cit, p. 558.

(٢٨) إن إعراب الفرنسيين عن مخاوفهم من مبالغة العثمانيين في تصوير فشل احتلال سوريا
للفلاحين، ليؤكد على تمكن العثمانيين، فضلاً عن الممالك، من الاتصال بالقرى . وسوف
نجد محكمة إسنا الشرعية تسجل إحدى المنشورات العثمانية التي وُزعت على أهالي القرى .
انظر :

Zayonchek à Dugua, (12 Juin 1799), Polonais, p. 258;

- دار الوثائق : محكمة إسنا الشرعية (إشهادات)، ص ٥١، ص ٢٨٤، م ٦٧٦ .

(29) Denon, V : op . cit, p 118 .

(30)Zayonchek à Boyer, (27 Juin 1799), Polonais , p. 273.

(31)Vincennes, B⁶161 : Reynier aux administrateurs des Domaines, (30 Déc.
1799) .

(٣٢) هنري لورنس : المرجع السابق، ص ٣٧٣؛ أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون في القاهرة،
ص ٢٩٢ .

(٣٣) أندريه ريمون : المرجع السابق، ص ٢٩٢ .

(٣٤) الصاوي : المرجع السابق، ملحق رقم (٧٠)

(35)Bonaparte à Poussielgue, (12 août 1799), Corres., t.5,N^o 4345 ,pp.555-556

(36)Vincennes, B⁶ 28 : Poussielgue á Bonaparte, (6 août 1799) .

(٣٧) يلاحظ ذلك بوضوح تام في آخر تقرير له عن مصر؛ حيث نجده يشير إلى أنه غادر مصر وهي في غاية التنظيم والرخاء في حين أن كل شيء في مالية البلاد كان ينطق بعكس ذلك تماماً !!
انظر :

Bonaparte au Directoire exécutif, Aix, (10 Oct. 1799), Corres., t.5, N^o 4382, pp.578-579.

(٣٨) الجبرتي : مظهر التقديس، ص ١٥١؛ عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٣٣ .

(٣٩) كان أول إعلان عن السماح للفرنسيين ولغيرهم بدخول مجال استعمار الأراضي بالالتزام قد نشر في صحيفة "كورييه" انظر :

- كورييه دي لييجيت، العدد (٩) (١٠ فاندميز سنه ١ / ٧ أكتوبر ١٧٩٨)، ص ٢٦.

(40) Vincennes, B⁶ 28 : Estève à Dugua, (12 août 1799) .

(41) Dugua à Lanusse et à Destaing, (15 août 1799), La Jonquière, t.5, p. 548,

Note (2) .

(42) Dallonville à Poussielgue, (13 août 1799), La Jonquière, t.5, p. 548, Note

(2) .

- أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون، ص ٢٩٢ .

(43) Bonaparte à Poussielgue, (12 août 1799), Corres., t. 5, N^o 4345, pp. 555-556.

(44) Kléber à Poussielgue, (2 sept. 1799), (3 Oct. 1799), (7 Déc. 1799), Klé..., t. 3, pp. 12, 121-122, 288.

(45) Ordre du jour, (18 sept. 1799), Ibid, t.3, pp. 78-79; Kléber et Menou..., pp. 52-53.

(46) Ordre du Jour, (28 avril 1800), Ibid, t.4, pp. 850-854; Kléber et Menou..., pp. 273-277.

(*) حسن طوبار : كان شيخا على بلدة "المنزلة"، واحتكرت أسرته مشيخة البلد لأربعة أو خمسة أجيال؛ حيث كانت لهم عصبية كبيرة وتأثير واسع النطاق على الأهالي، وقد قاوم الفرنسيين،

غير مرة، واستبسل في مواجهتهم واحتشدت خلفه أعداد غفيرة لا حصر لها ، ولمزيد من التفاصيل حول دوره في مواجهة الفرنسيين. انظر :

عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج ١، ص ص ٣٢٨-٣٢٩، ٣٤٠-٣٤٧.

(47) Kléber à Chanaleilles, (22 Mai 1800), Klé ..., t.4, p. 914 .

(48) Kléber au Payeur général, (22 mai 1800), Ibid, t. 4, p. 916.

(49) Vincennes, B⁶ 94 : "Ordre du Jour (28 Nov. 1799), Circulaires d' Estève ..., p. 261.

(50) Peyrusse, A : Op. Cit, P. 473; Vincennes, B⁶ 183 : Poussielgue à Desaix, (23 août 1799) .

ويوضح بوسيلج لذيذه بأن أقاليم مصر السفلى سددت ضرائبها كاملة عن عام ١٢١٣ هـ (*) حسين أفندي : ليس لدينا معلومات كافية عنه، وإن كنا نعرف من دفاتر الترايع أنه كان "محاسبجي"؛ أي قائم على "قلم للحاسبة" بالروزنامة، ومن ثم كان مسئولاً عن ضبط قطاع المصروفات المالية . وكان له هيئة مكتبية من خمسة أفندية يساعدونه في حساب المصروفات . ويبدى شفيق غربال شكه في أنه هو "حسين أفندي" نفسه الذي تقلد الروزنامة في عهد محمد علي . انظر :

دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية منفلوطية لسنة ١٢١٥ (١٨٠١)، سجل رقم ٢٢٧٨؛ حسين أفندي : المصدر السابق، ص ص ٥-٦، ٢٩ .

(51) Vincennes, B⁶ 183 : Poussielgue à Hussein Effendi, (12 sept. 1799) .

وتشير المراسلة إلى ضم حامد أفندي إلى إدارة حسين أفندي .

(٥٢) دائماً ما كان يلقب بهذا المسمى في كل المراسلات الموجهة إليه . انظر على سبيل المثال :

Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Hussein Effendi des Multésimes.

(٥٣) ثمة تقرير نادر بوئاتق فانسان ، صادر باللغة العربية، حرره حسين أفندي ويحمل توقيعهم وخاتمه. انظر :

من حسين أفندي كاتب الميرى الى رينيه المحصل الرئيسى للدخول الطبيعية" بتاريخ ١١ ديسمبر ١٨٠٠ :

Vincennes, B⁶ 162

(54)Memorandum of Individuals That Have been forced to serve the French by

John Keith, Cairo (17 Fev. 1800). Dans : Klé i, t. 4, p. 688.

(55) Ordre du jour,(12 Juin 1800), Ibid, t.4, pp. 967.

(56) Peyrusse, A : op. Cit., p. 470-472.

(57)Vincennes, B⁶ 162 : Reynier à Hussein Effendi des Multésimes.

(58)Vincennes, B⁶ 81 : Multésimes des Provinces de l'Haute - Égypte pour L'an
1214.

(٥٩) حسين أفندى : المصدر السابق، ص ٣٤ .

(60)Vincennes, B⁶ 81 : Recettes du Miri Multézimes par Hussein Effendi (Fev.
1801), .

(61)Vincennes, B⁶ 162 : Reynier à Husein Effendi des Multésimes, (17 Oct.
1800).

(62)Vincennes, B6 82 :

قائمة مياركة .. بعلم ثمن الأغنام والغلال المبيع بالفيوم فى عهد مباشرين الولاية لسنة

١٢١٤هـ

B⁶ 161 : Reynier à Poussielgue, (3 Oct. 1799) .

(٦٣) كان " شو " من بين من اختلط عليهم الأمر وتصوروا أنه تولى الروزنامة فى فترة الاحتلال

الفرنسى . راجع :

Shaw,J.S : op. cit., P.179.

(٦٤) حسين أفندى :المصدر السابق (مقدمة التحقيق لـ " شفيق غريال ") ، ص ٥ .

(٦٥) لعل مراسلات رينيه (الوكيل المالى بالدائرة الثانية : الفيوم _ بنى سويف والمتبا) توضح ذلك

Vincennes, B⁶ 161 : Reynier aux administrateurs des Domaines, بجلاء انظر :

(30 Déc. 1799); à Tallien, (31 Déc. 1799); B⁶ 162 : Reynier à Lapanouse,

(30 Jan. 1801) .

(66)Vincennes, B⁶161

"مجموعة وثائق عربية مفردة " ونجد بينها " إقراراً شرعياً بتسليم الغلال " بتوقيع " حسن هاشم أفندي ناحية الغايات بولاية البهنساوية .

(67)Vincennes B⁶ 82 :

"ديوان مدينة القيوم إلى صارى عسكر الجمهور الفرنساوى حاكم الولاية البهنساوية والقيومية (١٢١٤ / ١٧٩٩ - ١٨٠٠)

(68)Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Poussielgue (14 Oct. 1799) .

(69)Vincennes, B⁶ 162 : Reynier à Moallem Mikaël, à Beni - souef, (17 Oct. 1800) .

(٧٠) توجد إيصالات عديدة باللغة العربية تؤكد ذلك . انظر :

Vincennes, B⁶ 81 :

(٧١) لانكريه : وصف مصر، مج ٥، ص ٤١؛ استيف : نفس المصدر والمجلد، ص ص ٢١٢-٢١٣ .

(٧٢) دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية المنفلوطية، لسنة ١٢١٥ (١٨٠٠ - ١٨٠١) ، سجل رقم ٢٢٦٥ .

(73)Gloutier à Reynier, (24 Jan. 1800) . 1799) .

دار الوثائق : محافظ الحملة الفرنسية، محفظة رقم (٦) ملف (١٩) ورقة (١٣) . ومن الجدير بالذكر أن جلوتييه كان قد تولى منصب مدير المالية خلال فترة تغيب بوسيلج في مفاوضات العريش .

(74) Zayonchek à l' Adjudant - Général Boyer, (25 Juin 1799), Polonais , p. 271 .

وحملت رسالة زايونشيك نص الأمر الذى أصدره مدير المالية بوسيلج إلى الوكلاء الماليين بالصعيد .

(75)Vincennes B⁶ 82 : Quittance de Michaël Matta .

إيصال من ميخائيل متى مباشر إقليم بنى سويف بما وصله من ميرى الملتزمين بمنشأة الأمرى .

(76) Vincennes, B⁶ 81 :

رسالة مباركة تضمن علم ما حمل من الغلال الميرى عن سنة ١٢١٣ "محررة بمجلس الشرع الشريف بناحية يبا الكبرى بولاية البهنساوية . كذلك توجد نماذج عديدة بالمحاكم الشرعية .
انظر على سبيل المثال :

دار الوثائق : محكمة متفلوط الشرعية، س. ٤، ص. ٦٠، م ١٩٣ (١٢ صفر ١٢١٤) .

(77) Peyrusse, A : op. cit., p. 465 .

(78) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Hussein Effendi, (17 Oct. 1800).

(٧٩) انظر الفصل الرابع .

(٨٠) انظر الفصل الخامس .

(81) Ibid;

وثمة تقرير واف يوضح التزام حسين أفندى بالتوجيهات التي كلف بتنفيذها انظر:

Vincennes B⁶ 81 : Multésimes de la Haute - Égypte pour l'an 1214 .

(82) B⁶ 162 : Reynier à Hussein Effendi des Multésimes, (8 déc. 1800).

(*) أفندى المحاسبة : هو أحد أفندية الروزنامة، وكان مختصاً بتنظيم حسابات المصروفات التي تتفق بتنظيم حسابات المصروفات التي تتفق على المنشآت العامة وعلى شراء سلع معينة للمطبخ السلطاني، بالإضافة إلى تنظيمه لحسابات الصرة الشريفة وجرايات أهالي الحرمين . انظر حسين أفندى : المصدر السابق، ص ٢٩ .

(83) Vincennes B⁶ 82 :

مرسلة من حسين أفندى إلى رنيه (١١ ديسمبر ١٨٠٠)

(84) Ibid.

(85) Peyrusse, A : op. cit., p. 472-473.

(٨٦) كان المفترض أن تكون الحصيلة الإجمالية على الـ ٢٤ قيراطاً (١٣١٦ إردباً من الحبوب) ؛

أى ما يعادل (١٦٦.٤٩ بارة) فقط !!

انظر :

— دار الوثائق : دفتر ترابيع ولاية الأشمونين، لسنة ١٢١٣، سجل رقم (٢٢٦٤) .

- (87)Vincennes, B⁶ 81 : Compte donné en arabe par Mikaël Matta.
- (88)Vincennes, B⁶ 81 : Multésimes des Provinces de Benissouef, Miniet, Girgé, Syout et Atfiely .
- (89)Vincennes, B⁶ 82 :
مراسلة من حسين أفندي إلى رينيه (١١ ديسمبر ١٨٠٠) .
(٩٠) انظر الفصل الرابع .
- (91)Vincennes, B⁶ 47 : (3 Juillet 1800); Rigault, G : op. cit., pp. 244-248 .
(٩٢) حسين أفندي : المصدر السابق، ص ٣٢ .
- (93)Peyrusse, A : op. cit., p. 473;
ووفقًا لبيروس كان إجمالي حصيلة الضرائب العينية من الفلال في السنة الرغدة يصل إلى
٦٤٧ , ٨٣٠ إردبًا.
(٩٤) فاطمة الخمراوي : المرجع السابق، ص ٣٠٣
(٩٥) هنري لورنس : المرجع السابق، ص ٥٤٧ .
- (96)Vincennes, B⁶ 54 : Mémoire d'un Fonctionnaire français à Donzelot, à thebès (Kéna), (8 Oct. 1800); Rigault, G : op. cit., p. 248 .
- (97) Denon, v. : op. cit, p. 116.
- (98)Vincennes, B⁶ 59 : Quelques idées sur l'Égypte par Tousard (31 Déc. 1800).
- (99)Rigault, G : op. cit., p. 250.
- (100) Ibid, pp. 250-251;
هنري لورنس : المرجع السابق، ص ص ٥٢٨ - ٥٢٩ ؛ ٥٤٦ - ٥٤٨ .
- (101) Proclamation de Menou aux habitants de l' Égypte, (28 Oct. 1800) .
نسخة أصلية من المنشور الصادر باللغتين العربية والفرنسية المكتبة المركزية _ جامعة القاهرة،
محفوظة (٢١١)؛
محمد بن يوسف جوريجي جمليان هياتم : صور القرمانات الصادرة من أمراء الفرنسية في مصر

في مدة الثورة، مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات العربية، رقم ١٠٠ تاريخ - سوهاج، ورقة ٢٨ بـ ٢٩ أ؛ ونشر بصحيفة "كورييه دي ليجيت" العدد (٨٧) ص ص ٣٢٤-٣٢٧.

(١٠٢) يعد تقرير "توزار" من أكثر التقارير أهمية في مناقشة أسباب انخفاض الكثافة السكانية في الريف وآثارها السلبية على تقلص المساحات الزراعية في الصعيد . انظر :

Vincennes, B⁶ 59 : Quelques idées sur l'Égypte par Tousard, (31 Déc. 1800) .

(١٠٣) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٨ . (يومية ٩ رجب ١٢١٥ / ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠) .

(١٠٤) يقول الجبرتي : " فكتب لهم (الملتزمون) عرضحال في شأن ذلك، وأرسل إلى ساري عسكر ولم يرجع جوابه ... " المصدر نفسه .

(105) Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Lapanouse, (30 Jan. 1801).

(١٠٦) الجبرتي : عجائب الآثار ، ص ٢٢٩ (يومية ٢٢ رجب ١٢١٥ / ٩ ديسمبر ١٨٠٠) .

(107) Vincennes, B⁶ 58 :

عرض حال من الوجاقات السبعة ومن كامل أعيان الملتزمين ومن بعض الحريمات الملتزمين خطاباً إلى حضرة مديرين الديوان العمومي " وتم ترجمة العريضة إلى اللغة الفرنسية لعرضها على القائد العام "مينو" وجاءت تحت عنوان :

Pétition de la part de sept Corps militaires de tous les seigneurs et Dames propriétaire des villages en Égypte au Grand Divan du Caire, (15 déc. 1800) .

وقد أدرج الجبرتي في يومياته مضمون هذه الشكوى . انظر :

الجبرتي : عجائب الآثار ، ص ٢٢٩ (يومية ٢٧ رجب ١٢١٥ / ١٤ ديسمبر ١٨٠٠) .

(١٠٨) يوضح الجبرتي بأن "فردة الملتزمين" جعلت الناس "سكاري حيارى" ؛ لأنها - على حد تعبيره - "من أعظم الدواهي المغلقة ونكسات الحمى المطبقة" . عجائب الآثار ، ص ٢٢٤ .

(١٠٩) نفسه، ص ٢٢٩ .

(١١٠) مما جاء في المنشور : "هل وجدتم نصاً في القرآن يؤيد هذه الممارسات المشينة ؟ إنني أجده دائماً ما يبحث على الإحسان على الفقراء، ويدعو إلى مساعدة المكروبين، وأن يقاسم الأغنياء

في شرائهم الفقراء ... " . انظر :

Proclamation de Menou .., (22 déc. 1800), Dans : Pièces officielles de L'armée d' Égypte, Paris an IX (1801), t.2, pp . 489-493.

(١١١) الجبرتي : المصدر السابق، ص ٢٣٠ .

(١١٢) وفقاً لسكرتير المالية (بيروس) كانت هذه الفكرة من بين بنات أفكار مدير المالية الجديد "استيف" . انظر :

Peyrusse, A : op. cit., p. 494.

(١١٣) يرد في الجبرتي نصاً يتعلق بالتزام العوائد المقررة على طوائف الحرف والمتسبين بالأسواق، ومنه يتضح أن الفرنسيين، في التوقيت ذاته، ضموا هذه العوائد لخزانة الجمهور؛ نظير تعويض أربابها بمرتب معين يسدد إليهم في نهاية كل شهر . انظر :

المصدر نفسه، ص ٢٣٠ (يومية ٢٦ رجب ١٢١٥ / ١٣ ديسمبر ١٨٠٠) .

(114) Ordre du Jour (20 Jan. 1801), Kléber et Menou .., pp. 382-393 .

(115) Art . 6, 8, 21, 22.

(116) Art .3, 4, 6, 8, 27, 28; Peyrusse, A : Op. Cit., p . 492 .

(117) Art . 27

(118) Peyrusse, A : Op. Cit., p . 494 .

(119) Art . 14-18

(120) Peyrusse, A : op. cit., p . 492;

- وكان "بوفيلو" (الموظف بالإدارة المالية للصعيد) من بين من نهوا القائد العام "مينو" عن الممارسات المشينة التي ارتكبت في بيانات مساحة أراضي الصعيد، وذلك قبل أن يقدم المباشرون الأقباط دفاتر الترايع . انظر :

Buvelot à Menou, (15 sept. 1800) .

(١٢١) كورييه دي ليجيت، عدد رقم (١٠٧)، ص ص ٣٩٥-٣٩٦؛

Rigault, G : op. cit., pp. 258-259 .

(١٢٢) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ٢٥٥ . (يومية ١٢ ذي الحجة ١٢١٥ / ٢٦ أبريل ١٨٠١) .

(١٢٣) أشار الشيخ حسن العطار (وكان في أسبوط) في رسالته إلى الجبرتي، وقد دونها الأخير في يومياته، إلى أنه من بين من ضربهم الطاعون بقوة جماعة الملتزمين فضلا عن الفلاحين، حتى لقد تعطل الحصاد في قرى عديدة. انظر:

الجبرتي: المصدر نفسه، ج٣، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(١٢٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص ص ٢٨٧-٢٨٨.

(١٢٥) نفسه، ج٣، ص ص ٢٥٦، ٢٨٨، ٢٨٩.

(١٢٦) نفسه، ج٤، ص ٢٣٦ (حوادث جمادى الأولى ١٢٢٩ / أبريل - مايو ١٨١٤).

الفصل الرابع المباشرون الأقباط وإدارة الجباية

تلاحقت الهزائم بالماليك فى كل من شبراخيت وإمبابة ، بعد سقوط الإسكندرية فى ٣ يوليو ١٧٩٨ ، فى الوقت الذى كان القائد العام "بونابرت" يرأس فيه كل الجماعات التى لها صلة بالسلطة المملوكية وبشئون إدارة البلاد، وخاصة تلك التى كانت تحظى بثقة الأهالى . وحينما داهم الفرنسيون القاهرة (فى ٢٣ يوليو) بات الموقف أكثر صعوبة؛ إذ كان على الجميع أن يحدد موقفه سريعاً. ولما كان "المباشرون" الأقباط أكثر من غيرهم ارتباطاً بالبيوت المملوكية؛ حيث كانوا يديرون حسابات ممتلكاتهم العقارية، ومجمل أنشطتهم المالية - قد تعين عليهم أن يحسموا أمرهم قبل السلطة الجديدة التى عرضت عليهم الأمان ودعتهم للعمل معها.

ومن المؤكد أن الموقف كان عصياً ومحيراً، ليس من جراء ضيق الوقت المتاح لبلورة رؤية شاملة للمسألة، وإنما - كذلك - بسبب تناقض الاتجاهات التى قد لا تسمح بموقع وسط للمالأة الجميع، وتحتم، من ثم، العمل مع سلطة واحدة، خاصة وأن البيانات الأولى للغزو الفرنسى كانت تعلن عن شروعها فى تفويض النظام المملوكى ومصادرة كل ممتلكاته^(١)، وهو ما كان يمس بشكل مباشر مصالح جماعة المباشرين؛ ولذلك لم يكن ليماطل "المعلمون الأقباط" القيادة الفرنسية طويلاً، حيث انتهى بهم الأمر إلى قبول عرض بونابرت : فهل كان إقدامهم على هذا القرار يمثل نوعاً من المغامرة؛ بغية حفاظهم على استمرارية تواجدهم فى إدارة مالية البلاد، أم تجاوز الأمر حدود مصالحهم المباشرة، وحمل رؤية خاصة فى قراءة الواقع السياسى، وفى التحسب لتقلباته المفاجئة؟ ومن جانب آخر هل أتاح إلحاقهم بالإدارة الفرنسية ممارسة دورهم بالكيفية نفسها التى كانوا عليها قبل مجيء الحملة، أم وُضِعَتْ قيود معينة اختزلت هامش الحركة، وجعلت من المباشرين مجرد أدوات ضرورية جرى تطويعها؛ لإحاطة الجانب الفرنسى بالحقائق الضريبية والإدارية للبلاد؟ إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات سوف تساعدنا على فهم طبيعة الدور الذى أدته جماعة المباشرين فى إدارة الجباية، وعلى تحليل مجمل

العلاقات التى ربطتهم بالمستولين الفرنسيين. ويتم التناول على محورين أساسيين؛ الأول: يتعلق بشكل التنظيم الذى ضم المعلمين الأقباط فى إدارة الجبابة، والثانى: يقوم على تتبع مراحل تطور العلاقة بين الجانبين.

أولاً: المباشرون الأقباط والبنية التنظيمية لإدارة الجبابة

اتجه بونايرت، بعد احتلاله للقاهرة، إلى التصدى لتنظيم إدارة الجبابة، لأجل تحقيق السيطرة على الموارد المالية، وحرمان القوات المملوكية من تلقى أى دعم يساعدها على استمرار المقاومة للغزو الفرنسى. وكان أول إجراء اتخذه فى هذا الصدد، متمثلاً فى تكليف المباشرين الأقباط بجبابة الضرائب من الأقاليم التى يتم احتلالها^(٢)، وتبدو حصيلة اطلاعه على مجمل التطورات الأساسية التى مرت بها الإدارة المالية، عبر العقود الأخيرة السابقة على مجيء الحملة، والتى غالباً ما كان تقرير "فولنى" أحد مصادره المهمة فى ذلك^(٣) - من بين البواعث الرئيسية فى توجهه المباشر إلى الاستعانة بالمعلمين الأقباط، على وجه الخصوص؛ ذلك أن الجبابة فى مصر كادت تمثل تخصصاً طائفاً قاصراً عليهم، ولاسيما منذ ارتباطهم بإدارة حسابات "شيخ البلد" الذى آلت إليه السيطرة، منذ من عهد على بك الكبير، على إدارة الالتزامات الضريبية بشكل عام. ولعل هذا ما أكسبهم دراية وخبرة، أكثر من غيرهم، بالتغيرات الأخيرة الطارئة على المعدلات الضريبية ومسمياتها وخريطة التوزيع الجغرافى للالتزامات وللأراضى المعفاة من الضرائب^(٤). ويضاف إلى ذلك حالة القلق والخاوف التى انتابت الإدارة الفرنسية من أن يؤدى عدم إحاطتها بالجبابة الأقباط إلى حدوث فوضى فى تحصيل الإيرادات، ولعل هذا ما عناه سكرتير مالية الحملة بيروس Peyrusse عندما أكد بأن استعادة إدارة التحصيلات، بكامل موظفيها القدامى، كان بهدف "إيجاد وسيط تقليدى قديم يجمع بين المباشرين (المنتشرين بالأقاليم) وبين الإدارة المالية الجديدة"^(٥) وعلى ذلك لم يجد "بونايرت" مناصاً من الدفع بهم إلى استعادة دورهم التقليدى فى إدارة الجبابة.

على أن الأمر لن يسلم إلى طائفة المباشرين بالكيفية التى كانوا عليها قبل مجيء الفرنسيين؛ إذ اتجه بونايرت إلى وضع وكيل فرنسى Agent français بجانب كل مباشر قبلى؛ حتى يراقب سلوكه، ويتابع حساباته ويصبح ذا دراية عميقة بعبادات البلاد ولغتها^(٦).

ويُجرى بونابرت تعيين كبير الأراخنة "جرجس الجوهري" أميناً عاماً لإدارة الجباية في كل الأقاليم بمصر، على نحو ما كان عليه في زمن مشيخة البلد المملوكية. وتمتد، من ثم، سلطته على سائر المباشرين الأقباط، باعتبار الأواخر موظفين رسميين خاضعين لتوجيهاته وأوامره؛ وذلك بهدف إحكام السيطرة على إدارة الجباية^(٧). وبداية كلف المعلم "جرجس الجوهري" بتقديم قائمة بأسماء من يتم اعتمادهم من بين أبرز الأمناء الأقباط، وتوزيعهم على مختلف الأقاليم^(٨) كما أصبح منوطاً به تنظيم قوائم القرى ومكلفاتها الضريبية، فضلاً عن إحاطة الإدارة المالية بالإجراءات المتبعة لـ *Les formalités d'usage* في مخاطبة ممولى الضرائب^(٩)؛ لأجل حثهم على التفاعل الإيجابي مع المسئولين الماليين. كذلك تم تشكيل لجنة قبطية خاصة، أطلق عليها "لجنة المباشرين الأقباط الخمسة" *Commission de cinq intendants généraux cophtes* والتي ضمت كلاً من المعلم جرجس الجوهري (بوصفه رئيساً لها)، والمعلم يعقوب حنا، والمعلم أنطون أبو طاقية، والمعلم فلتاءوس، والمعلم ملطى. ولهؤلاء الأعيان الكبار من القبط كلمة قوية على سائر المباشرين الأقباط ومرءوسيههم بالقرى والنواحي، ومن ثم كلف كل منهم بمساعدة المعلم جرجس الجوهري في تنظيم المباشرين ومرءوسيههم بالأقاليم، وفي توزيع الضرائب وتحصيلها^(١٠).

واتسقت عملية توزيع المعلمين الأقباط والوكلاء الفرنسيين مع حركة السيطرة العسكرية على الأقاليم، وإلى هذا السبب يرد إتمام تنظيم الإدارة المالية بأقاليم الدلتا قبل الصعيد بنحو نصف عام تقريباً؛ إذ لم تتحقق السيطرة الفرنسية على كافة أقاليم الوجه القبلى قبل الثانى من فبراير ١٧٩٩، وهو التاريخ الذى أُعتبر بداية التقويم الحقيقى لتحرير قوائم تحصيل الضرائب بالصعيد^(١١). وكانت فترة الغزو (سبتمبر ٩٨ - فبراير ١٧٩٩) قد وافقت موسم جباية القسط الأخير من حساب مالية عام ١٢١٢ (٩٧-١٧٩٨)، والقسط الأول لجبايات عام ١٢١٣ (٩٨-١٧٩٩)، والتي اضطرت، من جراء السباق المحموم على تحصيلها بين ممالك مراد بك والطواوير العسكرية الفرنسية، وكان ذلك سبباً في اتجاه القيادة العامة لحملة الصعيد إلى الاستعانة بكل المباشرين وأتباعهم من الكتبة والصيارفة، ممن صادفهم بالأقاليم، وجرى اعتبارهم "أمناء مؤقتين"^(١٢) *.Intendants cophtes provisoires*.

وكان قد تأكد للفرنسيين - خلال هذه الفترة - ضرورة استدعاء قدامى المباشرين والكوادر القبطية المرءوسة لهم؛ حيث كان الفلاحون، يرفضون دفع الضرائب إلا فى حضورهم^(١٣). ووفقاً لهذا اتجه الجنرال ديزيه إلى تكليف المعلم يعقوب، بوصفه المباشر العام للصعيد L'intendant général de la Haute-Égypte، بتنظيم هؤلاء الكتبة الأقباط^(١٤)، وعبر تقارير الضرائب والمراسلات المتبادلة بين المسؤولين الفرنسيين أو بينهم وبين المباشرين الأقباط تبين أن الصعيد كان قد توزعت أقاليمه الرئيسية على خمسة مباشرين : المعلم إبراهيم الخلفاوى (بولاية الفيوم)^(١٥)، والمعلم برسوم (بولاية البهنسا)، والمعلم يعقوب حنا (بولاية الاشمونين)^(١٦)، والمعلم مينا (بولاية طيبة "قنا - إسنا - جرجا")^(١٧) وأخيراً المعلم بقطر (بولاية المنفلوطية)^(١٨). وعلى ما يبدو فُرض كل مباشر منهم بتنظيم سائر الكتبة والصرافين بالقرى والنواحي^(١٩) داخل محيط كل إقليم من هذه الأقاليم الخمسة، بحيث يتم تقديم قائمة بأسمائهم، يُحدد بها النواحي التى يتولون عهدها، وتقوم الإدارة المالية بالقاهرة، بإصدار "إجازة" un brevet لكل منهم^(٢٠) على نحو ما كان سائداً قبل مجيء الاحتلال الفرنسى، حيث كانت الإجازة تحدد بمدة سنة خراجية واحدة^(٢١)، وخلالها يصبح سائر الكتبة الأقباط فى ضمانه مباشر الولاية الذى يتحمل مسئولية كل خطأ أو نقص فى الإيرادات المحصلة^(٢٢).

وكان من البديهي أن يمتد الاحتفاظ بقدامى المباشرين وبالكتبة الأقباط إلى اعتماد بنية التنظيم السائد داخل كل الوحدات المالية الإقليمية، والقائمة على أساس هيراركى : فالإقليم يتولى إدارة حساباته "مباشر الولاية"، يتبعه عدد من "الوكلاء الأقباط" المكلف كل منهم بحسابات مقاطعة أو ناحية واحدة، وفى أسفل السلم الهرمى يأتى دور "العامل القبطى"^(*) الذى يُنَاط به القيام بالجباية من كل قرية بالناحية^(٢٣). وقد يتزايد عدد "العمال الأقباط" بحسب الاتساع الجغرافى للقرى المشكلة للناحية^(٢٤). وحينما كان "العامل" يجد نفسه فى حالة لا تمكنه من الوفاء بمتطلبات التحصيل، فإنه يعهد بجزء من مهامه إلى مرءوسين له يسمون "قباض" qoubâd يحصل هو منهم على جباياتهم، وينظم لهم حساباتهم، بحيث تندرج حركتهم ضمن حركته^(٢٥).

وتقتضى المهام المنوطة بمباشر الإقليم أن يحصل الجبايات من "العمال الأقباط"، ويجرى تحرير قوائم دقيقة بها، ويحصر عدد الأفدنة وأسماء النواحي والقرى (٢٦) ولما كان مباشر الإقليم مرءوساً للمعلم جرجس الجوهري، (المباشر العمومي)، فقد تعين أن يوافق الأخير بكل هذه القوائم، وأن يتلقى منه الأوامر والتعليمات، وأن يتبادل معه المراسلة - مباشرة - فى كل ما تعلق بإدارة الجباية ومصرفاتها الخاصة بدائره الإقليمية (٢٧) وعلى ذلك اتخذت العلاقة بين الجانبين شكلاً من أشكال التبعية أو المسئولية الإدارية.

وبالكيفية نفسها، وعلى المستوى الأعلى من العلاقة بين كبير المباشرين والإدارة المالية الفرنسية، جرى إخضاع الأول لرقابة ومتابعة فرنسية دعوب، من خلال ما سُمى بـ "مجلس الإدارة" Conseil d'administration الذى أنشأه بونايرت فى ١٤ أكتوبر ١٧٩٨، وقصر عضويته على "مدير المالية" L'administrateur des finances والمنظم العام للصرف Lordonnateur en chef بالإضافة إلى جرجس الجوهري نفسه. وكان قد تحدد انعقاده، بصفة يومية، بالمقر العام للجنرال بونايرت (٢٨). وإذا كانت الإدارة المالية، منذ البداية، قد اعتمدت المعدلات الضريبية السائدة، دون تغيير (٢٩)، فقد صار من المتعين على كبير المباشرين رفع التقارير، بشأن ما يجرى طلبه من معلومات أو بيانات تخص قوائم الضرائب المستحقة على كل الأقاليم، أمام هذا المجلس (٣٠).

وعلى ضوء ما تقدم يلاحظ أن جماعة المباشرين استعادوا مواقعهم، كمحصلين للجباية وكمسؤولين عن تنظيم قوائمها الحسابية، وفقاً لما كان سائداً قبل مجيء الاحتلال. والفارق الجوهري يظل متمثلاً فى أنهم صاروا يعملون فى إطار إدارى، بوصفهم موظفين رسميين، خاضعين لرقابة فرنسية، بعد أن كانوا يعملون بدوائر الملكيات الخاصة التى بلغ الارتباط بأربابها أنهم كانوا يُكنون بأسمائهم (٣١). على أن ذلك لم يعن أن الإدارة المالية الفرنسية قد تعاملت مع المباشرين بصفتهم أفراداً، وإنما تعاملت - منذ البداية - من خلال "جرجس الجوهري" نفسه، باعتباره سرئساً للكتاب "الأقباط". وبعبارة أخرى، فرض التنظيم القبطى على الفرنسيين ضرورة التعامل مع المباشرين بوصفهم "جماعة"، وسوف تمثل هذه الحقيقة لب إشكالية العلاقة الإدارية التى ربطت المعلمين الأقباط بالجانب الفرنسى.

ثانياً : تطور علاقة المباشرين بإدارة مالية الصعيد

غلف الغموض كل شيء في النظام الضريبي والمالي، ووجد الفرنسيون أنفسهم في حاجة ماسة إلى بذل جهد، غير عادي؛ للحصول على المعلومات التي يصعب بدونها السيطرة على الموارد وإدارة مالية البلاد ككل. وإذا كان المباشرون على وعى تام بخطورة الإفصاح عن أسرار مهنتهم، فإن الرؤية بالنسبة للجانب الفرنسي، اتسمت بالضبابية الكثيفة. وبقدر ما كان يمكنهم رصد من معلومات وبيانات، بقدر زيادة معرفتهم بمصادر جديدة للإيرادات. وبداية كان لذلك تأثيره على شكل العلاقة بين الجانبين. وسعيًا إلى فهم أعمق للعوامل التي كانت تشكل مضمون هذه العلاقة التي مرت - رغم قصر المدة الزمنية - بأطوار مختلفة، يتعين أن نتناول أبرز المشكلات والمصادمات شبه اليومية التي كانت موطناً للاحتكاكات المستمرة. ولما كان الفرنسيون مضطرين إلى متابعة فترات الفيضان التي تحدد الدورات الزراعية، ومن ثم أقساط جباية الضرائب - فإنهم اعتمدوا تنظيم الميزانية وقوائم الحسابات وفقاً للتقويم القبطي للسنة المالية التي تبدأ في شهر توت (سبتمبر) وتنتهي مع بدء صعود الفيضان بين شهري بؤونه وأبيب (يونيو - يوليو). وإذا كانت المحصلة المعرفية تتجلى نتائجها، على نحو بين، في نهاية كل سنة مالية، فإن الإدارة الفرنسية كانت تولى اهتماماً ملحوظاً، بمراجعة قرارات سبق اختبارها، واتخاذ إجراءات جديدة خلال الفترة الانتقالية من يوليو إلى سبتمبر^(٣٢)، الأمر الذي كان يؤدي إلى حدوث تغير نوعي، من عام مالي إلى آخر، في شكل ومضمون العلاقة بين الجانب الفرنسي والمباشرين الأقباط. وعلى ذلك سوف يتم دراسة الدور القبطي في الإدارة المالية، من خلال تحليل أبعاد المواجهة طويلة السنوات المالية الثلاث (١٢١٣/١٢١٤/١٢١٥) التي شملت فترة الاحتلال (١٧٩٨-١٨٠١)، وإن كان ينبغي التنويه إلى أن اتفاق هذه السنوات مع فترات حكم الجنرالات بونايرت وكليبر ومينو، ليس سوى اتفاق عفوى.

المرحلة الأولى (سبتمبر ١٧٩٨ - أغسطس ١٧٩٩)

يمكن أن نميز في هذه المرحلة موقفين رئيسيين للمباشرين الأقباط قبل الإدارة الفرنسية: الأول منهما كان في إطار استطلاع مدى قدرة الفرنسيين على الإحاطة

بالنظام المالى والضريبي، يوازيه، فى الوقت نفسه، متابعة دقيقة لكل التطورات السياسية التى لها تأثير مباشر أو غير مباشر على مدى الاحتفاظ بمواقعهم فى إدارة النظام الضريبي فى مصر. والموقف الآخر جاء نتيجة للأول؛ إذ مع تبين عجز المحتلين عن استيعاب كُنه النظام وآلياته المعقدة، فى الوقت الذى كانت المصادمات العسكرية مستمرة بين كل حين وآخر - فإن الجانب القبطى يحدد لنفسه اتجاهًا يقضى بوجوب تحقيق السيطرة الفعلية على المعلومات والإيرادات معًا؛ ومن ثم تصبح العلاقة طردية بين اللجوء إلى وسائل التحايل، وبين تزايد المواجهات والاحتكاكات شبه اليومية. وسوف نحاول تحليل طبيعة العلاقة بين الجانبين، فى إطار هذين الموقفين اللذين سوف يؤثران، بدرجة ملحوظة للغاية، على تغير شكل إدارة الجباية.

حذر وترقب

يُطالعنا تقرير سكرتير المالية بيروس بحقيقة موقف المباشرين الأقباط، من السلطة الفرنسية، خلال الشهور الأولى من الاحتلال، فيشير إلى أنهم كانوا مرتابين ومنقسمين بين الخوف الذى يثيره لهم الأمراء المماليك ساداتهم القدامى، وبين الهلع الذى حمله إليهم الغزو الفرنسى، ولذلك لم يقدموا لهم، فى البداية، أية معلومات^(٢٣) وقد أكد هذه الحقيقة الجنرال زاينوشيك، من واقع احتكاكه ورقابته شبه اليومية للكتبة الأقباط، فى دائرة الفيوم وبنى سويف والمنيا^(٢٤).

وكان تتبع المباشرين للتطورات السياسية المختلفة التى تلاحقت فى هذه المرحلة، قد فرض عليهم ضرورة توخى الحذر والاحتفاظ بحق مراجعة كل المواقف والصلوات التى ربطتهم بجميع الأطراف : فمن ناحية لم يستطع الفرنسيون القضاء على مراد بك وماليكه، وهو ما كان كفيلا بجعل مركز الفرنسيين بالصعيد مؤقتاً أو غير مستقر^(٢٥)؛ حيث ظل المماليك قادرين على مداومة الكتائب الفرنسية فى كل مكان بالوجه القبلى، فيما عُرف "بحرب العصابات"^(٢٦)، ومن ناحية أخرى، عاين المباشرون تحطم الأسطول الفرنسى، فى مطلع هذه المرحلة، وإعلان التحالف العسكرى بين العثمانيين والإنجليز، كما كانوا شهود عيان على نجاح الباب العالى فى إرسال فرمانات ومنشورات عثمانية، تحض على الثورة والمقاومة، ثم توزيعها بين أهالى القرى^(٢٧)، والتى انعكس مردودها بجلاء

فى امتناع الفلاحين عن تسديد الضرائب سوى فى وجود الطواير العسكرية التى كانت تهدد بمداومة القرى وحرقتها فى حال الإصرار على عدم الدفع.

وعلى ذلك كان المباشرون قد وجدوا أنفسهم فى موقف شائك. وكانت الحقيقة الوحيدة الواضحة لهم أن الارتكان على السلطة الفرنسية وحدها سوف يجر عليهم المتاعب، وليست حوادث قتل أو اغتيال بعض الأمناء الأقباط فى بعض القرى^(٣٨) إلا مؤشراً على تلك الصعوبات التى تنتظرهم. ولعلمهم ما فتئوا يتذكرون حوادث عام ١٢٠٠ (١٧٨٦-٨٥) التى نزل بهم، خلالها، أشد المصادرات من جراء دورهم الرئيس فى تلفيق الحسابات التى أدت إلى سطو الأمراء المماليك على مجمل "خزينة السلطان". وهى تجربة عصبية نزع بأنّها أثّرت خبرة المباشرين فى التعامل مع السلطة، وذلك عبر التحسب لتقلباتها المفاجئة، وعدم الرهان على جانب واحد. ومن ثم فقد كان من المتوقع أن يحاول المعلمون الأقباط، بعد احتفاظهم بمواقعهم السابقة فى إدارة الجبايات، معاودة الاتصال بالمماليك سرّاً، وأن يحولوا، فى الوقت نفسه، دون أن تُثار ضدهم من قبل سلطات الاحتلال، أية شبهة حول هذه المسألة^(٣٩).

وتجدر الإشارة إلى أن التحديات لم تقتصر على مدى قدرة المباشرين على إدارة التعامل مع المصالح المتناقضة للقوى المتصارعة على السلطة فحسب، وإنما كان هناك ما هو أكثر خطورة على مستقبل عملهم فى الإدارة المالية برمتها؛ فاتجاه بونايرت إلى وضع وكلاء فرنسيين لمراقبة مجمل الحسابات القبطية، قد يؤدى إلى وضع نهاية للامتياز الذى استأثروا به فى هذا الجانب الحيوى من الإدارة^(٤٠). وهى مسألة استوعب المعلمون الأقباط مراميها؛ ومن ثم فقد تعين عليهم إحكام السيطرة على الجهاز الإدارى القبطى، من أصغر كاتب فى قرية إلى أعلى مسئول فى الجماعة القبطية؛ لأجل الحيلولة دون تسرب المعلومات الدقيقة عن النظام الضريبى والمالى : فلقد نجح المعلم جرجس الجوهري فى إقناع الفرنسيين بأن قوائم الضرائب لا تصدر إلا عن مكتبه بالقاهرة، سواء للمستولين الفرنسيين أو لسائر مباشرى الأقاليم.^(٤١) ولمّا تم استعادة ذات التنظيم الهرمى للكوادر القبطية السابقة، بات المعلم جرجس الجوهري - بوصفه المباشر العمومي - متحكماً، بصورة فعلية، فى تحديد نوعية البيانات والمعلومات التى كان يمكن كشفها للفرنسيين أو حجبها عنهم.

ولعل مما يعكس وجود درجة كافية من الوعي لدى جماعة المباشرين بأهمية التكاتف والالتزام بالخط العام الذى حدّوه لأنفسهم؛ للحفاظ على احتكارهم للمعلومات - أنهم كانوا، بدرجة من الإفراط فى الحذر، يمتنعون عن الرد على ما يواجهونه من تساؤلات أو استفسارات. ويدلى جيرار بشهادته فى هذا الصدد (وكان معنياً بجمع المعلومات المتعلقة بالاقتصاد الرفيى والنظام الضريبى) إذ يقول : سكان أمثال هؤلاء القوم أقل استعداداً لتقديم المعلومات حول الوسائل التى يحرصون على إحاضتها بالغموض.. وهذا ما يفسر - بقدر كاف - سر القلق الذى كان ينتابهم من الأسئلة التى كنت أوجهها لهم، وكذلك سوء نيتهم حين كانوا يضطرون للإجابة" وأنه لذلك لم يحصل إلا على معلومات غامضة، وأمل أن يتمكن غيره من رصد ما عجز عن تحصيله منها^(٤٢).

وكانت "الحماية" التى وفرها المعلم جرجس الجوهري وكبار المباشرين Les Grands Coptes لمرءوسيتهم من الكتبة والعمال الأقباط بإدارة الجباية، قد أدت إلى تدعيم وحدة الصف، وتماسك البنيان الداخلى للجماعة^(٤٣). وخاصة أن أمر تعيين أو رفت أحد هؤلاء الكتبة كان امتيازاً قاصراً على المعلم جرجس الجوهري^(٤٤)؛ ولذلك كانت أية شكاية تتعلق بالكتبة والمباشرين تحال على الأخير؛ ليحقق فيها بنفسه ويتخذ الإجراء المناسب بشأنها^(٤٥). وهو الأمر الذى أتاح للمباشرين غطاءً قوياً لمعظم ممارساتهم المختلفة.

وكان حرص بونايرت على اخیلولة دون وقوع مصادمات بين المباشرين والمسؤولين الفرنسيين، قد أدى إلى تمادى الأقباط فى توسيع هامش حركتهم : فقد كان من الأهمية بمكان للجانب الفرنسى احتفاظ المباشرين بمكانتهم وهيبتهم بين أهالى القرى، وأن يظلوا متمتعين بثقة السلطة الفرنسية، كأحد الركائز الأساسية لاستقرار جباية الضرائب؛ ولذلك عندما قام أحد جنرالات الأقاليم بالقبض على مباشر قبضى، تعاون مع المقاومة المملوكية ضد الجيش الفرنسى، سارع بونايرت بشجب تصرف هذا الجنرال، محدداً الإطار العام للتعامل مع المباشرين الأقباط : "إننى لا أنظر بعين الرضا إلى الأسلوب الذى تصرفت به تجاه القبضى، فمقصدى هو مراعاة هؤلاء الناس، وإبداء حسن النوايا

نحوهم قل لي ما هي موضوعات شكواك منه وعندئذ أتولى إحلال شخص آخر محله..
أدرس الناس الذين تجد نفسك بين ظهرائهم، وميز أولئك الأكثر استعداداً لتوظيفهم،
واضرب أحياناً أمثلة عادلة وقاسية، دون أن تقدم أبداً على أى شئ يقترب من الهوى
والاستخفاف^(٤٦).

ويبدو أن هذه التعليمات قد مثلت الاتجاه العام لسلطات الاحتلال قبل المباشرين،
على الأقل في هذه المرحلة؛ إذ نجدها تشكل لب التوجيهات التي يوصى بها مدير المالية
(بوسيلج) أحد الوكلاء الفرنسيين : "إنه لمن المفيد لنا أن يتمتع المباثرون بالاحترام
والتقدير من جهتنا؛ لأجل أن يتحصلوا على الضرائب بأنفسهم من القرى، وكذلك أن
يلاقوا عقابنا حينما يبدون إهمالاً في عملهم، وإن كان يتعين ألا يحقر أحد من شأنهم
على مرأى من أهالي القرى"^(٤٧). بل وكانت الإدارة المالية على استعداد للذهاب إلى
أبعد من ذلك، بإبدائها المرونة مع المباشرين الذين يثبت اختلاسهم وتضليلهم للفرنسيين
بشأن تركات الأمراء المماليك المصادرة، على نحو ما تمثله حالة المعلم إبراهيم الحلفاوى،
مباشر ولاية الفيوم^(٤٨). ومن جانب آخر كان ثمة حرص على إشعار المباشرين بأن
حمايتهم أحد الشواغل الأساسية للقيادة العامة نفسها، وذلك عبر التأكيد لهم على
موقفها الصارم في معاقبة القرى التي تعرضت للأقباط، غير مرة، للقتل والاعتقال^(٤٩).
وإذا كانت الإدارة المالية للاحتلال منشغلة بعدم المساس بمكانة المعلمين الأقباط أو
كوادرهم من الكتبة والصيارفة؛ بهدف استيعابهم في الإدارة؛ لأجل دفع القرى
للتواصل في تسديد الضرائب، بالإضافة إلى تهيئة مناخ من التعاون بين الجانبين،
كخطوة أساسية لاندماج الوكلاء الفرنسيين، ومن ثم السيطرة رويداً رويداً على
المعلومات المجهولة.

سلطة المعرفة وضغوط المحتل

وإذا كان للمباشرين - دوماً - حساباتهم الخاصة، فسوف يجيدون استغلال الموقف
الفرنسي الحريص على كسب تعاونهم؛ إذ يجرى مواجهة ضغوط المسئولين الفرنسيين
في طلب معرفة القوائم التفصيلية للضرائب والقرى والمعلومات المتعلقة بها - بالفتور
وبشئ كثير من اللامبالاة، الأمر الذي جعل بونايرت أكثر تمللاً من ردود فعلهم،
وخاصة بعد أن أبدى المشايخ تجاوباً ملحوظاً، في الإفصاح عن أملاك الأمراء المماليك،

فى حين ظل المباشرون والعمال الأقباط يشملهم الصمت المطبق بشأن هذه الأملاك التى كانوا، قبل مجىء الحملة، يديرون حساباتها؛ ولهذا فإنه يكتب إلى المعلم جرجس الجوهري، فى لغة أقرب إلى العتاب؛ لأنه كان ما يزال حريصاً على استنفار المباشرين، وعدم فقد عونهم : "إنتى لأطالب الأقباط بأن يبدوا الحماس والثقة والإخلاص فى خدمتهم للجمهورية، ولا أكتم عنك ما أشكوه من فتور الهمة الذى أصاب الكثيرين من بينهم" (٥٠) على أنه من جانب آخر، وقد تأكد من صعوبة تطويع المباشرين فى الاتجاه الذى يؤدى إلى كشف الحقائق الضريبية، يقرر إيجاد مصادر متعددة لجمع المعلومات، فيجرى إنشاء "لجنة الحبوب" فى يناير ١٧٩٩ لتشمل أقاليم مصر الوسطى "الفيوم وبنى سويف والمنيا"، ويعهد إلى "ليفرون وهاملان" (فى مارس ١٧٩٩) القيام بالمهمة نفسها فى مصر العليا (٥١). وإن كانت التجربة سوف تبوء بالفشل؛ حيث يؤكد "بيروس" بأن المباشرين ضنوا بالمعلومات على هؤلاء المسئولين بل وأوقعوا بهم فى أخطاء فادحة (٥٢)، الأمر الذى أدى إلى تعاظم أهمية استقصاء المعرفة عبر التطواف بين القرى، اعتماداً على الفلاحين البسطاء وبعض مشايخ القرى وغيرهم من أبناء الريف. غير أن هذه الوسيلة استغرقت وقتاً طويلاً (٥٣). ولم تنجح فى الإحاطة بالحقائق الضريبية، التى تكشف كنه النظام، بشكل جعل حجم الإفادة منها، زمن الاحتلال محدوداً، وهو ما اضطر المسئولين الفرنسيين إلى الاعتماد على القوائم المجلدة التى حررها المباشرون الأقباط، ومواصلة البحث والضغط عليهم.

وكان توجه بونابرت، بأفضل قواته، فى هذه الفترة، إلى غزو الشام، قد وضع على محك الاختبار مدى رسوخ السيطرة الفرنسية على مصر، وهو ما كان سبباً فى إثارة الحذر والترقب لدى الجميع (٥٤). ولاسيما جماعة المباشرين الذين مارسوا - بقدر كبير من التحفظ كل وسائل التسويف والمماطلة فى تسديد الضرائب، بل وفى ادخار ما وسعهم من تحصيلات؛ لتأمين أنفسهم فى المستقبل القريب الذى بات من الصعب التكهّن بما يحمله من تطورات.

وتتيح أوراق ومراسلات الجنرال زاينشيك، حاكم مصر الوسطى (الفيوم - بنى سويف - المنيا)، التعرف على بعض تلك الوسائل التى رصد بوادرها منذ الشهور الأولى من احتلال الصعيد التى توافقت مع حلول موسم جباية القسط الأول للميرى : فنجد

يرصد تباطؤ المباشرين في تنفيذ الأوامر والتوجيهات، وتلكؤهم في تحصيل الضرائب؛ حيث كانوا يتعللون، بصفة مستمرة، بأن القرى غير هادئة، وأن الفلاحين يتابعون الموقف عن كثب، ويرسلون من يتحرى لهم الأخبار، وينتظرون في كل يوم، سماع أخبار المعارك الجارية، بين المماليك والفرنسيين، ومن ثم لا يمكنهم الجباية في مثل هذه الظروف^(٥٥). كما يشير "زاينشيك"، في مراسلاته، إلى أن تهديد العمال الأقباط بتكبيدهم غرامة نقدية تتناسب مع كل تأخير في الدفع، لم يلق سوى استجابة سلبية؛ إذ "لم يُفزعوا للسداد تحت التهديد بالتغريم"^(٥٦)؛ ولذلك مضت الجباية بصعوبة بالغة. وكان قد تزامن مع غزو الشام حلول القسط الثاني من الميرى. وتوضح أوراق زاينشيك أن المباشرين حاولوا إغراء الوكلاء الفرنسيين بأن القرى في إمكانها تسليم "الحصيلة" بنفسها إلى مقر القيادة الإقليمية، دونما حاجة إلى الطوابير الفرنسية المتحركة التي تجوب القرى في مساعدة الصرافين. وإذا يتبين أن هذا الأسلوب لم يحقق أية نتيجة، وأنه كان من بين حيل الأقباط في التسويف، فإنهم يقررون النزول للقرى بأنفسهم "دون هؤلاء الأقباط الأشقياء"^(٥٧). وهو إجراء يثبت فشله سريعاً؛ فالقرى لم تكن لتدفع إلا في حضور العمال الأقباط.

وحال تأكد الإدارة من أن الفلاحين سددوا الضرائب العينية (حبوباً وخيولاً)، تسارع في اتخاذ قرار يقضى بمباغثة المباشرين والكتبة في القرى؛ لمصادرة تلك التحصيلات التي ماطلوا في تسليمها لخزانة الجمهور. غير أن المباشرين يتداركون أمورهم سريعاً ويفوتون الفرصة على الجانب الفرنسى. وهذا ما يدفع "زاينشيك" إلى التأكيد على وجود ما أسماه بـ "التنبيهات القبطية" (أى شبكة استخبارية) التى تتمكن من الإحاطة، بطريقة أو بأخرى، بالترتيبات التى تعزم الإدارة اتخاذها ضدهم؛ كما يدل على هذه الحقيقة بحادثة فزار المعلم "إبراهيم الحلقاوى" من الفيوم، قبل وصول الرسالة التى تقرر بها أمر اعتقاله!^(٥٨).

لقد بات واضحاً للجانب الفرنسى أن درجة استجابة المباشرين للتعاون متوقفة على النتيجة التى سوف تسفر عن "غزوهم للشام". وكان هذا عين ما أدركه "زاينشيك"، عبر احتكاكه اليومي بالصيارفة الأقباط؛ ولذا فإنه حين يحاط علماً بفشل هذا الغزو،

ينتابه القلق الشديد، وهو ما تفيض به مراسلته إلى "دوجا" قبيل عودة بونايرت : "إننى لخائف أن يؤدي هذا الفشل إلى تباطؤ حركة جباية الضرائب، من جراء استغلال العثمانيين لهذا الخبر الذى سوف يبالغون، بكل تأكيد، فى تصويره للفلاحين، وهم الذين يتمنون اضطرابنا للجلاء عن هذه البلاد" (٥٩).

وأكدت الأسابيع التالية مظان ومخاوف الجنرال زايونشيك؛ فقد توالى المنشورات العثمانية ومكاتيب الماليك (٦٠) وعلي البلاد، تبشر بقرب مواجهة حاسمة، تجلى هذا الاحتلال؛ وهو ما يؤدي إلى تعثر الجباية. ولن تجدى تحذيرات القائد العام بونايرت بالتغريم والمصادرة للأراضى (٦١).

ودون أن يكون ثمة تنسيق ما، بين العمال الأقباط والفلاحين، سوف يدفع القلق الفلاحين إلى النتيجة نفسها؛ فقد رصد الجنرال زيوانشيك - وهو مراقب ذكى - حالة العناد الشديد التى أبداهها الفلاحون قبل الفرنسيين، حتى ليقرر للإدارة المالية بأن الجباية سوف تتعرض للتوقف إن لم يسعفوه بقوات عسكرية تخيف هؤلاء الممولين وتدفعهم للوفاء بالمستحقات (٦٢).

على أن حركة الجباية تتجمد، بصفة عامة، إثر تواتر الأنباء عن نزول قوات عثمانية فى أبو قير (يوليو ١٧٩٩)، ويضطر بونايرت لإجبار المعلم جرجس الجوهري على مرافقته (٦٣)؛ تحسباً لحوض معركة مصيرية قد تطول، وتستلزم، من ثم، تأمين الاحتياجات المادية للجيش الفرنسى؛ ذلك أن تواجد هذا المباشر العمومى يظل بمثابة ضمانة؛ تدفع كل المباشرين والعمال الأقباط، فى جميع القرى، إلى إمداد الفرنسيين، تحت كل الظروف، بالأموال والمؤن الغذائية.

ومن المؤكد أن انتصار الفرنسيين فى أبو قير قد أخمى الأمل فى إنهاء علاقة لم يكن بوسع المباشرين الأقباط أو غيرهم التهرب منها. وقد أدركوا، بعين ثاقبة، أن هزيمة العثمانيين ليست حاسمة للموقف، بشكل نهائى، وإنما هى جولة تتلوها جولات أخرى، سوف يكون مجالها مصر، بعد فشل غزو الشام، ولهذا كان من الأهمية كسب المزيد من الوقت : فقد تبادوا فى تلكؤهم فى دفع مستحقات الضرائب. ويفترض بأن مبررهم تمثل، فى هذه المرة، فى امتناع مشايخ القرى عن تسليم الحصيلة. وهو افتراض تدعمه رسالة

مدير المالية إلى بونابرت التي صور للأخير فيها مشهداً بالغ العنف، وجهت خلاله اتهامات مشايخ وعلماء الديوان للمباشرين الأقباط بأنهم تأمروا مع الفرنسيين على المسلمين، وهددوا - على نحو ما مر بنا - في حال عدم الإفراج عن مشايخ القرى، بالامتناع عن المجئ للديوان^(٦٤). وهو ما كان سبباً في إطلاق سراحهم. وسواء أكان طرفا الجباية (المباشرون ومشايخ القرى) قد اتفقا معاً على إثارة هذه المشكلة^(٦٥)؛ لأجل استهلاك الفترة الحيوية المتبقية لجباية الضرائب قبل مجئ الفيضان، أو كانت محاولة كل منهما لتبرئة ساحته من تحمل المسؤولية، قد وحدث الموقف بينهما على نحو عفوى - فإن المحصلة النهائية بالنسبة لمالية الجيش أن السنة المالية الأولى قد انقضت، دون تسوية حساباتها؛ لتبرز مشكلة تراكم بواقى المال الميرى التي تظل مستعصية على الحل حتى الشهور الأخيرة السابقة على الجلاء !.

وفى خطوط متوازية مع وسائل التسويق والمماطلة، تمدنا المصادر الفرنسية ببعض المعلومات المهمة عن لجوء المباشرين لوسائل أخرى، كان من بينها استغلالهم للطواوير العسكرية التي كانت ترافقهم فى جولات الجباية، فى تكبيد الأهالى دفع المزيد من الضرائب التعسفية، على حين كانوا يحجبون الجزء الأكبر من الإيرادات المحصلة بين أيديهم، ولا يكشفون عن حقائقها للمستولين الفرنسيين؛ وأنه بهذه الطريقة أمكن للمباشرين الأقباط الإثراء على حساب السلطة الفرنسية. وكان زاينوشيك فى طليعة من أكدوا على هذه النتيجة؛ مستنداً على علامات الإثراء التى كانت تتبدى على الصيارفة الأقباط لدى عودتهم من جولات الجباية. فقد كتب لمدير المالية "بوسيلج" : "جميعهم يختلسون فى الحسابات، ولدى البرهان الذى يؤكد ذلك : فعندما رحلت لعمل جولة لجمع الضرائب فى صحبة مائة قبضى على الأقل، وجدتهم إما يترجلون على أقدامهم أو كانوا على الحمير. وحين قفلنا من الجولة عادوا جميعاً فى وضع أكثر وجاهة وعلواً على صهوات الخيول. وليس هذا، بداهة، إلا من جراء ما يتحصلونه من الفلاحين؛ حيث يرتكبون تعدياتهم على هؤلاء الفلاحين سراً، وذلك خلال ساعة معينة يجيدون تحديدها وهم معتقدون بأنهم مفلتون من العقاب"^(٦٦). ويصل سخط زاينوشيك من هذه الممارسات حداً يجعله يصف المعلم جرجس الجوهري بأنه "رئيس لصوص Chef des voleur يقود مجموعة كبيرة من المحتالين Les fripons"^(٦٧).

وإذا كان الفلاحون قد استُهدِفُوا من قِبَلِ العمال الأقباط، إلا أن ذلك قد تم، في الغالب، في إطار ما كان معتاداً تحصيله من القرى. فقد توافر وعى تام لدى المعلمين الأقباط، بضرورة الموازنة بين مصالحهم الخاصة ومصالح الفلاحين، وخاصة في ظل السباق المحموم على جباية الضرائب بين المماليك والفرنسيين. ولعل هذا ما جعل المباشرين يلحون على الإدارة المالية بضرورة تخفيض الضرائب عن القرى التي تعرضت لهجمات المماليك، وإسقاط حق المطالبة عن تلك التي اضطرت لدفع الميرى لهم. ولم يكن للفرنسيين أن يفضوا الطرف عن هذه المسألة؛ تفادياً لمواجهة عنيفة، قد تؤدي إلى توقف الجباية ككل. ومن ثم فقد كانوا مضطرين إلى تلبية هذه الطلبات؛ ولذلك يُلاحظ في "دفاتر الترابيع" تمييز المعلمين الأقباط بين "قبض الجمهور" و "قبض المماليك" (٦٨)، بل ونجد في أحد التقارير المالية إشارة لتخفيض ناتج عن "نهب العربان" (٦٩).

وتوضح المصادر الفرنسية بأن المباشرين استغلوا تلبية الجانب الفرنسي لطلبات التخفيض بالتحايل على إدراج قرى، لم يتعرض لها المماليك بسوء، ضمن القائمة المستحقة للتخفيض؛ وذلك لأجل الاستحواذ على إيراداتها. وهذا ما ترصده ملاحظات "زاينوشيك"؛ إذ يكتب إلى الجنرال فريان: "إن المباشر القبطي الأكثر تأمراً، بإمكانه أن يقلب السماء والأرض؛ لكي يحصل على تخفيض الضرائب؛ ليحظى بإيرادات قرية قادرة على الدفع؛ فهي من بين أكثر القرى غنى، كما أنها لم تتعرض لهجمات المماليك". وحذر من أن الاستجابة للعامل القبطي بهذه القرية سوف يدفع القرى المجاورة للمطالبة بالتخفيض ذاته (٧٠).

وإذا يواصل المباشرون الأقباط تقديم طلبات التخفيض الضريبي للعديد من القرى، فإن المشكلة تتزايد تعقداً، وخاصة وأنها باتت تهدد الخزنة العامة لمالية الاحتلال، والتي اضطرت لعمل زيادة في معدلات الضرائب؛ كي تؤمن النفقات الضرورية للجيش. وعندما لاحظ المسؤولون الفرنسيون أن الأقباط عموماً التخفيضات على قرى عديدة بمعظم الأقاليم؛ فقد تشككوا في صحة المزاعم والتعللات التي قدموها؛ الأمر الذي اضطر بونايرت إلى إصدار "أمر يومي"، قبيل رحيله بأيام، أملاً في وضع حد لهذه

الظاهرة التى استشرت على نطاق واسع؛ فقد قرر عدم الاعتراف بإيصالات الممالك Reçus des Mame Luks، واعتبرها لاغية، ووجه تحذيره للمعلم جرجس الجوهري ولكل الكوادر القبطية بأنه : "لن تمرر هذه المخالصات Décharges ولن تعفى الأقباط من الحساب، وإن أدرجوها سوف يتحملون دفعها من نقودهم، وجميع تلك القرى سوف تُرغم على الدفع". وحذر كذلك جنرالات الأقاليم من التساهل فى اعتماد هذه البراءات، حتى لا يعتبرها المباشرون أذوناً رسمية بالتخفيض عند تسوية حساباتهم^(٧١). إن هذه الوسائل المتعددة التى لجأ إليها المعلمون الإقباط هى ما أمكن للفرنسيين رصده فحسب، وليس بالضرورة كل ما كان يجرى فى دهاليز الحسابات القبطية. وربما كانت إحدى المؤشرات المؤكدة لذلك اكتشافهم، فى نهاية هذه المرحلة، أن الجباة الأقباط أمكنهم حجب حصيلة مال "الفايظ" (عن سنة ١٢١٢/١٧٩٨) والتى بلغت ١٢٤,٣٤٩,١ فرنك (أى ما يقارب الـ ٣٨ مليون بارة)، وذلك عن كل سقرى الممالك^(٧٢) التى استحال، بعد مصادرتها، إلى "قرى جمهور". وهذا ما دفع سكرتير المالية سيروس^(٧٣) إلى التأكيد على أن مجمل حسابات العام الأول قد تأثرت بعدم خبرتهم بالنظام الضريبى، وأن هذا هو السبب الرئيسى الذى يسر للجباة الأقباط كل ممارساتهم^(٧٢). ولعل التقارير التى حررت فى نهاية العام المالى الأول، عقب رحيل بونايرت، والتى أرسلت لحكومة الإدارة تكشف عن مردود تلك الممارسات على الأوضاع المالية للجيش؛ حيث أبانت عن وجود أزمة مالية حادة، كانت تتفاقم شدتها من شهر إلى آخر. (٧٣) الأمر الذى تطلب، وبشكل عاجل، اتخاذ نهج مغاير، يكفل وجود إجراءات معينة، ترقى إلى مستوى المواجهة لكل وسائل المعلمين الأقباط، وهو ما سوف يشكل المحور الرئيسى للاحتكاكات بين الجانبين فى المرحلة التالية.

المرحلة الثانية (سبتمبر ١٧٩٩ - مارس ١٨٠٠)

ما أن يصل كليبر من دمياط إلى القاهرة فى ٣٠ أغسطس ١٧٩٩؛ ليتولى القيادة، حتى ينكب على فهم حقيقة الأوضاع التى انتهى إليها مشروع الاحتلال. وإذا يتكشف ثقل التركة التى خلفها له بونايرت، وخاصة ما تعلق منها بالوضع المتردى لمالية الحملة

وإدارات الجيش - فإنه يجد نفسه فى موقف أكثر إرباكاً : فالخزانة خاوية من قرش واحد، والاحتياجات الملحة والضرورية للجيش لا تجد أية اعتمادات، وبالقدر نفسه لا يمكن تدبير موارد عاجلة عبر اتباع أسلوب الغرامات والمصادرات والقروض التى طالما ضربها سلفه على الأهالى حتى استنفد طاقتهم، ولذلك أكد فى تقريره لحكومة الإدارة : "أن الرجوع اليوم إلى هذه الوسائل، فى الوقت التى نحن فيه محاطون بالأعداء من كل جانب، هو دفع بالبلاد إلى الثورة فى أول فرصة ممكنة" (٧٤).

وتلقى رسالة مدير المالية (بوسيلج) إلى الجنرال ديزيه بالصعيد بعداً آخر لهذه الحقيقة القاسية : "نحن فى حالة عوز شديد، ولدرجة بشعة، ولا بد أن ننتظر أربعة شهور تالية حتى تصلنا إيرادات جديدة" (٧٥)؛ حيث كانت أولى المحاصيل الشتوية يتم جبايتها بدءاً من شهر ديسمبر. ولذلك كان على القيادة العامة أن تسارع باتخاذ إجراءات عاجلة؛ لتدبير موارد مهمة للخزانة، ومن ثم يجد المباشرون الأقباط أنفسهم فى مواجهة الترتيبات الجديدة التى سوف يتخذها كليبر منذ الأيام الأولى لقيادته.

المباشرون الأقباط وترتيبات سبتمبر ١٧٩٩

وفى الحقيقة لم يكن أمام كليبر، فى مطلع العام المالى، سوى مصدرين أساسيين، يمكنه من خلالهما توفير بعض السيولة الضرورية؛ تمثل الأول منهما فى مقدم الأقساط الذى كان يتم دفعها عند طلب "الإفراج الديوانى" بحصر الإيجار والالتزام، وتعلق المصدر الثانى بحصيلة البواقي ومتأخرات المال الميرى. وكان المصدر الأخير هو ما بادر كليبر بمطالبته من المباشرين الأقباط (٧٦)، وخاصة بعد ما أحاط علماً بأنهم تحصلوا "مال الفايز ١٢١٢ (١٧٩٨)" لأنفسهم، ولم يكشفوا الفرنسيين بقوائمه خلال محاسبتهم فى العام المالى الأول. وسعيًا إلى تهدئة الأوضاع واستيعاب الموقف، يميل المباشرون إلى الإعراب عن إذعانهم للوفاء بقيمة مال الفايز البالغة ١٢٤,٣٤٩,١ فرنك. غير أنهم لا يسددون سوى مبلغًا زهيداً (١٢٤,٤٩ فرنك)؛ أى ما يقارب ٤٪ فقط من الإجمالى! (٧٧) وماطلوا فى دفع المبلغ المتبقى، ويضطر كليبر أن يمهلهم فترة أخرى للسداد، ويكتب إلى الأمين العام للخزانة : "لقد بدا لى، على ضوء الملاحظات التى قدمت أنه من المستحيل أن يرضى الأقباط بالدفع الكلى لهذا المبلغ إذ لم تعطهم مهلة كافية" (٧٨)، وسوف ينجح

المباشرون فى إرجاء دفعه رغم كل الضغوط. وبالقدر نفسه سوف يتيح لهم سوء منسوب فيضان عام ١٢١٤ (١٧٩٩) الفرصة فى الاحتفاظ بتأخرات مال ١٢١٢ (٩٨-١٧٩٩) (٧٩).

لقد كان المباثرون على حذر شديد من أن ينساقوا إلى تسديد الضرائب جملة واحدة للخزانة الفرنسية؛ تحسباً لأية تغيرات مفاجئة فى الموقف السياسى والعسكرى للاحتلال؛ ولهذا يمشون، بالأسلوب نفسه، فى تسديدهم لمقدمات "القسط الأول" عن عام ١٢١٤ (١٧٩٩-١٨٠٠) والبالغة ٨٠٠,٠٠٠ فرنك، والتي تحصلوها بالفعل من الملتزمين والمستأجرين للقرى، ويضطر كليبر إلى وضع ترتيب يقضى بالدفع اليومى للحصيلة، والذي حدده بالاتفاق مع المباشرين بـ ٢٠,٠٠٠ فرنك؛ أى أن مهلة الدفع امتدت على مدار أربعين يوماً!! ورغم ذلك يلاحظ كليبر انعدامية الالتزام بدفع الحصة اليومية، كما يلتفت إلى تحايلهم فى الدفع بعملة البارة الرديئة^(٨٠)؛ ومن ثم يقرر، وبإصرار شديد، إلزامهم بدفع ثلثي الحصيلة من العملات الذهبية والقروش الفضية قوية العيار، ويسمح فقط بالثلث الأخير أن يسدد بالبارة، كما يتجه إلى مضاعفة المبالغ التى يتعمدوا إنقاصها من الحصة اليومية؛ ليحول دون عاقلتهم فى التسديد^(٨١). وبسبب الأزمة المالية يتابع الأمر بنفسه، وهو ما يجعل المباشرين يشعرون بوطأة هذا القائد العام مقارنة بسلفه. وإذا يتأكد لكليبر أن المباشرين لن يسعفوا الخزانة - سريعاً - بالأموال، فإنه يلجأ إلى تنشيط حركة الطوابير المتحركة التى تجوب القرى فى جمع الضرائب، ويكلف جنرالات الصعيد بأن ينهضوا بتنشيط هذه العملية، مطالباً إياهم، بسرعة موافاته بالتحصيلات^(٨٢). وصحيح أن القرى لم تكن لتدفع إلا على رؤية الجند الفرنسى *à la vue des soldats*^(٨٣) إلا أن الناتج من استخدام هذا الأسلوب كان جد يسير؛ سواء كان بسبب مقاومة الفلاحين وعنادهم أو كان من جراء قلة أعداد الجند^(٨٤). وفضلاً عن هذا كانت جباية الحبوب من الصعيد هى المسألة الأصعب؛ حيث لم يكن للطوابير العسكرية أن تتوغل بين القرى بعيداً عن ساحل النيل^(٨٥). وأخيراً يظل غياب وجود قوائم مفصلة بحصة كل قرية من الضرائب بمثابة العقبة الكؤود التى تدفع الكثير من القرى إلى رفض التجاوب بالدفع لقادة هذه القوات. (٨٦)

وإذا تحتم الاعتماد على الأقباط، وبات من الضروري وضع ترتيبات معينة تحد من عارساتهم واحتكارهم للمعلومات. وتفتق ذهن كليبر عن إجرائين : الأول منهما تعلق بمواجهة "التسويق القبطي" في تسديد الضرائب؛ وذلك عبر تكليف كل "صراف فرنسي" تولية تحصيل الجباية بنوعيتها العينية والنقدية من جميع العمال والكتبة الأقباط الذين يجرى إلزامهم بسرعة إرسال حصيلة الضرائب إلى مقر "الصراف الفرنسي" بعاصمة الإقليم، في مدى زمني لا يتجاوز أربع وعشرين ساعة. وحمل "الأمر اليومي" تهديداً، لكل من يخالف منهم هذه التعليمات، بالعزل من وظيفته وبتفريجه ثلاثة آلاف تالري^(٨٧). وعلى ذلك تغير مسار نقل حصيلة الجباية، إذ لم يعد المعلم جرجس الجوهري أو كبار المباشرين بالقاهرة ليتلقوا شيئاً منها^(٨٨)، وأصبح منوطاً بكبار المسئولين الفرنسيين الإشراف الكامل على نقل الغلال من الصعيد^(٨٩). وفي الاتجاه نفسه، وفيما يشير إلى تحجيم الدور القبطي، إلى حد ما، في إدارة الجباية، تم تكليف "حسين أفندي" بالإشراف على تحصيل مال الميري من "قرى الرعايا"، وبمراجعة قوائم المباشرين الأقباط الذين كانوا يسلمونه حصيلتها^(٩٠).

وتمثل الإجراء الآخر في محاولته كسر الاحتكار القبطي للمعرفة الحسابية للضرائب الموزعة على كل القرى؛ من خلال إلزام جميع المسئولين الفرنسيين في الأقاليم (الجنرالات قادة الأقاليم، والوكلاء الماليين، ومندوبي الصرف) باستقصاء كل المعلومات التي تمكن الإدارة المالية من إعداد سجل وافٍ عن القرى والضرائب المحملة عليها؛ سعياً إلى التمكن من الوقوف، بشكل دقيق، على موارد البلاد^(٩١). وإلى جانب ذلك أنشأ "لجنة الأغذية" (في ٢١ سبتمبر ١٧٩٩) التي تستوعب داخلها عمل لجنة الحبوب بينى سويف و مهمة ليفرون وهاملان؛ بحيث تصبح هذه اللجنة التي يتولى إدارتها الأقطاب الثلاثة للإدارة المالية (بوسيلج، واستيف ودور) - مشرفة، بشكل عام، على تنظيم المعلومات التي تصلها عن القرى، خلافاً لدورها في تنشيط حركة نقل الحبوب أو تسويقها^(٩٢). ومن الواضح أن كليبر راهن على المستقبل، رغم إيمانه العميق بفشل الحملة وبضرورة الانسحاب : فإذا ما قدر للفرنسيين البقاء في مصر زمناً طويلاً، فإن نتائج مثل هذا العمل يمكن أن تمثل عوناً معرفياً، يُجلى الكثير عن كنه النظام الضريبي، بالقدر الذي يُقلل - فيما بعد - من الاعتماد على الأقباط^(٩٣).

تسحب المباشرين الأقباط واضطراب الجباية

والواقع أن أكثر ما كان يخشاه المعلمون الأقباط أن تتجه الإدارة المالية إلى طلب "مسح الأراضى" وخاصة فى أقاليم الصعيد الذى يتميز بخصوصية تقدير ضرائبه استناداً على قياس الأراضى الرى والشراقى^(٩٤)، والتي عادة ما كانت تتم فى أعقاب انحسار مياه الفيضان فى شهر سبتمبر أو أكتوبر من كل عام. ولم يكن للفرنسيين دراية بهذا الإجراء؛ ذلك أن جبايات العام الأول كانت قد تمت فى ظل مطاردة مراد بك والماليك، وتلقوا الضرائب من المعلمين الأقباط مباشرة.^(٩٥) وإذا كان منسوب فيضان عام ١٢١٣ (١٧٩٩-٩٨)، فى أغلب الأراضى، جيداً، فإن ريف الصعيد لم يشهد أية قلاقل بشأن مسألة مسح الأراضى؛ ولهذا يفترض بأن الفرنسيين تعاملوا مع كل الأراضى باعتبارها "أراض أثرية" كتلك التى تعم أقاليم الدلتا، والتي بطبيعتها لا تحتاج إلى المسح السنوى.

وكان المعلمون الأقباط قد تعمدوا عدم إحاطة الجانب الفرنسى بهذه المسألة التى تمثل الركيزة الأساسية لهم فى مواجهتهم لكل الضغوط التى تمارس عليهم، والتي تمكنهم، فى الوقت ذاته، من التحكم فى الموارد، فيفصحون عن جانب منها ويحجبون عنهم الجانب الأكبر، على نحو ما سوف يتبين للفرنسيين فيما بعد.

غير أن الأمر فى عام ١٢١٤ (١٧٩٩-١٨٠٠) أصبح مختلفاً : فمنسوب الفيضان جاء سيئاً ومنخفضاً، وشراقى الآلاف من الأفدنة يؤكد النتيجة بشكل ملموس. ويبدو أن الكتبة والعمال الأقباط دفعوا بأهالى القرى لتقديم طلبات التخفيض؛ لثلا تطلبهم الإدارة المالية بالمال الميرى كاملاً. وتثار الشكوك فى صحة طلبات التخفيض، والأزمة المالية شديدة وخانقة، بالشكل الذى يجعل مدير المالية يرفض الاستجابة لتلك الطلبات^(٩٦)؛ فقد مالت الإدارة المالية إلى تحميل "الشراقى" على الفلاحين، ولم تدرك ما انطوت عليه هذه المسألة من مخاطر؛ وهذا ما يفسر اندهاش المسئولين الماليين الفرنسيين من استثناء ظاهرة "التسحب الجماعى"، دون أن يدركوا لب المشكلة، حتى لنجد الجنرال زاينوشيك يتساءل : "هل أهالى القرى يفضلون حياة التشرد عن

سكن واستقرار عائلاتهم، عند مطالبتنا لهم بالأموال؟ أنهم جاهلون بعاداتنا؛ إذ يفرون منا بدلاً من أن يأتونا طالبين تخفيض الضرائب.. " ولهذا حذر من مغبة هذه المشكلة التى لن تؤدى فى حال إهمالها سوى إلى "إخلاء القرى من فلاحىها الذين يتحولون عندئذ إلى لصوص Voleurs" (٩٧).

ولدى دخول الفرنسيين فى مفاوضات مع الفلاحين المتسحين للصحراء، أملى الأخيرون شروطهم للعودة لقراهم بأن يستجيب الجانب الفرنسى لتخفيض الضريبة على قريتهم (من ٥٠٠ بطاقة إلى ٣٠٠ بطاقة) بواقع ٤٠٪ (٩٨). وإذا يلتفت مدير المالية إلى تلك الصعوبات التى نجمت عن هذه المشكلة، فإنه يسارع باعتماد التخفيض (٩٩). وبخلاف سلاح التسحب، كانت بعض القرى من القوة ما يجعلها ترفض الدفع تحت التهديد الفرنسى بالاجتياح (١٠٠).

لقد برزت الظاهرة على نطاق واسع. بقدر اتساع الشراقى فى قرى ونواحي الصعيد. ويبدو أن عرائض الشكاوى "هى التى لفتت انتباه الفرنسيين خصوصية نظام الرى وطريقة تقدير الضرائب فى أقاليم الوجه القبلى. وجاءت أول إشارة لإدراك الفرنسيين لأهمية "مسح الأراضي" فى رسالة رافيه (حاكم المنيا) إلى الوكيل الفرنسى فى ٣٠ نوفمبر ١٧٩٩: "يجب أن نجرى مسح الأراضي حتى نتعرف على ما يتعين على كل فدان دفعه من الضرائب" (١٠١).

وفى محاولة لإثراء الفرنسيين عن مطلبهم بمسح الأراضي وقياسها؛ تعلل المباشرون الأقباط بعدم معرفتهم بدفاتر المساحة (الترايع) ! (١٠٢) غير أن مشاكل الجبايات ومخاوف الصدام مع القاعدة العريضة من الفلاحين، جعلت الوكلاء الفرنسيين يواصلون ضغطهم على جرجس الجوهري ومرءوسيه؛ للدفع بهم للقيام بهذا الإجراء الضرورى. (١٠٣) ومثل هذا الموقف تحدياً صعباً للمعلمين الأقباط. وكان وصول الأنباء عن تحرك الجيش العثمانى صوب العريش (٨ ديسمبر ١٧٩٩) - بمثابة انفراجة عاجلة للموقف؛ إذ سرعان ما انعكست فى اتجاه الكتبة والعمال الأقباط إلى "التسحب الجماعى" من الأقاليم إلى بيت المعلم جرجس الجوهري. ووفقاً للوكيل الفرنسى

"رينيه" لم يكن بالقرى والنواحي سوى ثلث الكتبة الأقباط ! وهو ما أدى إلى إبطال فاعلية أية ترتيبات اتخذت في "مسح الأراضي" (١٠٤)، فضلاً عن توقف جباية الضرائب؛ حيث رفضت قرى عديدة دفع مستحقات الميرى في ظل غيبة هؤلاء الكتبة (١٠٥).

ومع تحقق الوكلاء الفرنسيين من صعوبة "مسح الأراضي" في ظل ظروف صعبة والتي اضطرت القيادة العامة إلى إنهاء مشروع الاحتلال - فإن الاهتمام يصبح منصباً على جباية ما يمكنهم من الضرائب، بقطع النظر عن مراعاة المساحات الشراقي؛ ومن ثم تتسم الجباية في هذه الفترة بالعشوائية، وهو ما يتسبب في امتعاض الفلاحين الذين انهالت شكاواهم على القاهرة. ومن ذلك عريضة شكوى تقدم بها فلاحو عدة قرى بإقليم بنى سويف إلى "ديوان القاهرة" الذى سارع بعرضها على مدير المالية جاء بها : "أن الوكيل الفرنسى بالإقليم لم يأخذ بما جرت عليه العادة بتحصيل النبارى حسب المساحة، فزراعة الذرة تزداد وتنقص كل عام، ومن ثم يقتضى الدفع بعد عمل المساحة وفقاً لما جرت به العادة" (١٠٦).

وتظل الشكايات تتوالى على الإدارة المالية، وتعانى الجبايات صعوبات جمة، حتى كادت تتعطل فى معظم الأقاليم (١٠٧)، وأدرك الفرنسيون خطورة المأزق الذى يتعرضون له؛ ليس بسبب إصرار المباشرين على عدم المسح، رحيلهم من الأقاليم فحسب، وإنما كذلك لتحقيق نبأ سقوط حصن العريش (٢٩ ديسمبر ١٧٩٩) الذى أكد للجميع أنهم بصدد مرحلة انتقالية صعبة. وكان بديهياً أن يكون لكل من الأقباط والفرنسيين قراءته الخاصة لتطور الأحداث، والتي فى ضوءها يحدد كل طرف أولوياته، ومن ثم تدخل العلاقة فى جولة جديدة من الاحتكاكات.

كليب ومحاولة إغراء المباشرين الأقباط

أدى سقوط حصن العريش إلى التعجيل بإتمام مفاوضات الجلاء (١٠٨)، وتبدو الشواغل الأساسية للقائد العام متمثلة فى ضرورة تدبير إيرادات عاجلة للخزانة، خلال الفترة التى سوف يستغرقها الانسحاب. وقد أكدت التجربة أنه بدون المباشرين الأقباط يصعب تدبير أى شىء، وخاصة فى ظل اقتراب الجيش العثمانى الذى ألهب حماس

الأهالي المتطلعين إلى طرد الفرنسيين^(١٠٩) ولم يكن الأمر هيناً، ولا سيما وأن جميع الأقباط فى حالة حذر وترقب وقلق أكثر من غيرهم؛ ومن ثم فإن دفعهم للتعاون فى هذا التوقيت الحرج اقتضى التلويح بعرض مغرٍ، يحثهم على الاستجابة.

وتجود قريحة كليبر بفكرة تخصيص فائدة كبيرة *un intérêt de primes considérables* من كل قسط يسددونه للخزانة، من حصيلة مبلغ محدد قدره بـ ٢٦٥ ألف بوظاقة (*) (من جملة مستحقات المال الميرى) والذي تعين تقسيمه على أربعة دفعات متساوية، قيمة كل منها ٥٠,٠٠٠ بوظاقة، بواقع نسبة تصاعدية ٤٪، ٥٪، ٦٪، ١٠٪ على التوالي. وإذا ما تم المعلمون الأقباط الحصيلة بدفع الـ ٢٦٥,٠٠٠ بوظاقة تحسب الفائدة على ١٢٪! وينوء كاهل المعلم جرجس الجوهري بمسئولية توريد هذه الدفعات للخزانة خلال الشهور الأربعة التالية (وهى المدة المقترحة فى المفاوضات لإتمام عملية الانسحاب). ويفوض المعلمين الأقباط فى الجباية دون تدخل أو رقابة الوكلاء الفرنسيين^(١١٠). وسعيًا إلى الحيلولة دون تذرع الجباة الأقباط بمخاوفهم من مقاومة الأهالى، ودرءاً لأية أسباب من شأنها أن تعطل الجباية، فإنه يعهد إلى قادة الأقاليم توفير قوات عسكرية كافية؛ تطوف القرى فى صحبة هؤلاء الجباة^(١١١).

وعمد كليبر، فى التوقيت ذاته، إلى التنازل عن الحصيلة الضخمة من بواقي المال الميرى عن عامى ١٢١٢ و ١٢١٣ نظير التزام المعلمين الأقباط بتوريد مبلغ ٢٠٠ ألف فرنك، يتم دفعها على أربعة أقساط متساوية كذلك، وخلال المدة نفسها من يناير إلى أبريل ١٨٠٠^(١١٢)، كما أنه تنازل بشكل نهائى عن حصيلة "مال الفايط" البالغة ١,٣٠٠,٠٠٠ فرنك التى جباها من قبل الجباة الأقباط وماطلوا فى تسديدها للصرافين الفرنسيين^(١١٣).

ومن الواضح إذاً أن كليبر وقد سأم المراوغات القبطية، قد رمى من وراء هذا الإغراء المادى الكبير، إلى كف الانشغال عن حقيقة الاختلاسات بضمان الإفادة بما يمكن تأمينه لاحتياجات الجيش، خلال فترة الانسحاب. وفى رسالته إلى الجنرال دوجا يفضى كليبر بهذه الحقيقة : "إننى أعى تماماً، شأن الجميع، أن الأقباط يختلسون المالية العامة منذ وصولنا لهذه البلاد، ومع ذلك فإننى أمتنحهم هذه المكافآت، لأجل تحويل هذا المبلغ

للخزانه.. ومن يوم إلى يوم يتأكد لى أننا لن نبقى طويلاً، ومن ثم فعلينا أن نحسن الإفادة من اللحظة الفعلية بشكل جيد، عن أن تنتظر اللحظة التى تليها..^{١١٤}).

لقد كانت القيادة الفرنسية على وعى تام بأن الفترة الحرجة التالية سوف يعترى جباية الضرائب خلالها صعوبات أكثر تعقيداً وخاصة إذا استمرت التحصيلات من خلال المسئولين الفرنسيين، ذلك لأنه فى حالتى السلام أو الحرب سوف تبرز عوامل مختلفة تعرقل إدارة الجباية : فعند الوصول بالمفاوضات إلى تسوية نهائية بشأن الجلاء والانسحاب، فإن العثمانيين سوف يسارعون بالإحلال فى كل موقع يتم إخلاؤه، ومن ثم يؤدى اقتراب الجيش العثمانى من الأقاليم إلى زيادة حدة النفور العام لدى الممولين، وإلى انعدام الثقة فى مواصلة دفع الضرائب للفرنسيين^(١١٥).

على حين يترتب على فشل المفاوضات وإعلان الحرب انشغال كل فرق الجيش الفرنسى بخوض معركة مصيرية، وحالئذ سوف يتعذر إيفاد الطوابير العسكرية؛ لإرغام الفلاحين على دفع الضرائب^(١١٦)، وإذا أُضيف إلى ذلك شراقى مساحات كبيرة من الأراضى (حوالى ثلث القرى) فضلاً عن تعذر قياسها طالما ظل الأمر مرتبطاً بعون المعلمين الأقباط - لتبين إلى أى مدى كانت جباية الضرائب - خلال هذه المرحلة - بالغة التعقيد، وأن التنازل عن أى نسبة من الدخول للأمناء الأقباط، لقاء حصول الجيش الفرنسى على إيرادات عاجلة ومباشرة، إنما حتمته ظروف المرحلة الانتقالية.

وأبدى كليبر ارتياحه لهذه الخطوة التى تزيح عن كاهل الإدارة المالية مهمة صعبة، وإن كان قد حذر من تطلعات المباشرين إلى طلب المزيد من التنازلات : ^{١١٧} "إنهم ملزمون بتسديد هذه المبالغ، سواء أمكنهم جبايتها أم لا، ففى جميع الأحوال، ليس أمامهم من سبيل إلا الوفاء بالدفع. وإذا كانت متحصلاتهم من الضرائب فى الشهر القادم (فبراير ١٨٠٠) سوف تقل عن الشهر الحالى، فإنه يجب دفعهم للتسديد، دون أن يضعوا فى اعتبارهم أننا حيال ذلك لن نقدم لهم أية تنازل ولو عن سول واحد"^(١١٧)؛ إذ كان من المتوقع أن تتجه تطلعات الباب العالى إلى مطالبة المعلمين الأقباط بالمساعدة فى تدبير المبالغ المحددة فى بنود المعاهدة، كنفقات ضرورية للانسحاب، ومن ثم؛ فالفترة التالية من فبراير إلى أبريل سوف تمثل فترة ضغط ثقيلة على هؤلاء الجباة.

الموقف القبطى وغموض المستقبل

من الواضح أن الفرنسيين لم يدركوا، إلى حد كبير، أبعاد المأزق الذى بات فيه المعلمون الأقباط فى هذه الفترة الانتقالية. وأقصى ما حلله المراقبون للموقف ردهم مخاوف الأقباط إلى تعاونهم مع الاحتلال (١١٨).

وفى الواقع لم يكن لأحد من الفرنسيين رؤية واعية بطبيعة العلاقة بين الباب العالى والمعلمين الأقباط، والتي لم تكن جيدة على الإطلاق، وخاصة فى العقدين الأخيرين السابقين على مجيء الحملة. وبلغ تردى العلاقة بين الجانبين ذروته فى عام ١٢٠٠ (١٧٨٦) مع حملة «حسن باشا الجزائرلى» التى تعرضت لهم بالمصادرات؛ إذ جاء فى إحدى المصادر القبطية المعاصرة أنه : "فرد على النصاره غرام ونهبوا بيوت المعلمين وباعوا بيوت الوقف وبقوا كامل النصاره إلا القليل لم عندهم شئ، وباعوا كامل أمتعتهم وبقوا على الأرض السوده وصار تعب كثير.. " (١١٩).

ومن المعروف أن "المعلم جرجس الجوهري" نفسه كان أحد المستهدفين فى هذه الحملة، والذى فر هارباً مع أخيه المعلم "إبراهيم الجوهري" للصعيد لمدة خمس سنوات (١٧٩١-٨٦)، حتى أتاحت لهما الفرصة للعودة والتي ارتبطت بظروف صعبة مرت بها الدولة العثمانية من جراء التعديات الروسية فى الشمال على حدودها، ومن ثم اضطر الباب العالى إلى تأجيل عملية "الإصلاح المالى" والإطاحة بالمعلمين الأقباط، تماماً مثلما فشل فى إقصاء مراد بك وإبراهيم بك عن السلطة، ليظل الوضع على هذا النحو قائماً حتى مجيء الاحتلال (١٢٠).

وعلى ذلك كان كل من المماليك والمعلمين الأقباط فى حالة حذر وترقب شديدين من اقتراب الجيش العثمانى بعد نجاح المفاوضات وعقد معاهدة العريش (١٢١)؛ إذ أن أحداً ما، من الجانبين، لا يمكنه التأكد من مقاصد الباب العالى بشأن النظام (السياسى والمالى) الذى سوف تدار به ولاية مصر بعد جلاء الفرنسيين (١٢٢).

وبداهة علق المعلمون الأقباط آمالهم على استعادة النظام السياسى التقليدى الذى يكفل بقاء السلطة المملوكية، ومن ثم ضمان تواصلهم لدورهم الرئيس فى الإدارة المالية،

على نحو ما كان سائداً قبل عام ١٧٩٨. ويؤكد ذلك حرصهم على توطيد علاقتهم بالمماليك في أشد فترات المطاردة الفرنسية لهم. ويكشف مينو في إحدى مراسلاته عن احتفاظ المباشرين باتصالاتهم بالمماليك، وخداعهم للفرنسيين، عبر إمداد البكوات بـ ١ / ٣ الإيرادات!! (١٢٣).

وإذا كان المعلمون الأقباط قد ربطوا مصالحهم بالمماليك، فإن أية تحول في الموقف العثماني من السلطة المملوكية، سوف يؤثر - حتماً - وبشكل سلبي على مستقبلهم الوظيفي: فالإطاحة بالمماليك واستعادة الدولة لسيطرتها على الأراضي والتزامات الجمارك والمقاطعات الحضرية، من خلال إصلاح ديوان الروزنامة واعتماداً على جماعة الأفندية - لن يسفر سوى عن تهميش الدور المحوري للمعلمين في إدارة مالية البلاد. وإذا كان الصدر الأعظم، عقب التصديق على المعاهدة، قد طالب بعقد لقاء مع كبار الأقباط Les principaux coptes (المعلم جرجس الجوهري ومساعدته، والمعلم يعقوب والمعلم واصف)، وما تبعه من حرص كل مسئول عثماني، كان يصل للقاهرة، على الاجتماع بهم كذلك - فإن الظنون والخاوف التي خالجتهم بشأن استمرارية دورهم، لم تبارحهم؛ حيث إن المناقشات التي دارت بينهم وبين المسؤولين العثمانيين اقتضت على إنجاز عملية تدبير الـ "٣٠٠٠ كيساً" المتعين دفعها للجيش الفرنسي (١٢٤). ويفترض بأن هذا جعلهم أكثر تخوفاً وحذراً أن يكون اللجوء إليهم في تأدية هذه المهمة مجرد استعانة عاجلة ومؤقتة، لم يفرضها سوى درايتهم الدقيقة بما يمكن تحصيله، في مثل هذه الأونة، من ضرائب بالأقاليم.

ومن المؤكد أن لقاء مراد بك بالصدر الأعظم كان بالغ الأهمية في استطلاع حقيقة النوايا العثمانية. وإذا كانت المحادثات لم تمض بشكل مرضٍ، فإن الشكوك والقلق قد تزايد، لينتاب الجميع (١٢٥)، وإذا لم يكن المعلمون الأقباط ليجذبهم أى إغراء مادي يقدمه لهم الفرنسيون، بل يحتمل أنهم اعتبروا هذا العرض السخى الذي قدمه لهم كبير، بمثابة فخ نصيب لهم؛ لجرهم لدفع الحصيلة المطلوبة.

وحيال غموض الأحداث واضطراب التوقعات بدت الحاجة إلى ادخار ما يمكنهم ادخاره من إيرادات مسألة ضرورية وحتمية؛ ومن ثم يتعين تثبيط عزيمة الفرنسيين عن

تحصيل مطالبهم المادية، وذلك عبر لجوئهم لسلاحهم التقليدى "التسويق والمماطلة".
وحيث كانت هذه الأساليب غير مناسبة ألبتة مع المدة المشروطة فى المعاهدة للانسحاب
(وهى ثلاثة شهور)، فإن كليبر يجد نفسه مدفوعاً إلى إصدار قرار يقضى بإلقاء القبض
على المعلم جرجس الجوهري، وتهديده بقطع رقبته إن لم يوف، فى غضون أربعة أيام
تالية، سداد الـ ٥٠ ألف بوظقة الأولى. وبما له دلالة على إدراك القائد العام لخطورة
النتائج التى قد تنجم عن مثل هذا القرار أنه طالب بالاستعانة بكل من المعلم يعقوب
والمعلم فلتاءوس، عند انقياد المعلم جرجس الجوهري إلى مقر القيادة "كى يتولياً معاً الرد
على كل من يشجب القرار أو يوجه أية إهانة للفرنسيين" (١٢٦).

وفى الحقيقة لم يكن كليبر ليفكر، بشكل جدى، فى إعدام المعلم جرجس الجوهري؛
خشية أن تتعطل عملية تحصيل الضرائب برمتها، فى مثل هذا التوقيت الحرج. وهو
يعرف فى مراسلاته عما رمى إليه من هذا التهديد : "إنتى لا أنوى ولن أوافق على
فصل رأسه عن كتفيه، وإنما بدا لى هذا الإجراء ضرورياً؛ لأجل استنهاض هؤلاء
المباشرين من حالة العناد واللامبالاة. فلم أكن يوماً قاسياً ولا عنيفاً، ولكن ما هو الشئ
الأكثر قسوة من الظروف الحالية التى ترهقنى ؟ إذا فلتدفعوا بجرجس الجوهري إلى
تحويل الحصيلة للخزانة" (١٢٧).

وليس ثمة ما يشير إلى استجابة مباشرة للضغوط التى مورست على المعلم جرجس
الجوهري، وإن لم يعن الأمر المغامرة بالعلاقة التى تربطهم بالفرنسيين (١٢٨)، فاحتلال
ما زال يمثل حقيقة قائمة، والتحسب لأية تغير قد يطرأ على مسار الأحداث، بالشكل
الذى قد يودى إلى انقلاب الأوضاع، وبقاء الحملة لمدة أخرى - إنما يحتم الحذر أو
الاحتراز للمستقبل. ولهذا يفترض بأنهم تظاهروا بالاستجابة، عبر تسديد بعض
المبالغ (١٢٩). وقد يؤكد ذلك إلحاح كليبر وتشديده على مسئول الإدارة المالية بضرورة
إرغام المباشرين على الدفع؛ وهو أمر ينعكس بوضوح فى مراسلاته، فى هذه الفترة والتى
كان يكرر بها جملة واحدة :

"Pressez, harcelez, et menacez les cophtes afin qu'ils vous
fournissent de l'argent"

"اضغطوا وضيقوا وهددوا الأقباط حتى يزودوكم بالأموال" (١٣٠).

وعلى ما يبدو ظل المعلمون الأقباط صامدين، إلى أقصى حد، فى مواجهة الضغوط المكثفة؛ أملين فى تجاوز هذه الفترة الانتقالية بأقل ما يمكن التورط فى دفعه للفرنسيين. ولكن حال تحققهم من انهيار المعاهدة وهزيمة العثمانيين فى عين شمس (٢٠-٢١ مارس ١٨٠٠)، فإنهم يسارعون إلى التفاوض مع مدير المالية، فى اليوم التالى مباشرة (٢٢ مارس) على تسديد الدفعة الأولى من الحصيلة المطلوبة، والتي كان محدداً لها أن تدفع من قبل فى شهر يناير (١٣١). فقد بات الجميع موقناً بأن الاحتلال مستمر ولأجل غير معروف، ومن ثم تطلعوا إلى استئناف علاقات التعاون مرة أخرى.

على حين تأكد للجانب الفرنسى أن المرحلة القادمة فى حاجة إلى إصلاحات شاملة، وأنه من الصعوبة بمكان خوض غمارها بالآلية نفسها التى أديرت بها مالية الحملة؛ فالأزمة المالية الشديدة، وهى واحدة من العوامل الرئيسية التى اضطرت كليبر إلى تصفية مشروع الاحتلال بالتفاوض على الانسحاب (١٣٢) سوف تتفاقم بمرور الوقت، طالما بقيت مصادر الإيرادات الضريبية غير معروفة، والتى ظل المعلمون الأقباط مالكين لناصريتها دون غيرهم (١٣٣). وعلى ذلك أصبح "إصلاح المالية" الشاغل الرئيسى المهيمن على كبار القادة والمسؤولين الماليين. ومن المؤكد أن تحديد دور هؤلاء المعلمين، فى المرحلة التالية، سوف يتوقف على نوعية ذلك الإصلاح، وعلى ردود فعل الجباة الأقباط المهمومين بالبحث عن الوسائل التى تؤمن مصير مهنتهم وسط تناقضات متعددة، الأمر الذى يجعل العلاقة بين الجانبين تدخل طوراً آخر مغايراً، إلى حد كبير، لما كان سائداً فى المرحلتين السابقتين.

المرحلة الثالثة (أبريل ١٨٠٠ - أغسطس ١٨٠١)

اتسمت الاحتكاكات المباشرة بين الجانبين القبطى والفرنسى، فى هذه المرحلة، ببعدين متناقضين : الأول منهما اتجه إلى الدفع بالمعلمين الأقباط إلى بؤرة الاهتمام، عبر حفزهم على العمل وتنشيط دورهم، بشكل أكثر فاعلية. والثانى عنى بوضع الترتيبات الجادة لتهميش "الوساطة القبطية"، إلى أضيق نطاق ممكن، لمزاولة العمل بالحسابات والجباية. وخلف البروز والتهميش، سوف نولى اهتماماً بفهم الظروف العديدة والمتداخلة التى أدت إلى تشكيل مسار هذه العلاقة.

المباشرون الأقباط والتواصل القوى للدور

تظل واقعية كليبر، في تعامله مع المواقف الصعبة، هي السمة الأساسية التي تميزه عن غيره؛ فبرغم أنه كان منزعاً من سلوك المعلمين الأقباط، ومن مراوغاتهم ومواقفهم الملتوية في أشد التوقيات حرجاً، إلا أنه تحت الحاجة الماسة لخبرتهم ولتعاونهم يضطر إلى التغاضي عن كل ممارساتهم المختلفة، ويقاچىء الجميع (بما في ذلك المعلمين الأقباط أنفسهم) باتجاهه إلى إلغاء رقابة الوكلاء الفرنسيين على الجباة الأقباط، ويطلق يدهم في الجباية لعام ١٢١٤ (١٨٠٠)، وذلك عبر قراره الصادر في ٢٨ أبريل ١٨٠٠ (١٣٤)، والذي حدد به لهؤلاء الجباة نسبة كبيرة بلغت ٨٪ من إجمالى التحصيلات في سائر الأقاليم! وهي نسبة تفوق حتى ما كان يتميز به مباشرو الجباية بالصعيد الذين كان مخصصاً لهم ٦٪ من حصيلة الغلال، خلافاً لنظرائهم بالوجه البحرى الذين حددت لهم مرتبات ثابتة (١٣٥).

وعلى كليبر دوافعه إلى اتخاذ هذا الإجراء بأنه "نتيجة محضة للظروف المستجدة، وأنه الوسيلة الأكيدة التى بدت أهميتها فى الحصول على السيولة النقدية سريعاً... (١٣٦)، ولقد كان أكثر ما يخشاه الفرنسيون أن يفقدوا ثقة الممولين للضرائب. وبالنسبة للصعيد كانت المسألة أكثر تعقيداً: إذ طيلة فترة المفاوضات وحتى لحظة التصديق على المعاهدة (٢٨ يناير ١٨٠٠) مارس الفرنسيون بأنفسهم جمع الضرائب فى العملية التى أطلقوا عليها "تفريغ صعيد مصر والقصير من الغلال"، والتى استخدموا خلالها - ربما لأول مرة - سلاح المدفعية؛ لقهر القرى على التعجيل بالدفع دون بماطلة (١٣٧) أيضاً كثف العثمانيون، خلال فترة سريان المعاهدة، جهودهم فى تحصيل ما يمكنهم من إيرادات من أقاليم الوجه القبلى؛ حيث عينوا "درويش باشا" حاكماً على الصعيد (فبراير ١٨٠٠) وكلفوه بسرعة تنشيط الجباية (١٣٨)، وكان ينشر الفرمانات السلطانية التى تحت الأهالى على سرعة موافاته بالغلال والمواشى والأموال (١٣٩). ومن واقع مصادرة معظم ما جمعه هذا الباشا، بواسطة الأمير مراد بك الذى أصبح متحالفاً مع الفرنسيين، فى مطلع شهر أبريل ١٨٠٠، يتضح أن الأهالى أبدوا استجابة ملحوظة لتلك

الفرمانات (١٤٠) بشكل يذكرنا بما فعله أهالى القاهرة فى التوقيت ذاته (١٤١)؛ ومن ثم فقد تعرض الصعيد، على مدار أربعة أشهر متتالية (يناير - أبريل) لضغوط ثقيلة من جميع الأطراف الذين عادوا إلى الصراع على السلطة، ومن ثم على امتلاك حصيلة الإيرادات الضريبية.

وبداهة كان لابد أن يُصاب الأهالى، فى كل مكان، بنخبة الأمل فى استقرار الأوضاع، بعد أن بات استمرار الاحتلال الفرنسى أمراً واقعاً. وقد أثارت هذه التقلبات السياسية السريعة والمتلاحقة مخاوف الممولين للضرائب من أن يتم استهدافهم لدفع الميرى مرتين. وإذا فإن تهدة القرى، وحثها على استئناف علاقاتها المادية بالإدارة الفرنسية، بدت مسألة ملحة وضرورية. ولأجل إخماد هواجس الأهالى، وكسب ثقتهم مرة أخرى، كان من المحتم أن يجرى الإعلان عن خصم كل الضرائب التى سُدِّدت لدرويش باشا (١٤٢)، وهى مسألة فى غاية الأهمية والخطورة؛ إذ قد وافق كل هذه التطورات حلول موسم الجباية، ولاسيما ضريبة "مال البياضى" التى كانت أهم مصادر إيرادات مصر العليا (١٤٣)، وبدون اللجوء إلى الأقباط كان من الصعب إنجاز هذه المهمة العاجلة، ومن ثم يتضح أن كليبر كان على درجة كافية من الوعى بما تنطوى عليه جباية الضرائب من صعوبات شتى، وأن استنفار المباشرين الأقباط، عبر ذلك الخافز المادى الكبير، أمر قد حتمته تلك الظروف المعقدة. وعلى هذا النحو يبرز دور المباشرين فى إدارة الجباية أكثر من أى فترة مضت منذ مجيء الاحتلال.

ويرصد الجبرتنى هذه اللحظة فى يومياته باعتبارها لحظة فارقة؛ إذ يصورها على أنها أقصى ما بلغه المباشرون الأقباط فى زمن الاحتلال من مكانة عظيمة : "تقاسموا الأقاليم، والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كل كبير منهم إلى إقليم، وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير، ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد والحجاب، وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسم والمقدمون وبأيدهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة، ويرسل إلى ولايات الإقليم من جهته المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر.. (١٤٤).

والمعروف أن معاهدة السلام والتحالف بين مراد بك وكليبر (٥ أبريل ١٨٠٠) كانت قد أدت إلى اقتطاع أقاليم مصر العليا (إسنا - قنا - جرجا) من التبعية المباشرة للجانب الفرنسي؛ حيث صارت ولاية مملوكية؛ ومن ثم أصبح أقصى امتداد لتحرك المباشرين الأقباط، في جباية الضرائب باسم الفرنسيين، عند أسيوط جنوباً.

وكان كليبر قد وجه المعلم يعقوب إلى الصعيد، مستغلاً صيته الذائع بين الأهالي، وخبرته في جباية الضرائب؛ لأجل إنجاز تحصيل المال الشتوى والصيفى، كما عهد إلى الأمير مراد بك بمساعدته في حث القرى على الانصياع في دفع مستحقات الميرى^(١٤٥). ويبدو أن المباشرين الأقباط، أمام حرص الأمير مراد بك على تأكيد إخلاصه في إنجاز الجباية^(١٤٦) اضطروا إلى التخلي، إلى حد ما، عن أسلوب المماطلة في تسديد حصيلة الإيرادات للخزانة الفرنسية. وعلى هذا النحو يمكن تفسير الزيادة الملحوظة في حصيلة الإيرادات والتي أذهلت المسؤولين الفرنسيين؛ إذ تكشف لهم في نهاية السنة المالية لعام ١٢١٤ (١٨٠٠) مفاجأة غير متوقعة: ففي هذا العام المالى تجمعت عوامل سلبية عديدة تحتم انخفاض الإيرادات، وكان منها شراقي ثلث القرى بسبب سوء الفيضان، وتمكن العثمانيين، خلال فترة سريان معاهدة العريش (يناير - مارس ١٨٠٠) من جباية الضرائب من بعض أقاليم شرق الدلتا، هذا فضلاً عن تنازل الفرنسيين عن ولاية جرجا لمراد بك، وهو ما حرم الخزانة الفرنسية من جزء مهم من عائدات هذا الإقليم الخصب، خلافاً لبعض القرى الأخرى التى مُنحت لبعض أتباعه من الصناجق والكشاف. ومع ذلك فإن المسؤولين الفرنسيين يُفاجئون بزيادة حصيلة إيرادات عام ١٢١٤ (١٨٠٠) بما مقداره ١٦٪ عن حصيلة عام ١٢١٣ (٩٨ - ١٧٩٩) الذى كانت كل ظروف الإنتاج، خلاله، متاحة بشكل طبيعى، وجميع الأقاليم تحت السيطرة الفرنسية!! الأمر الذى هال الفرنسيين؛ لأنه لم يكن سوى مؤشر بيانى يؤكد، دون شك، تمكن المباشرين الأقباط من الاستحواز على مبالغ ضخمة من إيرادات المالية^(١٤٧).

وتلهب هذه الحقيقة المريعة حماس الجميع وإصرارهم على المضي قدماً في عمل إصلاح جذري للنظام المالي، بحيث يتم غلّ يد المباشريين الأقباط عن السيطرة على مصادر الإيرادات الضريبية.

نحو التهميش

مر الأقباط بين صيف ١٨٠٠ وشتاء ١٨٠١ بفترة صعبة؛ إذ تعرضوا لضغوط غير عادية، بعد أن بلغ ضيق الفرنسيين من مراوغاتهم مداها. وبين كليبر ومنو سوف يُلاحظ اختلاف في أسلوب التعامل مع الموقف القبطي : فبينما يميل الأول إلى التدرج في تقليل الاعتماد على المباشريين الأقباط عبر البحث المستمر والدءوب عن الوسائل التي تحقق المزيد من معرفة الإيرادات المجهولة، كان الأخير (منو) مؤمناً بأسلوب المواجهة التي تتعدد مستوياتها بحسب درجة الإعانات القبطي، بهدف الوصول إلى النتيجة نفسها. وعلى ذلك دخل المباشرون الأقباط، في هذه الفترة، مرحلة عزم الجانب الفرنسي، خلالها، على تهميش دورهم والضغط عليهم؛ للإفضاء بأسرار مهنتهم. وتصبح العلاقة، من ثم، في إطار تصادمات شبه يومية حتى لحظة جلاء الاحتلال.

"اللمّ العمومي" ومحاولة تبسيط الحسابات القبطية المعقدة

كان هم الإصلاح المالي أحد شواغل كليبر المؤرقة، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن موقناً بأهمية الشروع في عمله قبل الإحاطة الشاملة بمصادر الضرائب والإيرادات والتي ما زال المباشرون الأقباط وحدهم محتكرين معرفتها. كان هذا لبّ ما أفضى به كليبر للوكيل المالي شاناليل : "إن إجراء إصلاحات عظيمة في الإدارة يقتضى إعادة تنظيم عظيمة، وليس ذهني متفتحا ألبتة لابتكار عمل كهذا في أربع وعشرين ساعة، حتى وإن طلبت عوناً معرفياً من بعض الأشخاص ذوي الخبرة.. لقد قطعنا بالفعل شوطاً بعيداً في إعداد ذلك الكتاب الشهير الخاص بطبيعة الضرائب في مصر. ولم يعد أمامنا سوى معرفة ما لا حد له من تلك الرسوم الصغيرة، غير المسجلة بالمرة، والتي يبدو أنها مكرسة بحكم العرف فقط Consacrés par L'usage ثم معرفة حصة كل قرية ومسميات هذه الأخيرة، وكل ذلك يحتاج إلى وقت جد طويل، ما دام يجب العمل مع الأقباط" (١٤٨).

وخلافاً لاستقصاء المعلومات عن النظام الضريبي، اجتهد كليبر ومدير المالية الجديد (إستيف) فى التوصل إلى حل مباشر لتبسيط مجمل الحسابات القبطية المعقدة، وذلك عبر مبدئين أساسيين : الأول منهما يتجه إلى تحويل كل الضرائب العينية إلى ما يعادلها نقداً (فيما عُرف بـ "تثمين الغلال")، حتى توحد الأرقام البيانية جميع قوائم الحسابات، ومن ثم يتلاشى الغموض الذى غلف قوائم الضرائب العينية على وجه الخصوص. والمبدأ الثانى يتمثل فى دمج كل الفروع المختلفة للضرائب تحت مسمى واحد "الضريبة العامة النقدية" Contribution générale en argent^(١٤٩)، والتى عربها المترجمون المعاصرون بـ "اللم العمومى" عند نشرهم للصيغة العربية للأمر اليومى (٢٨ أبريل ١٨٠٠). (١٥٠)

وينشئ كليبر "اللجنة الإدارية" Comité administratif: لتتولى مراجعة الحسابات القبطية وفقاً لهذا الترتيب الجديد؛ بحيث يصبح المباشرون الأقباط ملزمين بتقديم قوائم الجباية فى صيغتها المدمجة والنقدية. وبداية كان لابد من تكليف المباشرين بتقديم قائمة دقيقة بكميات الغلال الخاصة بكل قرية؛ حتى يمكن للجنة الإدارية متابعة عملية "تثمين الغلال". ورغم الضغوط المتواصلة، لا يفرج المعلمون الأقباط سوى عن قائمة موجزة un état sommaire. صحيحاً كانت أكثر أهمية مما قدم فى السابق لأعضاء لجنة الحبوب وللمغامرين الرأسماليين (ليفرون وهاملان)، إلا أنها كانت ما تزال دون الحد الأدنى المطلوب لبدء إصلاح النظام الضريبي، الأمر الذى هدد بتجمد الأوضاع، وهذا ما يؤكد سكرتير المالية بيروس : "لقد كان عجزنا دائماً ما يظل حائلاً دون تجديد شىء ما لم تتمكن من رصد كل المعلومات عن طريق الأمة القبطية nation cophte La^(١٥١)، وتوقف بالفعل الاتجاه إلى تطبيق النظام الجديد للضرائب والمحاسبة.

القائمة المفصلة أو الأسر ؟

يبدأ الفرنسيون فى التخلّى عن صيرهم الجُم، الذى تحلوا به على مدار عامين كاملين، قبل مراوغات المباشرين الأقباط، فى اللحظة التى يتولى فيها الجنرال منو القيادة (عقب اغتيال كليبر فى ١٤ يونيو ١٨٠٠)؛ فلم يكن منو مؤمناً بشىء أكثر من إيمانه بأهمية استمرار مشروع بناء مستعمرة مصر، ومن المؤكد أن الممارسات القبطية التى ما تزال

ترك الاحتياجات المادية للجيش، قد تعارضت تماماً مع تطلعاته، حتى لقد وصفهم في رسالته للجنرال رامبون بـ "الروح المدمرة" *L'esprit destructeur* التى يتعين تقويضها وإجلاء وجه مصر منها؛ ذلك لأنهم (والكاثوليك الشوام فى مقدمتهم) : "أكثر سكان هذا البلد خسة وحقارة... بخلاء، مخادعون، جبناء، حقودون، وخسيسون إلى أقصى حد..". ومن ثم فهم غير جديرين بالمشاركة فى تأسيس المستعمرة الجديدة التى يجب أن تقوم على "الأمانة والأخلاق". ومن وجهة نظره الخاصة أن المعلمين الأقباط ارتكبوا خطأ ساذجاً عندما "تصوروا أن الفرنسيين ليسوا سوى مماليك مسيحيين حلوا محل ممالك جورجيين ومسلمين"، وهنا أفصح عن نواياه فى الرسالة ذاتها : "السادة الجدد (الفرنسيون) لن يستخدموهم بالطريقة نفسها التى استخدمهم بها السادة السابقون". (١٥٢)

وإذا كان منو قد أولى، للإصلاح المالى والإدارى، جُلَّ اهتماماته، فإنه يفترض بأن توقف البدء فى الإصلاح على حصول المسئولين المالىين على "القوائم المفصلة" *Les etats détaillés* قد دفعه إلى اعتماد مشروعية كل الوسائل التى من شأنها أن تجبر المباشرين الأقباط على الإفصاح عنها : فقد تحايل مدير المالية (إستيف)، بعد بضعة أسابيع قليلة من ولاية منو، على استدراج كبار المعلمين الأقباط - الأكثر علماً وخبرة - إلى الاجتماع بمنزله، تحت زعم مناقشة خبر مهم، وأغلق الأبواب، معلناً لهم بأنهم، منذ هذه اللحظة، قد اعتبروا مسجونين *Les prisonniers*، وأن الإفراج عنهم مشروط بتقديم القوائم الدقيقة الشاملة "للميرى والكشوفية والفايظ" المربوط على كل قرى مصر قرية قرية (١٥٣).

ولم يكن يستجيب المباشرون لهذا المطلب بسهولة؛ لأنه لا يعنى سوى تقويض كامل لأهميتهم المعرفية التى وحدها كانت السبب المباشر فى استمرار سيطرتهم على إدارة الجباية. ومن ثم أثروا الأسر عن البوح بالمعلومات. وربما كان رهانهم الأخير على حدوث تغيرات مفاجئة فى الموقف السياسى والعسكرى للحملة، أو على الأقل أملوا فى تراجع الفرنسيين عن هذا القرار؛ تحت وطأة الاحتياج لخبرتهم. على أن الحقيقة المؤكدة، بالنسبة للجانب الفرنسى، أن الرجوع عن قرار حبس هؤلاء المباشرين مسألة بدت مستحيلة بقدر استحالة استمرار الهيمنة القبطية على مالية الاحتلال.

وكان من المتوقع أن يمتد التأثير السلبي لهذا القرار على عملية الجباية نفسها : فقد لوحظ في المراسلات المتبادلة بين المسؤولين الفرنسيين تخوفهم من تباطؤ الجباية الأقباط، وخصوصاً في أقاليم الصعيد (١٥٤)، ويفترض بأن ذلك كان نوعاً من الضغط القبطي للإفراج عن كبار المباشرين؛ مستغلين في ذلك شدة حاجة خزانة الحملة إلى تحصيل إيرادات القسط الأخير من عام ١٢١٤ (يونيو - أغسطس ١٨٠٠) قبل بدء موسم الفيضان؛ إذ بعده تتوقف الجباية لمدة أربعة شهور تالية، على حين كانت المالية، في الوقت نفسه، تعاني من أزمة شديدة، ناتجة عن قصور الإيرادات المحصلة عن تغطية أوجه الصرف الضرورية والمتزايدة. وعلى ذلك كان من الأهمية بمكان إنجاز مهمة الجباية سريعاً، وربما لهذا السبب اعتمد "منو" على المعلم يعقوب؛ كيما يحول دون تعثر الجبايات في شتى أقاليم الوجه القبلي (١٥٥) الذي تشتد الحاجة إلى حبوه، في تلك الفترة من السنة؛ حتى لا تتعرض "مخازن الخرج" (مؤن الجيش) للنفاذ، ويضطر الفرنسيون لشرائها بأسعار مرتفعة (١٥٦).

وليس لدينا معلومات عن مدى نجاح المعلم يعقوب في الصعيد، ولكن المؤكد أن المالية ظلت في عثرتها. وكان منو إزاء الصمت المطبق لكبار المعلمين الأقباط المسجونين بمنزل إستيف، قد وجد نفسه مضطراً إلى مواصلة جهود سلفه (كليبر) في جمع المعلومات وتلقى التقارير التي تحمل وجهات نظر مسئولين ماليين في الإصلاح المالي (١٥٧)، ونحو ٨ سبتمبر ١٨٠٠ يُصدر منو أمراً يومياً لكل فرنسي مصر : الجنرالات والمديرين والمسئولين المهمين أن يوافوه بكل المذكرات والتقارير التي تحمل اقتراحات معينة، يمكن أن تفيد في صياغة نظام يصلح شئون الجبايات. ويؤكد ريجو بأن الكثيرين لم ينتظروا أن يدعواهم القائد العام، وقدموا ملاحظاتهم ومذكراتهم للقيادة العامة (١٥٨).

وفي إطار ظروف نجهلها اضطر المعلمون الأقباط المسجونون إلى تقديم "القوائم المفصلة"، بعد فترة من الصمود امتدت على مدار ثلاثة شهور (يوليو - أكتوبر ١٨٠٠). وهذه القوائم التي عُرِفَت - فيما بعد - بـ "دفاتر الترايع" تميزت، بالنسبة للفرنسيين، لأول مرة، بتحديد دقيق للامتداد المساحي والكمي للأراضي وللمكلفات الضريبية

المحملة على كل منها، والتي وُحِدَتْ حساباتها بالنقود: ويؤكد بيروس بأن "إستيف وجد بها كل ما كان بحاجة إليه لبدء الإصلاح وتنظيم قبض حساب إيرادات الأراضي لعامى ١٢١٣ و ١٢١٤ (٩٨-١٧٩٩) ١١ (١٥٩).

والواقع أن إستيف وكل المسئولين الماليين سنوف يكتشفون، فيما بعد، أن المعلمين الأقباط أوقعوا بهم فى خطأ كبير فى هذه الدفاتر، والذي تعلق بالحصيلة الخاصة بكل فروع الضرائب المحملة على كل إقليم. (١٦٠) ويفترض بأن هذا كان سبباً رئيسياً فى انعدام الثقة فى البيانات المقدمة. ولعل مما له دلالة فى تأكيد ذلك ما نلاحظه فى "دفاتر الترايع" من تعمد المباشرين الأقباط، فى مواضع عديدة، ذكر المبالغ والأرقام البيانية مصحوبة بمفردة: "وجه تخمين" أو "درجة تخمين"، وأحياناً يحيلون على أوراق مدير المالية السابق (بوسيلج): "حكم المقيد بدفتر بوساليك بدرجة تخمين" الخ (١٦١) وربما كانت كثرة إحالاتهم على أوراقه، بصفة خاصة، سبباً إضافياً فى إفراط الفرنسيين الشك فى صحة البيانات، ذلك لأن «بوسيلج» حينما رحل لفرنسا، خلال فترة سريان معاهدة العريش، حمل معه كل دفاتره وأوراقه (١٦٢)، وعلى ذلك تأجل البدء فى الإصلاح الضريبى لحين التحقق من صحة البيانات.

وسرعان ما انعكست هذه الحقيقة على كافة التقارير المطروحة أمام القائد العام، والتي اتفقت رؤى أصحابها على ضرورة عمل "مسح شامل للأراضى" والاستغناء عن "الوساطة القبطية" (١٦٣). وسمحت كل التقارير والمذكرات المرفوعة لمنو بإمكان طرح مشروع كامل لإصلاح المالية عموماً وإدارة الجباية على وجه الخصوص، فيما عُرف بـ "المشروع العظيم" Le Grand Projet (٢٠ يناير ١٨٠١) والذي تضمن بنوداً بالغة الخطورة بالنسبة لمستقبل المعلمين الأقباط فى الإدارة المالية برمتها: فقد اتجه منو إلى الاستعانة بـ "مشايخ القرى" عوضاً عن المباشرين الأقباط، فى جباية الضرائب من أهالى القرى، وهو يعبرهم اللقب الخاص بالجباة الأقباط: "الأمين" L' Intendant تأكيداً لتحمل المشايخ المسئولية الكاملة فى الجباية. على حين يختزل دور المعلمين إلى مجرد هيئة

معاونة من الكتبة ومنظمى الحسابات السنوية للقرى *Le compte annuel des villages*، وأقصى ما يكلف به الكاتب القبطى بكل قرية أن يتلقى من مشايخ القرى الحصيلة، ليسلمها لخزانة "المحصل الفرنسى"، ومن ثم تنقطع أى صلة مباشرة بين الكتبة الأقباط والفلاحين بشكل نهائى. ووفقاً لذلك يحرم جميع المباشرين ومرءوسيههم من الحصول على منخصصاتهم فى حصيلة الجباية التى كانت مقررة بـ ٨٪؛ إذ تحدد لكل من شيخ القرية وكاتبها القبطى قيراطاً واحداً ١ / ٢٤ من إجمالى الحصيلة، بحيث يقتسمه الطرفان بنسبة ٢ / ٣ للشيخ مقابل ١ / ٣ للكاتب القبطى، كنوع من التأكيد المادى على تغير الأوضاع. ولما كان مشايخ القرى قد نيط بهم وحدهم، من دون الأقباط، مهمة الجباية، فقد خصهم المشروع بـ ٣ / ٢٤ (ثلاثة قراريط) أخرى من إجمالى المستحقات المحصلة للخزانة، كنفقات جباية (١٦٤).

وعلى هذا النحو، فإن كبار المباشرين الأقباط، بما فى ذلك المعلم "جرجس الجوهري" سوف يتم تهميشهم إلى أقصى حد. ويعد "المعلم يعقوب" الوحيد الذى تم استثناءه من القائمة؛ فقد حظى بتقدير القائد العام الذى أسند إليه مهمة ترشيح الكتبة الأقباط الأكثر تعاوناً وأمانة *Les cophites probes*، ولصعوبة إخضاع هؤلاء الكتبة، فإنه يكلفه - كذلك - بتطويعهم لأن يكونوا مرءوسين لمشايخ القرى بوصفهم الأمناء *Les Intendants cheiks*، إلى جانب جعل هؤلاء المشايخ ممثلين لتوجيهات مدير المالية (إستيف). (١٦٥) ووفقاً لذلك سوف يصبح دور المعلم يعقوب محورياً فى ضبط العلاقة بين جميع الأطراف وفى تسيير دولاب العمل فى النظام الجديد للمالية.

وإذا كان البدء فى تطبيق مشروع الإصلاح مرتبط بعمل المسح الشامل للأراضى، فإن المعلمين الأقباط يواصلون دورهم بصفة مؤقتة، حين إنجاز المسح الذى شكلت له لجنة خاصة كان قد تحدد مباشرتها لهذه العملية الصعبة بدءاً من مارس ١٨٠١ (١٦٦). غير أن ظروف الحرب التى ظهرت طلائعها مع دخول ١٩٥ سفينة حربية إنجليزية لخليج أبو قير فى الثانى من مارس وما تبعه من إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسى (فى معركة كانوب ٢١

مارس) (١٦٧) كان قد تسبب في تعطيل المسح وتأجيل المشروع الذي لن يرى النور؛ حيث أدت الهزيمة إلى اتخاذ قرار الجلاء عن مصر؛ لتتوقف عملية التهميش القبلى، حيث شكلت التطورات الأخيرة سياج حماية للأقباط، ليظلوا بطريقة أو بأخرى محتفظين بموطىء قدم ثابتة فى الإدارة المالية التى يصعب أن نجدها خالية منهم طيلة القرن التاسع عشر.



منح مما سبق أن الدور القبلى فى إدارة الجباية، طيلة فترة الاحتلال الفرنسى، كان دوراً محورياً، وكانت بيد المباشرين الأقباط، لا الفرنسيين، مقدرات الحركة والسكون فى تسيير دولاب العمل بالإدارة المالية؛ بسبب احتكارهم المعرفى لكل المعلومات المتعلقة بالنظام الضريبى، والذي مثل أكبر تحدٍّ واجهته الحملة فى الداخل. وبدون أن نحمل الحقائق ما يتجاوز طابعها الواقعى، كانت المواجهة القبطية حاسمة؛ حتى ليكن القول : بأن هذه المواجهة كانت بمثابة مقاومة من نوع خاص، جرت وقائعها تحت السطح دون أن تتخذ شكلاً تصادمياً عنيفاً؛ بهدف الحفاظ على امتيازهم القديم فى تنظيم وإدارة مجمل الحسابات المالية، ومن ثم تحقيق ما يُعرف بـ "التواصل القوى للدور" والذي قدم - دون مبالغة - نموذجاً فريداً لقيمة "سلطة المعرفة والكفاءة الحسابية"، بوصفها قوة فاعلة، قبل "سلطة القوة والآلة العسكرية": فعلى الرغم من كل الإجراءات التى نُفذت، والتقارير التى رصدت كمّاً غزيراً من المعلومات، إلا أن الفرنسيين لم يستطيعوا الإحاطة بكل حقائق النظام المالى. وبالقدر نفسه لم يستوعبوا كل أساليب المعلمين الأقباط وممارساتهم المختلفة فى المراوغة والتحايل والسيطرة على جزء كبير من مصادر الإيرادات؛ حتى لقد عانى الفرنسيون، معظم فترة احتلالهم لمصر، من أزمة مالية خانقة، تزعم بأنها ساهمت فى إفشال بناء "مستعمرة فرنسية" فى الشرق.

وكان رفض الفرنسيين لاستمرار النفوذ القبلى بالإدارة المالية، الدافع المستمر إلى إدخال تغييرات مهمة على بنية إدارة الجباية : فلأجل تبسيط التعقيدات التى تطبعت بها قوائم الحسابات، ولأجل تحقيق تعددية فى الرقابة المركزية تم توزيع المصادر الضريبية على عدد من الإدارات فى الوقت الذى وجهت فيه ضربات مستمرة لنظام الالتزام،

بهدف جعل العلاقة مباشرة بين الفلاحين والإدارة الفرنسية؛ سعياً إلى القضاء على كل وساطة من شأنها أن تلتهم جزءاً مهماً من حصيللة الإيرادات. غير أن الفترة الحرجة الأخيرة حالت دون فقدان المعلمين الأقباط لمواقعهم المعتادة بين الممولين للضرائب والمحصلين الفرنسيين؛ ومن ثم لم يكن تهميش أقباط المال والضرائب بالأمر السهل أو الهين، وربما يعزى لهذه الحقيقة السبب في استمرارية الدور القبطي بالإدارة المالية لسنوات طويلة في القرن التاسع عشر.

وقد تلقى هذه الدراسة علامات الاستفهام حول مدى استمرارية هذا النوع من الممارسات قبل وبعد الحملة الفرنسية؛ للتعرف على ما إذا كان هذا النموذج سائداً قبل الاحتلال الفرنسي، ولم تكشف عنه سوى هذه المواقف التصادمية مع الفرنسيين أم كان مجرد حالة استثنائية ظلت رهن الظروف التي جاء بها هذا الاحتلال؟

ومن المؤكد أن إحكام المباشرين الطوق على ما كان لديهم من أسرار النظام المالي قد مثل تحدياً للإدارة الفرنسية وتطلب الأمر، من ثم، تفعيل دور الكوادر الفرنسية في رقابتها للمباشرين الأقباط وفي السباق مع الزمن على جمع المعلومات وهذا ما يشكل موضوع الفصل التالي.

هوامش الفصل الرابع

(١) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ص ٤-٦؛ نقولا الترك : المصدر السابق، ص ص ٢٩-٣١.

(٢) تشتمل الأوامر اليومية لبونايرت عبر شهرى يوليو وأغسطس ١٧٩٨ على توجيهات واضحة

بتفويض الأمناء الأقباط بالجباية بشكل عام. راجع على سبيل المثال :

Corres. , t.4, N^o 2858, 2870, 2898, 2910, 2916, 2934, pp. 266, 270, 283,

288, 300, 384;

كذلك راجع مذكراته :

Napoléon Bonaparte : Op.cit., p.275.

(٣) أوضحت دراسة هنرى لورنس حول المرجعية الأيديولوجية لفكرة غزو مصر مدى تأثير كتابات

الرحالة فولنى على بونايرت، حتى عدَّ بالنسبة للآخر بمثابة الولى الفكرى والسياسى . انظر :

لورنس : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية ، ص ص ١٠٦-١٠٧، ١٨٣-١٨٤ كذلك كتابه

: الحملة الفرنسية فى مصر، ص ٣٠.

(٤) توضح ترجمة الجبرتي لكل من المعلم إبراهيم الجوهري وأخيه المعلم جرجس الجوهري سيطرة

المباشرين على إدارة مالية مصر منذ على بك الكبير وحتى السنوات الأولى من عهد محمد

على . انظر :

الجبرتي : عجائب الآثار، ج٢، ص ص ٣٩٥-٣٩٦؛ ج٤، ص ٢٠٥. وحول طبيعة المعلومات

التي قدمها "فولنى" للفرنسيين بشأن السيطرة القبطية على إدارة الجباية من خلال شيخ البلد.

انظر :

فولنى : ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام، ترجمة إدوارد البستاني، بيروت، ١٩٤٩، ص ص

٦٠، ١٤٤-١٤٥.

(5) Peyrusse, A. : op.cit, p. 450.

(٦) انظر الفصل الخامس .

(7) Ordre de Bonaparte, N^o 2895, (30 Juillet 1798); Bonaparte à Mohallem

Djeorgis Edoari, N^o 2951, I (3août 1798) Corres., t.4, pp. 282, 308.

- (8) Bonaparte à Mohallem Djeorgis Edoari, N^o 2951; Bonaparte à Poussielgue, N^o 3052; Dans: Corres., t.4, pp.308, 364.
- (9) Bonaparte au Général Berthier, N^o 3464; Conseil D'administration, N^o 3509; Bonaparte à poussielgue, N^o 3090, Dans: Corres., t.4, p.390; t.5, pp. 57-58, 61-62; 80-81.
- (10) Homsy, G. : Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798-1801), Marseille 1921, pp. 105-6;
ويلاحظ أن أول إشارة إلى "لجنة الخمسة الأقباط" في الأوامر اليومية لبونايرت كانت بين ٣٠ يوليو و ٣ أغسطس ١٧٩٨، أي مع بدايات تنظيم إدارة الجباية . انظر :
la Jonquière : op.cit., t. 11, p. 293.
- (١١) لاحظ هذا بوضوح في تقارير تحصيل الضرائب . انظر على سبيل المثال :
المكتبة المركزية (جامعة القاهرة) : وثائق الحملة الفرنسية، حافظة رقم (196) ملف رقم
(١١١):
- "Etat des sommes perçues et des dépenses de la province de Thêbes (Kéné)", (2 Fev.- 18 juin 1799).
- (12) Vincennes , B⁶ 81: "Etat des recettes et dépenses en argent et en grains de la province de Thêbes pour les années 1212 et 1213", Kénéh (12 Déc. 1799).
- (13) Zayonchek à Poussielgue, (El-Fayoum) (14 Juillet 1799) polonais , p.307.
- (14) Zayonchek à Bonaparte, (Beni Souef), (10 oct. 1798) Ibid., p.96.
- (15) Vincennes, B⁶ 82: "Déclaration d'une vente de moutons et grains au Fayoum".
كذلك انظر : دار الوثائق : دفاتر ترابيع الأموال الديوانية : دفتر ولاية فيوم لسنة ١٢١٢
(١٧٩٩-٩٨)، سجل رقم ٢٢٥٧.
- (16) Vincennes, B⁶ 81: "Comptes relatifs aux revenus en nature de la

Haute-Égypte"

إيصالات باللغة العربية موقعة بأسماء هؤلاء المباشرين.

(١٧) توجد قوائم عديدة حررها للمعلم مينا وترجمها الوكيل المالي بإقليم قنا للفرنسية. (بوثائق الحملة بالمكتبة المركزية- جامعة القاهرة) ويمكن الرجوع على سبيل المثال إلى حافظة رقم (186):

Récapitulation totale de toutes les sommes que le copte mallem Mina a reçus" à Esné, (25 juin 1799).

(١٨) دار الوثائق : دفاتر ترايع الأموال الديوانية "دفتر ولاية المتفوطية" لسنة ١٢١٣ (١٧٩٩-٩٨)، سجل رقم ٢٢٦٥؛ كذلك يوجد تقرير مهم للمعلم بقطر بوصفه مباشر ولاية متفوط في وثائق الأرشيف الفرنسي:

Vincennes, B⁶ 81 :Contribution à par Mallem Boctor intendant de la priovine de Syout".

(١٩) نيل إلى أن الأمر اليومي الصادر بشأن تكوين مجلس يضم كبار الصيارفة بإقليم الجيزة لاختيار أبرز الكتبة بالقرى، قد عُمم على سائر الأقاليم . انظر :

Ordre de Bonaparte, N^o 2898, Corres., t.4, p. 283.

(20) Bonaparte à Berthier, Corres., N^o 2868,p.270.

(21) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 91.

وثمة وثيقة نادرة لتعيين مباشر قبلى تنص على أنه يتعاطى الأموال الديوانية لسنة خراجية واحدة. انظر

سلوى ميلاد : وثائق الواحات، دراسة ونشر وتحقيق ، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٣١ .

(٢٢) لانكريه : وصف مصر، مج ٥، ص ص ٢٣-٢٤. وربما لذلك كان كل كاتب قبلى حريصاً على توقيع اسمه مقترناً باسم مباشر الإقليم. انظر :

"إيصال بتسليم أموال ميرية" محرر باللغة العربية وموقع باسم الكاتب ومرءوسه المباشر القبلى

Vincennes, , B⁶ 81

(*) على حين يشار للكاتب القبطي في الصعيد بـ "العامل"، كان يُعرف في الدلتا بـ "الأمين" أو "الصراف القبطي". انظر:

"Tableau de l'impôt et des contributions de la province de girgê".

المكتبة المركزية (جامعة القاهرة) : محافظ وثائق الحملة الفرنسية، محفظة رقم (196) ملف رقم (VIII).

(23) Ordre de Bonaparte, N° 2858, Dans: Corres., t.4, p.266; La jonquière : op.cit., t.2, p. 285.

جيرار : وصف مصر، مج ٤، ص ١٥٩.

(٢٤) يتراوح عدد القرى التابعة لزام الناحية بين ١٠ : ١٥ قرية، وذلك وفقاً للملاحظة التي رصدها جيرار: نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) استيف : وصف مصر، مج ٥، ص ٩٧.

(26) Ordre de Bonaparte, N° 2858, Corres., t.4, p. 266.

(27) Ordre de Bonaparte, N° 2895, Ibid; p. 282.

(28) Ordre de Bonaparte, N° 3471, Ibid: t.5, p.61 .

(29) Ordre de Bonaparte, N° 2767, Ibid; t.4, p.218.

(30) "Conseil d'administration", N° 3472, N° 3509, Ibid; t.5, pp. 61-62, 80-81.

(٣١) كان يُقال - مثلاً - "المعلم غبريال السادات" (الشيخ السادات)، و"المعلم يوسف الألفي"

(محمد بك الألفي) و"المعلم متقريبوس المورلي" إلخ راجع : زخاريس الأنطوني

(الراهب القس): يوسايات، وهي مقالات الأسقف القديس الأنبا يوساب الأبح، القاهرة

١٩٨٩، ج ١، ص ٢٠

(32) Napoléon Bonaparte : op. cit., p. 82 .

وثمة رسالة من باجاليانو إلى فيال توضح وجود أمر يومي لبونابرت بمسايرة النظام القائم

للدورات الزراعية. انظر:

دار الوثائق، (قاعة البحث والاطلاع) : محفظة بدون رقم، "أصول وثائق الحملة الفرنسية"

ملف 38، وثيقة (8).

Pagliano à Vial, (16 août 1799).

(33) Peyrusse; pp. 464-465.

(34) Zayonchek à Poussielgue, Beni- Souef, (10 avril 1799), Polonais;
p.203-206.

(35) Peyrusse, A. : op. cit., p. 470.

(٣٦) تؤكد المصادر الفرنسية على أنه بعد معركة سلمنت (٧ أكتوبر ١٧٩٨) تحولت مقاومة
الماليك من "الحرب المنظمة" إلى "حرب العصابات". راجع :
نبيل الطوخي : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦-١٣٧ .

(37) Zayonchek à Dugua, Beni-Souef (5 Mai 1799), Polonais..., pp. 239-240;

وقام قاضى محكمة إسنا بتسجيل أولى هذه المنشورات فى سجل المحكمة باعتبار الأخيرة
وسيلة للإعلام . انظر :

دار الوثائق: محكمة إسنا الشرعية، ص (٥٠)، م (٢٧٢)، ص ص ١١١-١١٤ (٢١ ربيع أول ١٢١٣ / ٢
سبتمبر ١٧٩٨).

ولمزيد من التفاصيل حول هذه المنشوات انظر دراسة جوزيف كابرذا التى نشرت مجموعة
الفرمانات التى صدرت فى فترة بونابرت :

Joseph Kabrda : quelques Firmans concernant les relations Franco -
turques lors de l'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798-1799), Paris
1947.

(38) Vincennes B⁶ 81: "Compte de l'impôt et contributions de la province de
Girgé pour L'an 1212 et 1213", (1 oct. 1799); Bonaparte à Poussielgue (24
sept. 1798); Bonaparte à Girgés el-Gouhary, (7 déc. 1798) , Dans :Corres.,
N^o 3379; N^o 3717, t.5, pp. 9; 184-5.

(٣٩) كان المعلم إبراهيم الخلفاوى مباشر ولاية الفيوم أول من ثبت تورطه فى علاقة مباشرة مع
الماليك . انظر :

Zayonchek à Dugua, (10 Avril 1799); à Noble (25 Avril 1799); Polonais,

pp. 207-8; 224-5.

(٤٠) جيرار : وصف مصر ، مج ٤ ، ص ١٥٨ .

(٤١) يلاحظ ذلك فيما تضمنه الأمر اليومي لبونايرت ، فى إطار تنظيمه لحركة نقل قوائم الضرائب بين القاهرة والأقاليم . انظر :

Bonaparte à Berthier, (Pour mettre à l'ordre de l'armée); Corres., t.5, N^o 3464, (14 oct. 1798), pp. 57-8

(٤٢) جيرار : المصدر السابق ، مج ٤ ، ص ص ١٥٦ . ١٥٨ .

(43) Zayonchek à Poussielgue, Beni-Souef, (10 avril 1799), Polonais.. , pp.204-206.

(44) Zayonchek à Dugua, Beni - Souef (14 avril 1799), Ibid: p. 210.

(45) Vincennes, B⁶ 81:

عرض حال لأحد الفلاحين بولاية البهنساوية" بدون تاريخ، وبإمضاء جلوتيه (مدير المالية بالإنبابة أواخر عام ١٧٩٩)

(46) Bonaparte à Zayonchek, (16 août 1798), Corres., t.4, N^o 3030, p. 348.

(47) Zayonchek à Chollet, Bani-Souef, (25 avril 1799) Polonias, p. 225.

حيث تضمنت رسالة زايونشيك نص التوجيهات التى أرسلها بوسيلج إليه ؛ ليبلغها للوكيل المالى شوليه.

(48) Zayonckek à Dugua, (10 Avril 1799); à Noble, (25 Avril 1799); Polonais, pp. 207-8; 224-225.

وكان بوسيلج (مدير المالية) قد تبارى فى الدفاع عن موقف الأقباط الشائك، وهو الحوار الذى سجله دستان (حاكم القاهرة) فى رسالته إلى القائد العام لبونايرت : "إن الخوف أو المصلحة هى التى أمكن لها أن تدفعهم إلى الصمت على استثمارات المالك وتركاتهم... ولا بد أن نحرص على ألا يفقد الأقباط، بشكل متتابع، ثقتنا، لأننا حالئذ نخسر عونا يمكن أن يكون ضرورياً على مدار فترة تالية". راجع:

Vincennes, B⁶ 11: Destaing à Bonaparte (9 Nov. 1798).

(49) Bonaparte à poussielgue, (24 sept. 1798); à Girgès - el- Gouhary, (7 dec. 1798); Corres., t.5, pp. 9; 184-5.

(50) Bonaparte à Girgès -el-Gouhary, (7 dec. 1798), Ibid; pp. 184-5.

(٥١) انظر الفصل الخامس.

(52) Peyrusse, A. :op. cit., p. 472.

(٥٣) تعد تجربة "جيرار" (مهندس الطرق والكباري) نموذجاً بالغ الدلالة ؛ فقد كان متفانياً في جمع المعلومات من الفلاحين، عبر تطوافه لشتى القرى في الصعيد والدلتا، حتى لقد كان زملاؤه يتنادرون عليه ويصفونه بـ "الفلاح". وقد استغرق معظم فترة الاحتلال في تجميع المعلومات والملاحظات التي استند إليها في تأليف عمله المتميز الذي أنجزه بعد عودته لفرنسا، ونُشر في "وصف مصر". انظر جيرار: وصف مصر، مج ٤، ص ٣-١٠.

(٥٤) تشي تفاصيل عديدة يسجلها الجبرتي في يومياته في الفترة من رمضان ١٢١٣ :محرم ١٢١٤ (فبراير - يونيو ١٧٩٩) بترقب المصريين لما قد تسفر عنه حرب الشام من نتائج. ولعل أكثر التعقيبات دلالة ، ما ذكره حال وصول أخبار سقوط "يافا" : "نزل بالناس الكآبة والهم والحزن ما لا يوصف، فإنهم كانوا يظنون بل ويتيقنون استحالة ذلك خصوصاً في المدة القليلة ولكن المقضى كائن". انظر الجبرتي : مظهر التقديس، ص ١١٥.

(55) Zayonchek à Desaix, (27 oct. 1798); à Desaix, (2 Nov. 1798), Polonais..., pp. 109-110, 115.

(56) Zayonchek à Desaix, (31 oct. 1798) , Ibid, p. 114.

(57) Zayonchek à Dumont (27 mars 1799); à Dugua, (19 Mars 1799), Ibid; pp. 188, 192.

(58) Zayonchek à Poussielgue, (29 avril 1799), Ibid; p.230.

(59) Zayonchek à Dugua, (12 Juin 1799), Ibid; p. 258.

(٦٠) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ١١٩-١٢١؛ مظهر التقديس، ص ١٣٦-١٣٩.

(٦١) انظر الفصل الثالث .

(62) Zayonchek à Boyer, (23 juin 1799), à Berthier, (même date), Ibid, pp. 268- 270.

(٦٣) الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ؛ مظهر التقديس ، ص ١٤٥ .

(٦٤) انظر الفصل الثاني

(٦٥) هناك شواهد تؤكد حرص المباشرين علي لفت نظر الفرنسيين إلى أهمية إيداء حسن معاملتهم لمشايخ القرى ، وكان من أوائل من أكدوا هذه المسألة المعلم يعقوب نفسه . وقد أفرد الجنرال بليار لهذه الملاحظة رسالة خاصة للقائد العام . انظر :

Belliard à Bonaparte, (Benisouef), (25 Nov. 1798), La Jonquière, t. 3, p. 358.

(66) Zayonchek à Poussielgue, (10 avril 1799), Polonais.. , pp. 204-206.

(67) Zayonchek à Dugua, (14 avril 1799), Ibid. , p. 210.

(٦٨) دار الوثائق : دفتر ترايع ولاية جرجا لسنة ١٢١٣ ، ص ٢٢٦٧ ونجد بين "إيصالات السداد"

المحررة باللغة العربية ، بوثائق فينسان ، "إيصالات" يؤكد إسقاط بواقى مال ناحية "دومشيه"

(بالهنسا) استناداً إلى "حجة شرعية صحيحة" تؤكد دفع هذا المال للمماليك . انظر :

Vincennes, B⁶ 81

(69) Vincennes, B⁶ 81 : "Comptes relatifs aux Revenus en nature de la Haute-Égypte".

(70) Zayonchek à Friant, (23 sept. 1799); à Reynier, Commissaire aux grains, (30 sept. 1799) Polonais , pp. 332-333.

ونجد زابونشيك - كذلك - ينبه مدير المالية إلى ضرورة اتخاذ إجراءات معينة تكفل ضبط التخفيضات عن الحصص التي شرقت ببعض القرى حتى "تقلل ، قدر الإمكان، من تعرضنا للتضليل والخداع" . انظر :

Zayonchek à Pousseilgue, (14 avril 1799), Ibid, pp. 211-212.

(71) Ordre de Bonaparte, (18 août 1799), Corres., t.5, N^o 4368, p. 568.

(72) Peyrusse, A. : op. cit., p. 467.

(٧٣) راجع على سبيل المثال تقريرى مدير المالية "بوسيلج" ، والمنسق العام للصرف دور

Poussielgue au Directoire exécutif, (9 oct. 1799), Klé., t.3, pp. [141-155];

D'Aure, H. "Après des sommes dues au 6 fruc. An 8, époque à laquelle le général Kléber a pris le commandement de l'armée." Dans: copies of original letters, V.3, pp. 57-59.

(74) Kléber au Directoire, (26 sept. 1799), Klé., t.2, p.520..

وأكد ذلك أيضاً تقرير مدير المالية . انظر :

Poussielgue à Sièyes, Membre au Directoire exécutif, (21 Nov. 1799) en :
Lettre de M. Poussielgue, Accompagnée de pièces justificatives à M.
Thiers, autour de l'Histoire du Consulat et de l'Empire, Paris 1845, p.36.

(75) Vincennes, B⁶ 183: Poussielgue à Desaix, (23 août 1799).

كذلك أشار كليبر إلى أن بدء الجباية لعام ١٢١٤ تتوافق مع شهر فرمير (٢١ نوفمبر - ٢٠
ديسمبر ١٧٩٩) راجع :

Kléber au directoire, (8 oct. 1799), Klé., t.3, pp. 79-80.

(٧٦) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ١٣٥.

(77) Peyrusse ; A., Op. cit.,p. 465.

(78) Kléber au payeur général, (4 oct. 1799), Klé., t.3, p. 127.

(٧٩) لم يفت كليبر الإشارة إلى هذه المسألة في تقريره لحكومة الإدارة باعتبارها إحدى عوامل
الأزمة المالية . انظر :

Kléber au Directoire, (8 oct. 1799), Ibid, pp. 79-80.

(80) Kléber à Poussielgue, (11 sept. 1799); Ibid, p.28.

(81) Kléber à Poussielgue, (13 sept. 1799), Ibid, p. 48.

(82) Kléber à Zayonchek, (4 sept. 1799), Klé.,t.3, p.15 ; Désaix à Belliard, (14
sept. 1799).

(83) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Pini, (9 nov. 1799); à Friant, (25 oct.1799).

(84) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 oct. 1799), Klé., t.3, p. 145;

(85) Ibid; p. 146.

كما يؤكد ذلك أيضاً رسالة رينيه إلى زايفونشيك : "ليس الموضع المملوء بالغلال، والواقع بين يدي الفلاحين، إلا في حالة فقد فعلى، ومن ثم يتعين أن نعطي الأقباط الحماية ونشط جبايتهم..".

Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Zayonchek, (27 oct. 1799).

(٨٦) كثيراً ما يشير إلى ذلك رينيه في عدد كبير من مراسلاته . انظر على سبيل المثال :

Vincennes, B⁶ 161: Reynier au général Friant, (25 oct. 1799); à Poussielgue, (27 nov. 1799)

(87) Ordre de Kléber (14 sept. 1799), Klé., t.3, pp.53-54:

وقد حرر إستيف الأمين العام للصرف هذا الأمر ضمن منشوراته لمرءوسيه مندوبى الصرف بالأقاليم. انظر :

Vincennes, B⁶ 94 : "circulaires du payeur général de l'Armée de la Méditerranée", pp. 201-202.

(٨٨) تؤكد وثائق "محكمة منفلوط الشرعية" قيام العمال الأقباط بتحميل الغلال (حتى أغسطس

١٧٩٩) على المراكب وتوجيهها باسم "المعلم جرجس الجوهري" . انظر :

دار الوثائق : محكمة منفلوط الشرعية، (إشهادات)، ص ٤، ص ٧١، م ٢٢٢؛ م ٢٢٣ (٤ ربيع أول ١٢١٤ / أغسطس ١٧٩٩).

(89) Circulaire de Poussielgue, (30 sept. 1799).

دار الوثائق : محفظة ٤٦، ظرف ١ . ويلاحظ كذلك بأن "الخيول" خضعت للإجراءات

نفسها، بوصفها إحدى الضرائب العينية، فكان يتم تسليمها للصراف الذى يتعين عليه أن

يقدم للعامل القبطى إيصالاً بها Reçus de chevaux انظر :

Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Cordier, (2 jan. 1800)

(٩٠) انظر الفصل الثالث .

(91) Ordre de Kléber, (16 sept. 1799), Dans: Kléber et Menou., pp. 41-42.

(92) Peyrusse, A., op.cit., p. 471-472.

(٩٣) سوف يعلن كليبر (فى ٢٢ مايو ١٨٠٠) أنهم أحرزوا تقدماً ملحوظاً فى إعداد كتاب "طبيعة

الضرائب في مصر " *La nature des impôts en Égypte* وأهميته فإنه يصفه " بالكتاب الشهير " *livre fameux* ويؤكد أنه لم يحو بعد العديد من الضرائب غير المعروفة. انظر :

Kléber à chanaleilles, agent français, (22 Mai 1800), Kléber et Menou..., p. 296; Klé., t.4, pp. 914-15.

(٩٤) دار الوثائق : دفتر ترابيع ولايت جرجه لواجب سنة ١٢١٥ ، من ٢٢٨١. والعبارة التقليدية في نهاية الدفتر تشير إلى: "بلاد الولاية المذكورة تتبع النيل كل سنة بالمساحة والقياس وأما الشراقي ترفع لهم ... ومنه يزرعوا كثير ومنه يزرعوا قليل.. والاعتماد على المساحة .". كذلك انظر:

حسين افندى : المصدر السابق ، ص ٣٤.

(95) Vincennes, B⁶ 81: "Etat des recettes et dépenses en argent et en grains de la province de Thêbes pour les années 1212 et 1213".

ويقدم الوكيل المالى فى نهاية التقرير شهادته عن تحصيله لمجمل الضرائب من المعلم رفائيل والمعلم مينا.

(96) Vincennes, B⁶ 183: Poussielgue à Zayonchek, (5 sept. 1799).

(97) Zayonchek à Reynier, (10 Nov. 1799), Polonais..., p. 342.

(98) Zayonchek à Reynier, (25 oct. 1799), Ibid, p. 340.

(99) Poussielgue à Zayonchek, (2 nov. 1799), Ibid; p. 340, (Note 3).

(100) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Friant, (18 Nov. et 25 Déc. 1799).

(101) Ravier à Reynier, Minieh, (30 Nov. et 17 Déc. 1799)

دار الوثائق : محفظة ٤ ملف بدون رقم.

كذلك يكتب الجنرال بلياز إلى الوكيل الفرنسى بتروشى فى الموضوع ذاته بالنسبة لقرى مصر العليا : "يجب مسح الأراضى، فالضريبة تحصل بناءً على المساحة التى يتعين التعرف عليها قبل جباية الضرائب".

Belliard à Petrucci, (21 Déc. 1799).

دار الوثائق : محفظة ١٥، ملف ١١، ورقة ٣٧.

(102) Ravier à Reynier, (17 Déc. 1799).

الأرشيف نفسه : محفظة ٤ ملف بدون رقم .

(103) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Mohallem Djeorgis Edjoari, (1 Nov. 1799; et 5 Jan. 1800); Reynier à Tallien, (5 jan. 1800); Reynier à Ravier, (13 Jan. 1800)

(104) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Djeorgis Edjoari, (5 jan. 1800).

(105) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Mohallem Djeorgis Edjoari, (1 Nov. 1799).

(١٠٦) فاطمة الحمراءوى : المرجع السابق، ص ٢٨٢؛ نبيل الطوخى : المرجع السابق، ص ٢٦٣.
(ويعود تاريخ وثيقة الشكوى إلى ٣١ ديسمبر ١٧٩٩).

(١٠٧) لم يقتصر الأمر على الصعيد وحده، وإنما امتد ليشمل عدداً من أقاليم الوجه البحرى وخاصة ما كان واقعاً منها شرق الدلتا. انظر على سبيل المثال :

Vincennes, B⁶ 197: Friant aux checks des villes et villages du 5^{em} arrondissement, (sans date)

والوثيقة حرر منها نسخة باللغة العربية لتوزيعها على مشايخ القرى والبنادر ، كذلك انظر : رسالة فرديه إلى كليبر بشأن حسن طوبار الذى امتنع عن تسديد حصيلة التزامه البالغة ٣٠,٠٠٠ بوظافة!

Verdier à Kléber, Damiette, (Le Déc. 1799).

دار الوثائق : محفظة (١٥) ورقة بدون رقم .

(١٠٨) هنرى لورنس : الحملة الفرنسية فى مصر، ص ٤٥٠؛ ريمون : المصريون والفرنسيون فى القاهرة، ص ١٦١.

(١٠٩) جاء فى "مظهر التقديس" للجبرنى : "تواترت الأخبار بوصول حضرة الوزير الأعظم.. ورجال الدولة واستمر الأمر على الانتظار وترجى حصول الفرج آتاء الليل وأطراف النهار". ومع تحقق سقوط حصن العريش : "حصل الفرج العظيم بمبدأ هذا الفتح..". ثم عاد الجبرنى فى نسخة عجائب الآثار ليحذف هذا النص، فيما يشير إلى امتعاضه من أحكام العثمانيين بعد

أن عادت لهم السيطرة على مصر. راجع :

الجبرتي : مظهر التقديس، ص ١٥٧؛ عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٤٠.

(*) كان "القرش أبو طاقة" أو "بو طاقة" يعادل بـ ٩٠ بارة في فترة حكم على بك الكبير (١٧٧٢)

وأصبح يعادل ١٥٠ بارة عند دخول الفرنسيين مصر (١٧٩٨) بسبب تضخم قيمة البارة.

انظر:

استيف : وصف مصر، مج ٥، ص ٩٤.

(110) Arrêté relatif au recouvrement des contributions par le général en chef

Kléber, (21 Déc. 1799), Klé., t.3, pp. 321-322; Kléber et Menou, pp.

153-154.

(111) Ibid; Kléber à Zayonchek, (26 déc. 1799), klé, t.3, p. 358.

(112) Arrêté de Kléber relatif au recouvrement des contributions, (31 Déc.

1799), Ibid., t.3, p. 378.

(113) Peyrusse, A., op.cit., p. 465.

(114) Kléber à Dugua, (18 jan. 1800), Klé., t. 3, p. 485; Kléber et Menou., pp.

192-193.

(115) Desaix et Poussielgue à Kléber, au camp des conférences, près d' El -

Arich, (24 Jan 1800), Klé., t.3, pp.531-2.

(116) Procès - verbal du conseil de guerre tenu au camp de Salahieh, (21 jan.

1800), Ibid., t.3, pp. 498-99.

(117) Kléber à Dugua, (18 jan. 1800). Ibid., p. 485.

(118) Vincennes, B⁶ 110: Dugua à Kléber, (20 jan. 1800).

وبلاحظ أن الجنرال دوجا في تحليله لمواقف المتعاونين مع الفرنسيين وحد في الموقف بين

المشايخ والمسيحيين عموما (أقباط وشوام). كذلك يمكن الرجوع لتقارير جون كيث (سكرتير

سيدني سميت قائد الأسطول الإنجليزي) الذي كان في مهمة في القاهرة إبان سريان تطبيق

المعاهدة من ١٠-١٦ مارس ١٨٠٠ - فقد أوضح أن الأقباط هم الأكثر انزعاجا وأنهم كانوا

مجبرين على التعاون مع الحملة. وقد نشر هنري لورنس تقارير كيث في يوميات كبير . انظر:

Rapports de Keith à Sidney Smith, (10-16 Mars 1800) Klé., t.4, pp.

683-697;

هنري لورنس : الحملة الفرنسية في مصر، ص ٤٦٨.

(١١٩) راجع هذا الاقتباس في دراسة :

نبیه کامل داود : "الحملة الفرنسية على مصر في ضوء كتابات الأقباط المعاصرين لها" في :

أسبوع القبطيات السابق، كنيسة العذراء بروض الفرج، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٣٢؛ وقد أكد

الجبرتي هذا الخبر كذلك . انظر :

الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٧٩.

(١٢٠) الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٧؛ نبیه کامل داود : المرجع السابق، ص ص ١٣٢،

١٣٤ . ولمزيد من التفصيل حول الفترة المضطربة في مصر في العقدين السابقين على مجيء

الحملة انظر : مجهول : تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠، المكتبة الوطنية -

باريس: ARABE, N^o 1856.

(121) Rapport de John Keith à Sidney Smith, Cairo, 10th March 1800) Klé., t.4,

pp.683-9; Vincennes, B6 110: Dugua à Kléber, (20 jan. 1800); Dugua à

Zayonchek, (25 jan. 1800)

وفي الرسالة الأخيرة يشير دوجا إلى أنه عقب نجاح المفاوضات ابتعد البكوات عن الجيش

التركي .

(١٢٢) لعل أول إشارة إلى نوايا العثمانيين جاءت في "محاضر المفاوضات" حيث أبدى ممثلو الباب

العالي للجانب الفرنسي العزم على طرد الماليك من مصر نهائياً. راجع :

محمد فؤاد شكرى : عبدالله جاك ميتو وخروج الفرنسيين من مصر، دار الكتاب العربي،

القاهرة ١٩٥٢، ص ١٥٨.

(123) Menou au Premier Consul Bonaparte, Rosette, (19 Mars 1800), Klé., t.4,

pp. 771-2.

(124) Desaix et Poussielgue à Kléber, au camp d'El-Arich, (30 jan. 1800), Klé.,

t.4, p. 556;

الجبرتي : عجائب الآثار، ج ٣، ص ص ١٤٨-١٤٩، ١٥١، (والكيس ٢٥.٠٠٠ بارة ومن ثم فالحصيلة يصل إجمالها إلى ٧٥ مليون بارة).

(125) Napoléon Bonaparte : Campagnes d' Égypte, pp. 304-5;

كذلك أشارت "كورييه" لهذا اللقاء وذكرت في خاتمة المقال : "لم يكن البكوات مطمئنين إلى طابع الاستقبال الذي يتوقعونه من الصدر الأعظم ولا إلى مصيرهم النهائي". انظر : كورييه دي لييجيت، عدد (٦٣) (٨ مارس ١٨٠٠)، ص ٢٤٣.

(126) Kléber à Dugua, (14 jan 1800) ; Kléber à Estève , (en même date), Klé., t.3, pp. 447-448, 449.

(127) Kléber à Dugua, (18 jan 1800), Ibid, p. 485.

(١٢٨) الواقع أن خدماتهم المعتادة للفرنسيين، في مجالات بعيدة عن جباية الضرائب ظلت متواصلة طيلة سريان معاهدة العريش ولم تتوقف إلا تحت الحصار الشديد الذي تحوط بهم إبان ثورة القاهرة الثانية، في ٢٢ مارس ١٨٠٠ انظر :

Damien à Kléber, (22 Mars 1800) .

دار الوثائق : محفظة ١٩، دوسيه ٢١، ورقة ١٤.

(١٢٩) ثمة إشارة إلى وصول مبلغ ٨٠ ألف فرنك (حوالي ٢٥ ألف قرشا) من أقاليم الصعيد للخزانة، وقد أبدى كليبر ارتياحه لذلك؛ توسماً في استمرارية تواصل التحويلات النقدية.

Kléber à Estève, (18 jan. 1800), Klé. , t.3, p. 487.

(130) Kléber à Estève, (12 et 22 jan. 1800); à Dugua, (18 Jan. 1800), Klé., t. 3, p. 487; t.4, pp. 513, 515.

(131) Estève à Kléber, (22 Mars 1800),

دار الوثائق : محفظة ١٩، دوسيه ٢١، ورقة ١٢.

(132) Kléber à Poussielgue, (6 Mars 1800), Klé., t.4, p. 615.

(133) Peyrusse, A., op. cit., pp. 467, 468.

(134) Ordre du jour de Kléber, (28 avril 1800), Dans : Pièces officielles de

l'armée d Égypte, t.2, pp. 280-284; Klé, t.4, pp. 850-854.

(١٣٥) يتضح ذلك من رسالة مدير المالية بوسيلج إلى الجنرال دونزلوه : "ليس للوكلاء الأقباط بصعيد مصر مرتبات ثابتة وإنما يخصص لهم ٦٪ من الحصيلة المحولة. وأن هذا يمثل حالة خاصة بهم بين كل الموظفين الأقباط بالمالية". انظر:

Vincennes : B⁶ 183: Poussielgue à Donzelot, (4 Juin 1799).

(136) Kléber à Chanaleilles, (22 Mai 1800), Kléber et Menou..., p. 296; Klé., t.4, pp.914-15.

(137) Kléber à Dugua, (16 Jan. 1800); à Friant, (17 Jan. 1800), Klé., t. 3, pp. 467, 468.

(١٣٨) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ١٥١.

(١٣٩) دار الوثائق : محكمة إسنا الشرعية (إشهادات)، ص ٥١، ص ٢٨٤، م ٦٧٦ (٢٥ ذو القعدة ١٢١٤ / ٢٠ أبريل ١٨٠٠).

(١٤٠) قدر الجنرال دونزلوه حصيلة ما جمعه درويش باشا ب (٧٥,٠٠٠ قرشاً) خلافاً للمواشى التي وصلت للقاهرة وعددها ٣٠٠٠ رأس، وحملت الغلال على أربعين مركباً. راجع :

Donzelot à Kléber, (14 Mai 1800), : Pièces Diverses et correspondances relatives aux opérations Militaires et politiques de l'armée d'Orient en Égypte, Paris an IX (1801), pp. 301-302; D'aure à Jacquin, à Beni - Souef, (23 Mai 1800),

دار الوثائق : محفظة ٤٢ ظرف ١، ورقة بدون رقم.

(١٤١) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ص ١٤٨-١٤٩.

(142) Peyrusse; A., op. cit., pp. 468-69.

(١٤٣) يلاحظ في قوائم الوكيل المالى بتروشى أن حصيلة مال الياضى التي تجبى بين (مارس -

مايو) بلغت ٨٨٪ من جملة الإيرادات . انظر :

"Tableau de l'impôt , pp. 52-4.

المكتبة المركزية (جامعة القاهرة) : محافظ وثائق الحملة الفرنسية : محفظة تحت رقم (196)

ملف رقم (VIII G).

(١٤٤) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٣، ص ص ١٨٥-١٨٦.

(145) Note officielle de la part du général en chef Kléber, concernant la conduite à tenir par le très Illustre et honoré Mourad Bey, Klé., t.4, pp. 806-7.

(١٤٦) رسالة مراد بك إلى دونزلوه، رقم (٥٤) بتاريخ ١٤ محرم ١٢١٥ (٧ يونيو ١٨٠٠).

(147) Peyrusse, A., op.cit., pp. 468-9.

(148) Kléber à Chanaleilles, (22 Mai 1800), Klé., t.4, pp.914-15;

(149) Ordre du jour, (28 Avril 1800), Ibid, t.4, pp. 850-54; Peyrusse, A. : op.cit., pp. 467, 472.

(١٥٠) نشر الصاوي في ملاحق دراسته جزءاً من الصيغة المعربة للأمر اليومي (٢٨ أبريل ١٨٠٠) وبها نجد مصطلح "الضريبة العامة" معرباً إلى "حسابات المدخول من اللم العمومي". راجع الصاوي : المرجع السابق، ملحق رقم (٧٧).

(151) Peyrusse, A. : op.cit., p. 467.

(152) Menou au général Rampon, (26 Déc. 1800), Kléber et Menou..., p.381.

(153) Peyrusse, A. : op. cit., p.467; Histoire Scientifique, t. 6, p.70; Rigault, G : op.cit., p. 245.

(154) Belliard à Zayonchek, (3 août 1800); Belliard à Danzelot, (3 août 1800).

دار الوثائق : محفظة ٣٠، ملف ١٢، ورقة ١٠، ١١.

(155) Menou à Mallem Jacob, (1 août 1800); Menou à Damas, (1 août 1800); Damas à Zayonchek, (même date).

دار الوثائق : محفظة ٣٠، ملف ١٤، ورقة ٨، ٩، ١٥.

(156) Belliard à Gressin, Commandant à Minieh, (3 août 1800).

الأرشيف نفسه : محفظة ٣٠، ملف ١٢، ورقة ٩؛

D'Aure à Menou, (14 août 1800)

الأرشيف نفسه : محفظة ٥٠، ظرف ٥، ورقة ٣٢، ٣٣.

(157) Rigault, op. cit., pp. 250-251.

هنري لورنس : الحملة الفرنسية، ص ص ٥٢٨-٥٢٩.

(158) Ibid.

(159) Peyrusse, A. : op. cit., p. 467.

(160) Ibid., pp. 472-473.

(١٦١) راجع على سبيل المثال الدفاتر التالية :

دار الوثائق : ترابيع الأموال الديوانية بالولايات : دفتر ترابيع ولاية الأشمونين ومال نواحي
مذكور سنة ١٢١٣، من ٢٢٦٤؛ دفتر ترابيع ولاية جرجا سنة ١٢١٣، من ٢٢٦٧؛ دفتر ترابيع
ولاية منلقوطية سنة ١٢١٥، من ٢٢٦٥.

(162) Rigault : op. cit., p. 113.

(١٦٣) هنري لورنس : الحملة الفرنسية، ص ص ٥٢٨-٥٢٩.

(164) Ordre du Jour, (20 Jan. 1801), Kléber et Menou..., pp. 382-393.

(165) Ibid; Rigault, G : op.cit., p.258.

(166) Rigault, G : op.cit., pp. 258-259.

ونشرت صحيفة "كورييه دي ليجيت" خطاباً من لجنة المساحة إلى مينو توضح فيه خطة
العمل والترتيبات المعدة لبدء المسح.

انظر: كورييه دي ليجيت، عدد رقم (١٠٧)، ص ص ٣٩٥-٣٩٦.

(١٦٧) هنري لورنس : الحملة الفرنسية، ص ص ٥٧٠-٥٧٥.

الفصل الخامس

الكوادر الفرنسية ودورها فى الرقابة على الحسابات المالية

إذا كان نقل السلطة إلى الفرنسيين مسألة تحسمها العمليات العسكرية الجارية ضد المماليك - فإن تحقيق السيطرة على الموارد الضريبية وكل مصادر الإيرادات كان أمراً مغايراً ومعقداً فى الوقت نفسه ؛ إذ يقتضى ، بالضرورة ، الإلمام بكل المعلومات والبيانات المتعلقة بالنظام الضريبى ؛ وفهم العادات المرتبطة به ؛ لأجل تفادى الاصطدام بالممولين للضرائب ؛ وكسب ثقتهم فى التعامل الإيجابى مع المسئولين الفرنسيين . وكل ذلك لابد أن يأخذ وقتاً إضافياً ، تالياً لعملية إخضاع الأقاليم للنفوذ الفرنسى ، ومن ثم فإن التحكم فى إدارة مالية البلاد يقتضى - حتماً - المرور بـ «مرحلة انتقالية» . وكان هذا - فى الحقيقة - لبّ ما أفصح عنه بونايرت فى مذكراته : فالاستعانة بالمباشرين الأقباط (سنة النظام القديم) وسيلة لنقل خبرتهم إلى « وكلاء فرنسيين » Agents français ، ما إن يتم إحاطتهم ، على نحو دقيق ، بالكيفية التى يُدار بها النظام المالى ، حتى يتم تنحية هؤلاء المباشرين عن مواقعهم التقليدية ، ويطلق الفرنسيون سيطرتهم الكاملة على الإدارة المالية^(١).

ويبدو أن الأمر فى البداية لم يكن واضحاً فى أذهان المسئولين الفرنسيين ؛ مما اضطر بونايرت إلى توضيح مقصده ، فكتب للجنة الإدارية La Commission administrative كاشفاً عن عمق فكرته : « ليس ما أرمى إليه ، أيها المواطنون ، أن أرفع المباشر القبطى فوق الوكيل الفرنسى ، وإنما هدفى أن الأخير يظل بجانبه إلى الوقت الذى يصبح فيه أكثر دراية بعادات ولغة البلاد ، وأن يكون متمكناً من تقديم المعلومات التى تطلب منه »^(٢).

وعلى ذلك فإن إلحاق المباشرين الأقباط بإدارة الجباية لم يكن له من غاية سوى إكساب الوكلاء المراقبين Agents contrôleurs المعرفة القبطية بحسابات الضرائب . وإذا كان قد اتضح لنا ، عبر الفصول السابقة ، مدى تمكن المباشرين ، فضلاً عن الأفندية ومشايخ القرى ، من احتكار المعلومات ، والحفاظ على مواقعهم ، طيلة فترة الاحتلال

الفرنسى - فإنه لمن الأهمية أن تناقش ، فى هذا الفصل ، الأسباب التى كانت وراء إخفاق المسئولين الفرنسيين فى رقابتهم على الكوادر المحلية ، وتقديم فهم واضح للصعوبات التى حالت بينهم وبين إيجاد مصادر أخرى للمعلومات ، وعلاقة هذه النتيجة بمسار تطور جهاز الرقابة على الحسابات المالية ، وهو ما يساعدنا على تحليل الخلفية التى تبلورت فى إطارها الأزمة المالية الخائقة التى عانى منها الجيش معظم فترة احتلاله لمصر



المعروف أن حركة إرسال الوكلاء الفرنسيين قد اتسقت مع تعيين المباشرين الأقباط، بحيث صار فى كل إقليم ، جرى إخضاعه للنفوذ الفرنسى ، وكيل ومباشر قبضى ، يتوليا معاً تنظيم عملية الجباية . ونرصد فى أرشيف الحملة توزيع الوكلاء على سبعة أقاليم رئيسية فى الصعيد (أطفيح - الفيوم - بنى سويف - المنيا - أسيوط - قنا - جرجا) . ولكل وكيل هيئة مكتبية من المساعدين والمترجمين^(٣) .

واهتم القائد العام بونايرت بتحديد نطاق العمل بين الوكلاء والمباشرين ؛ فالمباشرون يتولون حصر القرى وعمل قوائم بها ، وتسجيل عدد الأفدنة المزروعة ، وتحديد قيمة المستحقات الضريبية عليها ، وجبايتها من أهالى القرى ، على حين يُنَاط بالوكلاء الفرنسيين رقابة سلوك الجباة الأقباط ، والتعرف على طرائقهم فى تدوين الحسابات ، والتأكد من تنفيذهم للتعليمات والأوامر ، إلى جانب تقديم ملاحظاتهم حول إمكانات زيادة مصادر دخل خزانة الجيش^(٤) .

وينظم «الأمر اليومى» الصادر فى ١٤ أكتوبر ١٧٩٨ دينامية العمل بين إدارة الوكلاء فى الأقاليم والإدارة المركزية بالقاهرة: فالمدبر المالى بالقاهرة يرسل للوكيل قائمة القرى والضرائب التى تخص إقليمه، والتى يستند إليها فى ضبطه ومراجعتها لقوائم التحصيل Les recouvrements d'etats التى يقدمها المباشر الأقباط. ويتعين على الوكيل المالى أن يرفع تقريراً، كل عشرة أيام ، لمدبر المالية ؛ حتى يتمكن الأخير من متابعة حركة الجباية، ويتعرف، عن كُتب، على الصعوبات المختلفة التى تعترض الوكلاء فىعمل على إزالتها ، ومن ثم يتحقق التفاعل النشط بين إدارة الرقابة (الوكلاء) والإدارة المركزية

بالقاهرة، ويوضح الأمر اليومى أيضاً دور الجنرالات، قادة الأقاليم، فى عملية الجباية، وفى مساعدة الوكلاء بدوائهم فى التصدى للمشكلات التى تعترض عملية تحصيل الضرائب: فالوكيل يرفع تقريراً للجنرال حاكم الإقليم يوضح فيه قائمة القرى التى وفّت والأخرى التى لم تتجاوب ولم تدفع؛ حتى يُرسل إليها طابوراً عسكرياً يجبرها على سداد المستحقات. وإذا كان الجنرالات ليس لهم صلة مباشرة بالإدارة المالية، فإن الوكلاء يصبح منوطاً بهم الدور المحورى فى نقل الأوامر والتعليمات الخاصة بـجباية الضرائب للجنرالات بالأقاليم^(٥).

وبداهة كان كل شىء يتوقف على وصول قائمة القرى والضرائب للوكلاء. ولما كان المباشرون الأقباط لم يقدموا سوى قوائم عامة، تتضمن إجمالى ما هو مستحق على كل إقليم دون إعطاء التفاصيل المهمة بعدد القرى ومسمياتها ومواقع توزيعها داخل الإقليم، ومعدلات الضرائب على كل منها^(٦)، فقد وجد الوكلاء أنفسهم فى حيرة شديدة؛ إذ كيف يمكنهم ضبط الحسابات دون هذه القوائم؟ وربما يفسر ذلك حرص الوكلاء على تضمين التقارير التى حرروها فى نهاية موسم الجباية، بشهادة كل منهم: «هذا ما أعلنه لى المعلم القبطى.. عما تم تحصيله من مستحقات ضريبة الميرى من مختلف قرى الإقليم..»^(٧) دون إشارة إلى مراجعتها على دفاتر أخرى (أصلية)، وكأن الأمر بات مجرد حركة تسجيل لما أفصح عنه الجباة الأقباط، تفقد «الرقابة» على الحسابات مضمونها، إلى الحد الذى يتصور معه الجنرالات بأن دور الوكلاء قد أصبح باهتاً، وبشكل يكاد يدل على بطلان عملهم!^(٨)

هل ثمة مصادر بديلة للقوائم القبطية؟

وظل المباشرون الأقباط يدعون عدم امتلاكهم تلك القوائم وجهلهم معرفة جميع القرى وكل حائزها. وطال انتظار الوكلاء والجنرالات دون طائل؛ مما حدا بهم إلى المضى فى جباية الضرائب بشكل عشوائى^(٩). فى الوقت الذى لا يمكن فيه البحث عن مصادر بديلة؛ ولا سيما فى ظل مناخ متوتر بين القرى والفرنسيين: فلم يكن من السهولة تطويع مشايخ القرى لتقديم المعلومات؛ فقد كان بينهم وبين الجباة الأقباط

رصيد سابق من الخبرة فى تنسيق المواقف التى تحمى مصالح الجانبين^(١٠). وكان الفرنسيون يدركون أن المشايخ فى حوزتهم دفاتر الضرائب الخاصة بقراهم ، وإنهم ، من ثم ، يمتلكون المعرفة التى لدى المعلمين الأقباط ، ومتى أفضوا بما عندهم للوكلاء الفرنسيين ، فسوف يمكنهم إمطة اللثام عما هو مجهول وغامض^(١١).

ولم يكن الإبقاء على مخصصاتهم الواسعة من الأراضى المعفاة من الضرائب (مسموح المشايخ) بكاف ؛ لإغرائهم على التفاعل الإيجابى مع الإدارة المالية ؛ وبالقدر نفسه لم يكن اللجوء إلى سياسة القبض عليهم وإلقتهم فى غياهب سجون القلعة ؛ لتثنيهم عن موقفهم ؛ فأحد منهم لم يكن ليراهن على سلطة الاحتلال التى لم تنعم بالاستقرار ولذلك لم تُجد سياسة القبض عليهم فهى على حد قول مدير المالية : «وسيلة بطيئة ولا تصادف نجاحاً فى كل مرة ..»^(١٢).

وكثيراً ما شكل المشايخ ، عقبة كئوداً أمام الوكلاء والجنرالات ، فى تسوية حسابات القرى ؛ فقد كانوا يتحصلون من الفلاحين الضرائب ثم يرفضون تسليمها للصراف الفرنسى . ولعل رسالة مساعد الجنرال بويه إلى الجنرال ديزيه ، بخصوص مشايخ ناحية «دلجا» (Delgé) ، تلقى الضوء على جانب من الحوار الذى كان يدور بين المشايخ والجنرالات : فلما وجه بويه تساءوله للمشايخ عن السبب الذى يمنعهم من تقديم الضرائب التى تحصلوها من الفلاحين ، أجابوه بأنه «القدر» L'Ader ، وبعد لآى فهم الجنرال بأن هذه الكلمة «مصطلح يعنى أنهم لن يعطوا لنا لا المال ولا الغلال» الأمر الذى اضطره إلى سجنهم ، والمطالبة بمصادرة ممتلكاتهم . غير أن الضغوط لم تسفر عن نتيجة ذات بال ، بل وجاءته تعليماته بالإفراج عنهم ، فأنبرى يكتب للجنرال ديزيه ، فى أسلوب ساخر : « إن تراخيها معهم سوف يظهر لأهالى القرى ضعفنا .. والجمهورية لن تحصد من القرى سوى «القدر» !»^(١٣).

ويلاحظ الفرنسيون الشئ نفسه مع «فلاحى القرى» الذين لم يكونوا أقل متابعة للموقف ، وخاصة أنهم وجدوا أنفسهم مستهدفين من الجانبين (الفرنسى والمملوكى) ، فى ظل الصراع على السيطرة على الموارد الضريبية ، الأمر الذى جعل هؤلاء الفلاحين

أكثر إحساساً بفقدان الثقة فى تحول السلطة ، بشكل حاسم للفرنسيين ، وكان الجنرال زاينشيك ، من واقع احتكاكه بفلاحى مصر الوسطى (المنيا - بنى سويف - الفيوم) قد لفت نظر قائمقام القاهرة الجنرال دوجا إلى هذه المسألة ؛ حيث أوضح للأخير بأن الفلاحين ألقوا باللوم على الجيش الفرنسى ؛ لأنه لم يحسم أمره مع المماليك « بما جعلهم فى حيرة شديدة بين توقع مغادرتنا للبلاد وبين حفظهم للأموال »^(١٤)، وعلى ذلك فإن أزمة المعلومات ارتبط بها عدم اقتناع أهالى القرى باستقرار السلطة بين يدى القادم الجديد المحتل ، ومن ثم فإن الدفع بالأهالى إلى تقديم أية بيانات تخص مستحقات المال الميرى على القرى - كان من الأمور العسيرة للغاية .

لقد باتت مهمة الوكلاء الفرنسيين كؤودة وثقيلة إلى أقصى حد ؛ فالصورة الضبابية جعلتهم عاجزين عن إنجاز رقابتهم على الحسابات . وازدادت المسألة صعوبة مع فشل فريق العلماء الذين أرسلوا للصعيد ، فى جمع البيانات الضرورية اللازمة لوضع خريطة عامة للنظام المالى ، فقد انساق معظم العلماء خلف ما بهرهم من الآثار الفرعونية التى عكفوا على دراستها ورسم الهيروغليفيات التى أدهشتهم ، ونسوا المهمة الأساسية التى كلفهم بها الجنرال كفاريللى ، فيما عدا كبير المهندسين جيرار الذى كان على رأس الفريق ، والوحيد الذى انكب على جمع المعلومات^(١٥) . ولو أنه عاد فى تقريره النهائى الذى نُشر بـ «وصف مصر» يؤكد بأنه وجد صعوبة فى معرفة ما تعلق بالنظام الضريبى والملكيات العقارية وطرق ووسائل استغلالها ؛ إذ يقول : «فعلى الرغم من أنه كان من حقى أن أمل فى الحصول على توضيحات محددة؛ بسبب الشهرة التى كان يحوزها بعض من سألتهم؛ وبسبب المكانة التى يشغلونها، فإننى لم أحصل منهم إلا على معلومات غامضة بشأنها ..» ولذلك صرح بأنه مضطر إلى تقديم افتراضاته فى هذا الموضوع ، إلى أن يتمكن غيره من تقديم المعلومات المؤكدة^(١٦) .

وإذا تشدد الحاجة إلى استمرار الدور القبطى ، وإلى الاعتماد على ما قدم من قوائم؛ طالما لم يتوافر غيرها . وهذا ما حدا سكرتير المالية « بيروس » إلى التعليق على مجمل حسابات عام ١٢١٣ (٩٨ - ١٧٩٩) بقوله :

L'ignorance, les désordres et la confusion favorisèrent les tentatives des percepteurs

« إن الجهل والفوضى والغموض هو ما يسر لجباة الضرائب ممارساتهم » (١٧). وسرعان ما انعكس ذلك علي الموازنة العامة للمالية العام الأول ؛ إذ وفقاً لما ذكره مدير المالية بوسيلج ، في تقريره إلي حكومة الإدارة في ٩ أكتوبر ١٧٩٩ ، كانت الفجوة واسعة بين الإيرادات والمصروفات ، فبينما كانت محصلة الخزنة تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف فرنك شهرياً ، كان إجمالي المصروفات الضرورية يصل إلي ١,٣٠٠,٠٠٠ فرنك شهرياً (١٨).

رقابة أخذة في الفتور

وإذا كانت القوائم المجملة التي قدمها المباشرون قد حجبت العديد من مصادر الإيرادات عن خزنة الجيش ، وتسببت في الأزمة المالية، فإن كليبر، فور توليه للقيادة العامة - يقرر إعادة النظر في الكيفية التي يتلقى بها الوكلاء الفرنسيون بيانات الحسابات القبطية : فهو يأمر ألا ينتظر الوكلاء في عاصمة الإقليم حتى يأتيهم المباشرون بحسابات الجباية ، وإنما يخرجون في صحبتهم ، ويراقبون سلوكهم خلال جولات الجباية نفسها ، والتي تُتيح لهم التعرف على القرى ؛ وبهذه الطريقة يمكنهم تنظيم كشوفهم الحسابية ؛ استناداً إلى واقع عملية التحصيل (١٩). وحتى يضمن تفعيل المراقبة فإنه يعلن، من خلال الأمر اليومي الصادر في ١٦ سبتمبر ١٧٩٩ ، بأنه سوف يتابع حركة الجباية بنفسه ، وذلك عبر القائمة التي يرفعها إليه قادة الأقاليم الذين يتعين عليهم تنظيمها كل عشرة أيام ؛ اعتماداً على ما يصله من ملاحظات الوكيل الفرنسي من ناحية، وعلى قائمة «صراف الخزنة» التي يُسجل بها ما تم جبايته بالفعل من ناحية أخرى (٢٠).

على أن وطأة الأزمة المالية التي اضطرت الإدارة إلى تخفيض أعداد الموظفين في الإدارات ؛ كوسيلة لتقليل الهوة الواسعة بين الإيرادات والمصروفات (٢١) - سوف يكون مردودها سلبياً تماماً على مستوى أداء الرقابة على الجباة الأقباط ، وأيضاً على حركة التحصيل نفسها . فالصعيد الذي كان يتوزع على أقاليمه سبعة وكلاء ، بات مسنداً إلى وكيلين فقط ، بتروشي Petrucci بالدائرة الأولى (قنا - إسنا - جرجا) ، ورينييه Reynier بالدائرة الثانية (المنيا - بنى سويف - الفيوم - أطفيج) (٢٢).

وبداهة من الصعب أن يغطي الوكيل الواحد ذلك الامتداد الجغرافى الكبير الذى تضمه الدائرة الإقليمية ؛ وهو ما يعنى أن المباشرين الأقباط سوف يواصلون انفرادهم بالجباية دون مرافقة ، ومن ثم ، دون مراقبة الوكيل المالى الفرنسى . وتقدم مراسلات الوكيل «رينيه» شواهد هامة على ذلك : فهو لم يستطع أن يخوض جولات الجباية إلا فى إقليم بنى سويف ، على حين جهل تماماً بما كان يجرى بإقليم المنيا ، ولطالما أعرب للمستولين عن قلقه الشديد ، من عدم تمكنه من تنظيم الجباية هناك ؛ وخاصة مع عدم حصوله على قائمة الميرى الخاصة بهذا الإقليم ؛ حيث أبدى المعلم عبيد - مباشر إقليم المنيا - عناداً شديداً ، سواء فى تسليمه للقائمة (المجملة) أو فى حضوره وقيامه بالجباية . وكان قد غادر المنيا وقت الحصاد ، ورفض الاستجابة لكل النداءات التى حثته على العودة ؛ فاضطربت الجباية وتعثرت غير مرة^(٢٣) . أما إقليم الفيوم فيؤكد مدير المالية بأنه لم يكن أحسن حالاً ؛ إذ لم يتلق منه أية متحصلات!^(٢٤) .

لقد كان اللجوء إلى تحميل الوكلاء الفرنسيين مسئولية ضبط حسابات جميع الأقاليم بالدائرة الإدارية أكبر من إمكانياتهم الفعلية ؛ وكثيراً ما طالب الوكلاء بإرسال مساعدين لهم، ولو موظف واحد كفى ، يحل محلهم حين خروجهم للأقاليم الأخرى إلا أن الإدارة المركزية ، أمام الأزمة المالية صمّت آذانها ولم تبد أية استجابة لهذا المطلب ، برغم الايضاحات التى قدمها الوكلاء حول صعوبة موقفهم^(٢٥) . وحيال عجزهم عن رقابة الجباة الأقباط فى الأقاليم الأخرى ، اضطروا إلى الاعتماد على القادة العسكريين الذين كلفوا بالجباية ، وأوصوهم ببذل ما وسعهم فى الانتباه إلى كل الممارسات المشينة التى يفتعلها هؤلاء الجباة خلال جولات التحصيل^(٢٦) .

ولم تكن هذه المشكلة وحدها التى قللت من فاعلية دور الوكلاء الفرنسيين ؛ فقد كانت مشكلة نقص «الطواير العسكرية» Les Colonnes Militaires التى تجوب القرى فى صحبة الوكلاء والمباشرين الأقباط - تعوق عملية تحصيل الضرائب ؛ فمن ناحية بينت التجربة أن الفلاحين لا يدفعون إلا فى اللحظات الحرجة التى يرون خلالها استعراض الكتيبة الفرنسية لقوتها داخل مجال القرية^(٢٧) ، ومن ناحية أخرى كان

المباشرون الأقباط الذين يستغلون هذا المشهد فى إخافة الفلاحين وتوسيع استغلالهم باسم الفرنسيين - كانوا لا يقبلون الخروج للجباية دون صحبة هذه الطوابير العسكرية ؛ وكان مبررهم « أن وضعهم غير آمن » ، ومن ثم فإن تعذر تشكيل هذه الطوابير كان يعطى للمباشرين الأقباط الفرصة للتعلل بهذا السبب، عند تلكؤهم أو رفضهم مرافقه الوكلاء أو الجنرالات فى جولات الجباية^(٢٨)، حتى لقد باتت عملية تحصيل الضرائب يرمتها مشروطة بمدى توافر هذه القوات العسكرية!^(٢٩).

وأصبح الشاغل الغالب على الوكلاء وقادة الأقاليم متابعة اللحظة التى يتوافر خلالها مجموعة من الجنود الذين يمكن أن يتفرغوا لمساعدتهم فى تحصيل الضرائب . وتوضح المصادر الفرنسية أن سحب جزء منهم من فرقة الجنرال ديزيه بالصعيد ، إبان إعداد بونايرت لحملة على سوريا كانت قد أثرت على حجم توزيع الكتائب الفرنسية على مختلف أقاليم الوجه القبلى . وإدراكاً من بونايرت لخطورة هذه الثغرة فى جيش الصعيد كلف الجنرالات، قادة الأقاليم ، بأن يكثفوا من تحريك الكتائب ، بشكل دورى ، بين الأقاليم^(٣٠). لكن الجنرالات ، بعد بضعة أشهر، سوف يقرون ، للقيادة المركزية بالقاهرة، مخاوفهم من انكشاف قلة أعدادهم ومواطن ضعفهم ، وأنهم يجدون صعوبة فى خداع الفلاحين، حتى مع اللجوء إلى تهديدهم على نحو مستمر^(٣١). وما كان يزيد الأمر صعوبة استمرار مطاردة مراد بك والأمراء المماليك الذين احترقوا شن الهجمات المفاجئة ، المعتمدة على أسلوب الكر والفر ، والتى كانت تتسبب فى إرهاق وتشتيت الكتائب الفرنسية^(٣٢)، هذا فضلاً عن المقاومة الفلاحية المستميتة التى عمت أقاليم الصعيد، والتى اقتضت حتمية الانشغال طويلاً بالتصدي لها^(٣٣). ولما كانت عودة الجيش من سوريا لم تؤد إلى استعادة الصعيد للقوات التى سُحبت من بين صفوفه ، فإن الظاهرة تستمر على مدار الفترة التالية ، وتشكل بالفعل مشكلة حقيقية .

ويفيض الكيل بالجنرال زاينوشيك، حاكم مصر الوسطى (المنيا- بنى سويف- الفيوم) عندما يطالبه القائد العام كليبر- فور توليه زمام القيادة- بتوريد ١٥٠ ألف فرنك؛ لمعالجة النقص الشديد فى خزانة الجيش^(٣٤)؛ إذ لم يتردد فى مكاشفته باستحالة تدبير

ذلك فى ظل قلة ما لديه من الجنود ، وعناد الفلاحين ، وهجمات المماليك المتكررة ، واللامبالاة التى يبديها المعلمون الأقباط . على أنه واعدته بأن يبذل ما وسعه فى التحصيل^(٣٥) . وهو يلجأ إلى « لجنة الحبوب بينى سويف » ، والتى كان يعمل تحت يديها كتيبة من ١٠٠ جندي ، فيرجو أعضاءها أن يعيروه ٣٥ جندياً لمدة أسبوعين فحسب ؛ حتى يمد خزانة الجيش الخاوية بما يمكنه جمعه من الفلاحين^(٣٦) .

والواقع أن هذا العدد المحدود من الجنود لم يكن كافياً لإنجاز هذه المهمة ؛ فقد كانت كل قرية - وفقاً لما جاء فى تقرير مدير المالية بوسيلج - فى حاجة إلى قوة من ٨٠ إلى ١٠٠ جندي ؛ حتى يمكن قهرها على الدفع^(٣٧) . وبعد مرور شهرين تقريباً يضطر الوكيل المالى إلى إبلاغ مدير المالية باستحالة تدبير الحصيلة^(٣٨) . ويظل ، طوال الوقت ، يستصرخ الجميع على ضرورة تدبير الطوابير حتى لا يتوقف دولا ب العمل بإدارته ، فلکم عدّ الأيام ؛ انتظاراً للحظة التى يحظى خلالها بقوة ، تعينه على التطواف بين القرى ، وبالقدر نفسه أبدى حزنه وأسفه على الوقت الذى يُهدر ، دون طائل ، إبان موسم الحصاد^(٣٩) .

السير على غير هدى

وخلافاً لما سبق ، كان من أكثر المشكلات التى ظلت تواجه الوكلاء المالىين ، واستعصت على الحل ، عدم تمكن الإدارة المالية من الحصول على قائمة دقيقة ، تكشف عن المصادر الحقيقية ليرادات الضرائب . ولأشد ما كان يزعج الإدارة المالية اكتشافها - صدفه - بعض الرسوم التى أُفليت من قبضة المعلمين الأقباط ، وسعيًا إلى الحد من وسائل التضليل المتعددة فى قوائمهم ، اقترح مدير المالية بوسيلج على جنرالات الأقاليم أن يفاجئوا القرى ، خلال جولات التحصيل ، دون أن يخطرورها - مسبقاً - بقدمهم وأنه بهذه الطريقة سوف يمكنهم التعرف على ما يحجبه المعلمون الأقباط من مصادر الإيرادات وهو ينبه إلى خطورة الموقف المالى : « نحن فى حالة عوز شديد وبشكل لا يسمح بأن نهمل أقل مصدر من مصادرتنا المالية »^(٤٠) .

ويتبين للوكلاء الفرنسيين أن هذه الطريقة لن تُجدّ ، كثيراً أو قليلاً ، فى التعرف على الرسوم المجهولة ؛ إذ أن فلاحى القرى يبدون ، فى غيبة المعلمين الأقباط ، فى حالة

توجس وريبة ، ويصمون أذانهم ، ويخرسون ألسنتهم ، فلا يجيبون على التساءولات التى تطرح عليهم^(٤١) . ومرة أخرى يدرك الوكلاء أن مشكلتهم الأساسية ليست فى جوهرها قاصرة على أزمة المعلومات فحسب ، وإنما تتجاوزها - كذلك - إلى أزمة أخرى ، ربما كانت أشد خطورة من حيث النتائج ، والتى تتمثل فى انعدام ثقة الأهالى فى مستقبل بقاء السلطة الفرنسية فى مصر ؛ ولذلك رفضوا دفع الضرائب إلا فى وجود المباشرين الأقباط ، وهو ما حرص الوكيل المالى رينيه على التأكيد عليه ، غير مرة ، فى مراسلاته : «فبهم نصير القرى أكثر حضوراً إلينا وأكثر انقياداً لنا»^(٤٢) .

وتتجلى وطأة هذه الحقيقة المؤلمة للوكلاء المالىين ، لحظة اضطرارهم للخروج بمفردهم فى جمع الضرائب ، خلال شهرى نوفمبر وديسمبر ١٧٩٩ : فمن جانب يواجهون بالتسويق القبطى فى تسليم قوائم «القسط الأول» لعام ١٢١٤ ؛ فحتى ٣١ ديسمبر ١٧٩٩ (أى قرب نهاية موسم التحصيل) كان الوكلاء لا يزالون يتمنون الحصول على هذه القوائم !!^(٤٣) والنتيجة السلبية نفسها تمتد لتعم مطالبهم الأخرى المتكررة ، بشأن كشف بواقى الميرى ، المتأخرة عن السداد ، عن عامى ١٢١٢ و ١٢١٣ ؛ بما يزيد من حيرتهم فى تسوية حسابات البواقى التى كانت الخزانة فى مسيس الحاجة إلى تحصيلها^(٤٤) . ومن جانب آخر ، يؤدى تسحب أكثر من عدد المباشرين ، من سائر قرى الصعيد إلى تعذر رصد بيان شامل بالمساحات الشراقى^(٤٥) . ومن ثم لا يجد الوكلاء أية بيانات واضحة يستدلون بها فى جباية الضرائب ، خلال جولاتهم بين القرى .

وبداهة يشير توحد الفعل بين المعلمين الأقباط ورئيسهم الكبير المعلم جرجس الجوهري ، إلى قوة التماسك فى التنظيم ، وإلى وحدة الهدف . ومن المفارقات أنه على الجانب الآخر ، كانت صلة الوكلاء الفرنسيين - فى التوقيت نفسه - بالإدارة المركزية أقل فاعلية ؛ بسبب انشغال الأخيرة بتتبع الموقف السياسى ، وخاصة مع معاودة العثمانيين تحركهم الفعلى ضوب العريش ، الأمر الذى انعكس - سريعاً - على إهمال الرد على شكاوى الوكلاء أو حتى البحث فى اقتراحاتهم ، والتى كان أهمها - على الإطلاق - ما تعلق بـ «مسح الأراضى» ؛ إذ فى حال تحقيقه ، يمكن الحصول على قوائم

حقيقية ، بمعدلات الضرائب على كل فدان^(٤٦) ، وهو ما يغنى الإدارة المالية عن الاعتماد المفرط على المباشرين ، ويضع حداً لكل وسائل التضييل فى حسابات المالية . وإذا تتوالى الأحداث السياسية ، وتتعدد مع ظهور طليعة الجيش العثمانى أمام العريش (فى ٨ ديسمبر ١٧٩٩) ثم سقوط الحصن الفرنسى بالعريش (فى ٢٩ ديسمبر)^(٤٧) - فإن فكرة «مسح الأراضى» لا تلقى أية اهتمام من الإدارة المركزية التى تشغل تماماً بالظروف الحرجة التى تضع الجيش على أعتاب حرب وشيكة . وعلى ذلك ليس ثمة دهشة أن يلقى الوكلاء إهمالاً ملحوظاً، يصل إلى حد عزلهم عما يجرى على الساحة السياسية ، بل إنهم ليجهلون تنصيب المواطن تاليان Tallien محل مدير المالية بوسيلج!^(٤٨).

ومع تزايد مخاوف الوكلاء من فوات موسم التحصيل ، ومن سباق الممالك إلى مداومة القرى وجمع الضرائب قبلهم - فإنهم يقررون الخروج للجباية ، والسير على غير هدى من القوائم ، ودون معونة المباشرين الأقباط ، وكذا دون مساعدة مشايخ القرى الذين - فيما يبدو - اقتضى عدد كبير منهم أثر انسحاب المباشرين، ورحلوا من القرى إلى القاهرة^(٤٩). وعلى هذا النحو يواجه الوكلاء الفرنسيون الأهالى مباشرة ، ويضربون عليهم الجبايات بشكل عشوائى ، غير عابئين بتذمرهم ، ويضطر الأهالى إلى اللجوء لسلاحهم التقليدى «التسحب» الذى يأخذ شكلاً جماعياً : فهم يقيمون الأرصاد التى تخبرهم بقدم الوكيل المالى على رأس كتبه عسكرية ، ليفزعوا على الفور ، بنسائهم وأطفالهم إلى القرى المجاورة أو يعبروا النيل ، على مراكبهم ، للصفة الأخرى ، لتتعر الجباية بمعظم قرى الصعيد^(٥٠).

رقابة تُحال للظل : تهيش الوكلاء الفرنسيين

لقد كانت مراسلات الوكلاء المالىين تحمل للإدارة المركزية المزيد والمزيد من الأخبار المؤسفة التى تنذر باستمرار تأزم الحالة المالية . وبالقدر نفسه تزايد احتمالات الدخول فى الحرب، يوماً بعد آخر ، وهذا ما يجعل القائد العام متشائماً ، إلى أقصى حد ، من استمرار مشروع الاحتلال والذى سوف يصفه ، فى رسالته لمدير المالية، بالجنون : « إن

إنشاء مستعمرة دون حكومة مستقرة ودون بحرية ، ودون أموال ، بينما الحرب القارية المرعبة قاب قوسين أو أدنى ، هو غاية الجنون ؛ فهذا يعنى الاضطلاع بمحاصرة موقع دون هيمنة فى المعركة، ودون ذخيرة حربية ..^(٥١)، ولذلك أصبح أكثر اقتناعاً بضرورة المضي فى المفاوضات بالشكل الذى يحقق انسحاباً مشرفاً للجيش فى ظل هذه الظروف الصعبة : « إن على السعى إلى الخروج من بلد لا يمكننى ، من أكثر من زاوية ، الاحتفاظ به ... إن الأمل فى تعزيز سريع وكاف قد دفعنا إلى العمل على كسب الوقت ، إلا أنه مع تلاشى الأمل ، فإن الوقت الذى نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن ، فلنسارع إلى أن نقدم له عوناً لا يملك هو تقديمه إلينا ... » وأعلن أنه سوف يسارع بالتصديق على المعاهدة دون تردد^(٥٢).

وتشكل هذه الظروف الصعبة الخلفية التى أخذ خلالها القائد العام كليبر قراره الصادر فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٩ والذى يفوض للمباشرين الجباية لعام ١٢١٤ (١٧٩٩ - ١٨٠٠) ؛ دون تدخل من الكوادر الفرنسية ؛ وذلك بقصد تحميس هؤلاء الجباة على سرعة موافاة الخزانة العامة للجيش بالضرائب^(٥٣) . فلقد بات القائد العام أكثر اقتناعاً بأنه لم يعد مجدياً - على الإطلاق - الحديث عن الممارسات المشينة التى يجريها المباشرون يومياً ، فى حسابات المالية ، منذ بداية الاحتلال ، فما يهم الجيش ، فى هذا التوقيت العصيب هو ضمان ما يؤمن احتياجاته خلال مرحلة الانسحاب أو الحرب^(٥٤) .

ويبدو أن كليبر كان سائماً ومحبطاً من محصلة تجربة الوكلاء فى الرقابة على حسابات المباشرين ؛ فكل الجهود التى بذلت ، على مدار عام ونصف العام ، لم تسفر عن نتيجة ذات بال ، فى الحد من تفرد المباشرين الأقباط باحتكار المعرفة الحسابية للنظام الضريبى المعقد . ويظهر ذلك جلياً فى إهماله لهم ، والذى وصل إلى حد عدم إعلامهم بقرار ٢١ ديسمبر ، وذلك على الرغم من أن مضمون هذا القرار كان يخص وظيفتهم ، وعلى وجه التحديد ، دورهم فى إدارة الجباية : فلم يحاطوا علماً بهذا القرار إلا كرد فعل لتذمرهم من نزول المباشرين للأقاليم ؛ حيث قاموا بحركة مكثفة فى جباية الضرائب من القرى دون إخطار الوكلاء ، ودون الحصول على تصريح منهم ، الأمر الذى أثار دهشتهم ؛

وخاصة مع عدم اكتراث المستوفين الأقباط بتحذيراتهم والتي ضربوا بها عرض الحائط! (٥٥) وكنتيجة لخشية كليير أن يؤدي قلق الوكلاء ، واحتجاجاتهم المتزايدة على المباشرين ، إلى إفساد الاتفاق ، فإنه يقرر إعلامهم بالأمر اليومي ، فى ٧ يناير ١٨٠٠ ، أى بعد مرور أسبوعين كاملين! (٥٦).

وتفيض مراسلات الوكيل المالى رينيه بالأسى والأسف العميق ؛ من جراء صدور هذا القرار الذى يحرر المباشرين الأقباط من رقابتهم ، ويسمح لهم بمواصلة سيطرتهم على العديد من مصادر الإيرادات ، ولا يجد غضاضة فى التصريح بأن « القائد العام قد خدع » (٥٧). ويطالب باستقالته ، ويكتب فى لغة ملؤها الغضب:

Si, au Caire, on me regarde comme un Zéro dans L'arrondissement,

envoyer une permission de le quitter: on me fera plaisir de m

« إذا كنتم فى القاهرة تنظرون إلى على أنتى صفر ، فى هذه الدائرة الإقليمية، فإنكم سوف تسعدوننى إن أرسلتم إلى تصريحاً بمغادرة موقعى هذا » (٥٨).

وبقدر ما تحمل هذه الكلمات دلالة احتجاج صارخ على تهميش الإدارة المركزية للوكلاء ، بقدر ما تشير إلى امتعاضهم من عدم تقدير القيادة العامة للجهود المضنية التى بذلوها ، ولا سيما خلال الشهور الأربعة الأخيرة من عام ١٧٩٩ ، والتى كانت محصلتها كشف العديد من وسائل المباشرين الأقباط فى تضليل الإدارة المالية (٥٩). والتى كانت سببا مباشراً فى انزعاج المباشرين ؛ وفى اتخاذهم قرار التسحب من القرى ، فى توقيت أكثر حرجاً للقيادة العامة ، مما جعل الأخيرة تستجيب لإحالة الوكلاء إلى الظل ؛ فى مقابل التزام هؤلاء المباشرين بتقديم حصيلة مهمة من الأموال التى تؤمن مالية الجيش خلال بضعة أشهر سواء لتدبير النفقات الضرورية للانسحاب أو لتدعيم ميزانية خوض معركة مصيرية .

حجب الرقابة : إلغاء دور الوكلاء الفرنسيين

وإذا تتصدع معاهدة العريش فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ويضطر الجيش الفرنسى إلى مواصلة احتلاله - فإن مسألة استعادة السيطرة على إدارة الجباية تفرض نفسها ، وخاصة

وأن الوضع المالى للجيش كان مؤسفاً للغاية^(٦٠). وبشكل يفرض ضرورة الإسراع باستعادة التعاون مع المباشرين ، غير أن هؤلاء المباشرين ، الأكثر نفوراً من رقابة الوكلاء الفرنسيين ، لا يمكن ترويضهم إلا بإبطال دور الوكلاء ، ومواصلة تدعيم تفويضهم (المعلمين الأقباط) فى الجباية بمفردهم . وهذا هو عين ما قرره كليبر بالفعل فى أمره اليومى الصادر فى ٢٨ أبريل ١٨٠٠ .

لقد كان كليبر فى مأزق حقيقى ، بين رغبته فى الدفع بالجباة الأقباط إلى ضخ إيرادات عاجلة للخزانة؛ لأجل تغطية النفقات الأكثر من ملحة ، والمتعلقة بالاحتياجات الأساسية للجنود والتي لا يجد بالخزانة أية سيولة لتغطيتها!^(٦١) وبين مخاوفه من أن تؤدي استجابته للمعلمين الأقباط إلى إضفاء الشرعية على ممارساتهم الشاذة ، ووسائلهم المتعددة فى اختلاس المالية .

ويجد كليبر ضالته فى حل يقوم على نقل صلاحيات الرقابة إلى الصراف الفرنسى بكل دائرة إقليمية ، والذي تتغير وظيفته إلى ما أصبح يُعرف بـ « الصراف - المحصل » Receveur - Payeur^(٦٢) وهو لن يخرج فى جولات الجباية ، فى صحبة المباشرين الأقباط ، وإنما يستعوض كليبر عن ذلك توزيع المسئولية بين المباشرين الأقباط ومشايخ القرى: فالمشايخ لن يسلموا حصيلة الرسوم المقررة على قراهم إلا بعد أن يوافقهم المستوفون الأقباط بمستند كتابى ، يُعرف بـ «الرجعة» والذي ترجمه الفرنسيون بـ «الإيصال المؤقت» Reçu Provisoire ويحدد بهذه «الرجعة» اسم القرية أو الناحية، واسم شيخها (أو مشايخها) ، وعدد كمية الحبوب أو المبالغ النقدية ، وتاريخ السداد . وإذا تحول المباشر القبطى الحصيلة لخزانة الصراف - المحصل (الفرنسى) ، فإنه يتلقى من الأخير شهادة براءة أو ما تعرف بـ « ورقة الخالصة » Pièce de décharge التى يُسجل بها بيان تفصيلى بما سلمه المباشر للخزانة .

ويقوم الصراف الفرنسى ، كل عشرة أيام ، بتحرير «إيصال عشرينى» Récépissé décadaire يضم جملة ما تم تحصيله من المباشر القبطى . وفى نهاية موسم التحصيل يقوم الصرافون - المحصلون ، والجنرالات قادة الأقاليم ، ومندوبو الحروب بالفرق العسكرية (باعتبارهم

المستولين عن إمداد المباشرين بالطواوير العسكرية خلال جولات الجباية) بالتوجه إلى القرى ؛ لجمع «الرجعات» التى لدى مشايخ القرى . ومن ثم يصبح فى الإمكان المطابقة بين «الرجعات» و«الإيصالات العشرية» ، وعندئذ يمكن للإدارة المالية التعرف على ماتم جبايته من الممولين للضرائب من ناحية ، وما سدده المباثرون للخزانة ، وما استبقوه بين أيديهم من ناحية أخرى ، ويتعين على الصرافين - المحصلين ، وقادة الأقاليم ، ومندوبى الحروب أن يرفعوا تقاريرهم ، بعد عمل هذه المقارنة ، كل على حدا ، بحيث توجه على الترتيب إلى (الصراف العام للخزانة - رئيس الأركان العامة بالجيش - المنظم العام للصرف) ، بعدها يتم - بالقاهرة - مقابلة هذه التقارير بالقائمة التى يقدمها المعلم «جرجس الجوهري» الذى يلزم بالحضور عند فحص «الرجعات» بـ «الإيصالات العشرية» ، وذلك باعتبار الأخير المسئول الرئيسى أمام الإدارة المالية عن كل ما يصدر عن رؤسياه بالأقاليم (٦٣).

وسعيًا إلى الحد من أساليب التلكؤ والتسويق فى تسديد الضرائب للصرافين الفرنسيين ، فإن كليبر يلزم المباشرين بأن يوردوا الحصيلة ، بشكل شهرى ، وليس عبر مواسم الحصاد (٦٤) ويجعلهم مسئولين عن تسديد متأخرات عام ١٢١٣ أمام إدارة «المنظم العام للصرف» ؛ بحيث لا يخلطون حسابات هذه البواقى مع مستحقات عام ١٢١٤ ، والتى كثيراً ما كانت تربك المسئولين الماليين عند ضبطهم لحسابات كل قرية (٦٥).

وعلى هذا النحو يأمل الفرنسيون أن تصبح حركة الجباية الأقباط غير بعيدة تماماً عن مراقبتهم ، ولو كانت مراقبة من النوع غير المباشر ، وأن يحفز مبدأ التفويض لهم بالجباية سرعة إمدادهم خزانة الجيش بالأموال المستحقة على القرى ، وكذلك تطلعوا إلى بناء قوائم صحيحة بأسماء القرى وبمعدلات الضرائب على كل منها ، من خلال «الرجعة» و«أوراق المخالصة» التى تتوافر بين أيدي الصرافين الفرنسيين بالأقاليم .

ويبدأ الصرافون - المحصلون مباشرة دورهم الجديد ، عقب تحقق الانتشار العسكرى بالصعيد ، والذى تم فى مطلع مايو ١٨٠٠ (٦٦) ، ويحتفظ أرشيف المكتبة المركزية (جامعة القاهرة) بنموذج نادر لتقرير صراف فرنسى ، يدعى بتروشى Petrucci ، كان يعمل

بدائرة أسيوط والمنيا ويؤكد هذا النموذج (الصادر باللغتين العربية والفرنسية) اعتماد الصرافين الفرنسيين ، فى رقابتهم للحسابات القبطية ، على «الرجعة» : فهو يشير فى التقرير إلى ما تسلمه من جملة تلك «الرجعات» الخاصة بحصيلة «مال البياضى والنبارى» . ويلاحظ حرص الصراف الفرنسى على تقديم شهادته فى نهاية التقرير ، بشأن ما تحصله بموجب «الرجعات» ، فيؤكد أن كل «ما تسلمه حكم المقيد بالدفتر ولم قبضت غير ذلك وكل الرجعات خلاف المشروح بطالين ولم دخلوا على يدى وبيقوا مطلوبين من مباشر الولاية القبطى» (٦٧) .

وحرى ألا يفهم من ذلك أن المباشرين الأقباط قد كفوا عن ممارساتهم ؛ فقد كان حصولهم على «الرجعات» من «ديوان الجمهور» ؛ كمستندات رسمية بيضاء موهورة بأختام المسئولين الماليين blanc - seing ، قد سهل عليهم وعلى مشايخ القرى جباية كل أنواع الضرائب المعتادة والاستثنائية من الفلاحين ، على حين سجلوا بـ «الرجعة» البيانات التى تراءت لهم ! (٦٨) ، وهذا ، تحديداً ، ما عناه سكرتير المالية بىروس عندما أكد بأن تفويض الجباية ، على هذا النحو ، كان مؤذياً ، بدرجة فادحة ، للفلاحين وللمالية الجيش ؛ حيث اعتصروا الأهالى ، باسم الفرنسيين ، عبر مطالبتهم إياهم بالضرائب التعسفية» (٦٩) .

والواقع أن فكرة كبير اتسمت ، منذ البداية ، بطابع مثالى ؛ إذ افترضت - مسبقاً - بأن تحميل مشايخ القرى جانباً مهماً من المسئولية ، يمكن أن يحد بشكل طبيعى من تجاوزات المباشرين . ويبدو أنه لم يجل بخاطر القائد العام إمكانية توحيد مصالح طرفى الجباية (المباشرين ومشايخ القرى) . والتجربة على مدار عام ١٢١٤ (أى حتى نهاية السنة المالية فى أغسطس ١٨٠٠) هى وحدها التى سوف تبرز هذه النتيجة ، التى لن يسعفه القدر الإلام بمحصلتها؛ إذ تم اغتياله - فجأة - فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ .

ويلاحظ أنه عقب هذا الاغتيال المفاجئ سوف تتوالى التقارير والمذكرات على القائد العام الجديد منو تحيطه علماً بخطورة ترك شئون الجباية بين أيدي المباشرين ومشايخ القرى ، ودون رقابة فعلية من الكوادر الفرنسية. وكان الجنرال دوتزلو (حاكم أسيوط والمنيا) من بين من أطلعوا القائد العام على هذه المسألة ؛ فقد كتب إليه يقول :

«لقد حاك مشايخ القرى والمباشرون الأقباط - معاً - المؤامرات des collusions التى احتالوا بها على مالية الجيش ؛ حيث اقتسموا فيما بينهم الأرباح التى جنوها من جبايتهم للضرائب» (٧٠).

ولمّا كانت «الرجعة» التى قُدمت للصراف الفرنسى غير شاملة لكل القرى ، ولا لكل ما كان يتم جبايته من الفلاحين - فقد ظلت مشكلة احتكار المباشرين للمعلومات قائمة . وسوف يؤكد الجنرال بوايه Boyer (وكان ممن عملوا الفترة طويلة بأقاليم الصعيد) إلى القائد العام منو ، بأنه على مدار عامين كاملين ، ظل قادة الاقاليم يجلبون الضرائب بغير بيانات محددة وواضحة ، وأن احتكار المباشرين لها قد مكنهم أن يفعلوا فى المالية كل ما بدالهم فعله! (٧١).

وإذا بات واضحاً للقائد الجديد أن غياب الرقابة وتهميش دور الكوادر الفرنسية فى الجباية كان سبباً فى نجاح المباشرين الأقباط فى توسيع سيطرتهم على مصادر الإيرادات ؛ وهو ما يندرج بتردى الحالة المالية التى تشكو ، منذ فترة طويلة، من أعراض أزمة مالية خانقة . وليس ثمة ما هو أكثر دلالة على ذلك من خلو مخازن الشون من الحبوب ! وهى النتيجة التى أزعجت القائد العام منو أيما إزعاج . وكان قد طالعها بعد أيام قليلة من اغتيال كليبر ، عبر تقرير اللجنة الإدارية ، المسئولة عن متابعة حركة تدفق الحبوب من الصعيد إلى القاهرة (٧٢) . ويصبح من المحتم الكف عن العمل بسياسة كليبر التى وُصفت نتائجها بأنها «مفجعة» désastreux (٧٣)؛ لتتقلب مجمل السياسة المالية إلى النقيض : فعوضاً عن التفويض المطلق للمعلمين الأقباط، تصبح كل شئون الجباية والحسابات خاضعة لرقابة مركزية شديدة، ومن ثم تستعيد الكوادر الفرنسية نشاطها على نطاق واسع .

تكثيف الرقابة والتطلع إلى إحكام السيطرة على الموارد

يتم تعيين استيف مديراً عاماً للدخول العمومية لكل مصر Directeur général des revenus publics d'Égypte يتبعه «محصل رئيسى» Receveur principal «وصراف رئيسى» Payeur principal ، ليشرفا على تنظيم الإيرادات والمصروفات (٧٤) .

وكان أول ما أقدم عليه استيف دعوته للوكلاء الفرنسيين لاستئناف خدماتهم فى الإدارة المالية ، وهو ما يعنى رد الاعتبار إلى هذه المجموعة التى تعرضت للتهميش التام منذ مطلع عام ١٨٠٠ . فقد كانوا ، على نحو ما لمسنا ذلك آنفاً ، أكثر من غيرهم دراية بشئون الجباية ، وبأساليب المباشرين الأقباط فى إثارة المشكلات التى تعوق تحصيل الخزانة الفرنسية للإيرادات ؛ ولذلك رأى استيف ضرورة أن تكون خبرتهم محل تقدير ولا سيما فى ظل فترة التأزم الشديد التى تمر بها مالية الجيش . ويسند إليهم الإشراف على إدارة الصرافين - المحصلين بالأقاليم ، من خلال التقارير التى يلزم الصرافون برفعها إليهم ؛ حيث تعين أن يقيم الوكلاء فى القاهرة ؛ ليشكلوا - بالفعل - جزءاً من نسيج الإدارة المالية المركزية . ويصبح منوطاً بهؤلاء الوكلاء متابعة الصرافين ، وضبط إدارتهم وتقديم الملاحظات ، فيما ينبغى اتخاذه من إجراءات ضرورية ؛ لتأمين تحصيل الضرائب . هذا بالإضافة إلى تحققهم ، على ضوء خبرتهم السابقة ، من مختلف مصادر الإيرادات ، ومعدل المصروفات اللازمة للجباية ، والحيلولة دون حدوث تجاوزات من أى نوع فى هذه الإدارة^(٧٤).

وعلى ذلك يصبح على كل دائرة إقليمية وكيل مالى، بصفة مراقب Contrôleur ؛ ومن ثم يتوزع على كل أقاليم مصر ثمانية مراقبين ، ولعل بماله دلالة على مدى حاجة الإدارة المالية لجهود هؤلاء الوكلاء المراقبين أن جميع الإدارات الأخرى التى نظمها القائد العام منو واستيف لم يُخصص لها سوى مراقب واحد لكل إدارة . وبما أن الصعيد مقسم إلى دائرتين كبيرتين ، فإنه يحظى بمراقبين اثنين من الوكلاء : الأول يدعى «ومرك» Doumerc على دائرة أسيوط والمنيا ، والآخر «شاسيريو» Chassériaux على دائرة بنى سويف والفيوم^(٧٥).

ولما كان «لويس رينيه» L.Reynier قد برز ، فى الفترة السابقة ، كأحد أهم الوكلاء الفرنسيين الذين سببوا إزعاجاً للمعلمين الأقباط - فقط رأى منو ضرورة استدعائه ؛ لينصبه مديراً على إدارة الدخول العينية Administration des revenus en nature وأعرب رينيه عن امتنانه لثقة القيادة العامة فى كفاءته وتكليفها له بهذه الإدارة^(٧٦) التى تعد أهم إدارات الجباية ، من زاوية ما تدره على الخزانة من إيرادات .

وكان أهالى الصعيد أكثر احتكاكاً بهذه الإدارة مما عداها من الإدارات الأخرى؛ ذلك لأن أكثر من ٤ / ٥ ضرائب الوجه القبلى كانت تُسدد عيناً^(٧٧). وإذا كانت أكثر مصادر الإيرادات تعرضاً لكل أشكال الاختلاس فى الدخول العينية، وخاصة فى أقاليم الصعيد - فإنه لمن البديهي أن يتركز لبُّ نشاط إدارة الدخول العينية على مواجهة هذه الممارسات فى الدائرتين الأولى والثانية (أسيوط - المنيا - بنى سويف - الفيوم). وكل مُطلع على الوثائق المتعلقة بهذه الإدارة يمكنه بسهولة ملاحظة ذلك^(٧٨).

وخلافاً لدور الوكلاء المراقبين والصرافين المحصلين، أصبح هناك مفتشون فرنسيون كذلك، يُطلق عليهم «مفتشو الدخول العينية» *Inspecteurs des revenus en nature* يقيمون بعواصم الأقاليم إلى جوار الصرافين - المحصلين؛ ليشرفوا معاً على شئون الجباية وحركة الجباة الأقباط ومشايخ القرى فى تحصيل الضرائب: فقد تم تعيين مارتان *Martin* مفتشاً على الدائرة الأولى (أسيوط والمنيا) وإلى جانبه الصراف - المحصل بتروش *Petrucchi*، على حين أصبح لابانوز *Lapanouse* مفتشاً على الدائرة الثانية (بنى سويف والفيوم)، وإلى جواره أرمان *Armand* الصراف - المحصل بالدائرة^(٧٩).

ويلاحظ وجود تداخل فى الاختصاصات بين كل من المفتش والصراف، وهى مسألة تعزو، فى الحقيقة، إلى شدة حرص إدارة الدخول العينية التى يخضع لها هؤلاء المفتشون والصرافون - على تأمين الجباية من كل المعوقات، بشكل يبدو معه الطرفان وكأنهما مسئولان عن كل مراحل إنتاج الضريبة بصفة جماعية. ومن خلال مراسلات مدير الدخول العينية رينيه مع مرءوسيه من المفتشين والصرافين، خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر نتعرف على طبيعة المهام التى أُسندت إليهما (المفتش والصراف): فهما مكلفان بالأيدياً شيئاً يخرج من تحت متابعتهم الدقيقة للرقابة والتفتيش والتحصيل تختلف الرسوم العينية، وكان لابد من إعداد قوائم بالتحصيل، مفصل بها أسماء القرى، وحصّة ما سلمته من الحبوب، وأسماء المراكب، وأصحابها أو من كانت حمولة الحبوب فى عهده، وتحديد نوعية الحبوب وحمولتها على كل مركب يتم شحنها وتوجيهها للقاهرة، وفضلاً عن ذلك كان لازماً عليهما الإحاطة بمشكلات الأهالى، وخاصة ما كان

له صلة بشئون الزراعة والضرائب وعدم إهمال أية مساحة دون زراعة ، وأخيراً إذا كانت الإدارة مسئولة عن إمداد الفلاحين بـ « التقاوى والبذور » والتي يتم تحصيلها منهم في موسم الحصاد - فإن على المفتش والصراف مراعاة ضبط توزيع الكميات المطلوبة ، بأقصى اقتصاد ممكن ؛ إذ كان يُخشى أن يؤدي عجز الخزانة عن تحمل تكاليف أرادب البذور إلى إهمال الفلاحين لزراعة بعض الأراضي . وعند الحصاد كان عليهما أن ينشطا في مرافقة الطوابير العسكرية خلال جولات المستوفين الأقباط في جباية الضرائب^(٨٠) .

قوائم مفضلة ورقابة بغير جدوى

وكان إستيف قد أمكنه ، على نحو ما مر بنا ، قهر المباشرين - من خلال حبسهم على مدار شهور صيف ١٨٠٠ - على تقديم « قوائم مفضلة » بأسماء القرى والنواحي وبيانات الضرائب^(٨١) ، ولذلك أمل الفرنسيون أن يؤدي استعادة الرقابة المركزية مع حصولهم على هذه القوائم - إلى إحكام السيطرة على الموارد الضريبية ، ووضع حد لكل الممارسات السابقة وذلك بدءاً من العام المالي الجديد ١٢١٥ (٢١ سبتمبر ١٨٠٠)^(٨٢) .

وإذا كانت حسابات عام ١٢١٤ سوف تظل بأيدي المباشرين ، وفقاً لمبدأ التفويض الذي أقره كليبر (في ٢٨ أبريل ١٨٠٠) ، فإن منو يقرر ، عبر أمر يومي صادر في ١٠ يوليو ١٨٠٠ ، أن تكون « لجنة الخمسة المباشرين الكبار » Cinq - Intendants Cophtes المشكلة من (جرجس الجوهري - فلتاوس - يعقوب - ملطى - أنطون أبو طاقية) هي المسئولة عن تسوية حسابات هذا العام ، أمام الإدارة المالية ، وأن أية تجاوزات يقتربها الجباة الأقباط في الأقاليم سوف يتحملون تبعاتها^(٨٣) . وانطلاقاً من أن إدارة الدخول العينية مسئولة عما يرد بالشونة من متحصلات الحبوب لعام ١٢١٤ ، فضلاً عن توليها تحصيل بواقي الميرى المتأخرة عن العام المالي الأول (١٢١٣ / ٩٨ - ١٧٩٩) - فإن مدير الدخول العينية سوف يتعين عليه ضبط كل ما يسدده المباشرون لشونة «المقياس» (بجزيرة الروضة)^(٨٤) .

وإذا كانت قوائم وكشوف حسابات عامي ١٢١٣ ، ١٢١٤ (١٧٩٨ - ١٨٠٠) ما تزال غامضة ، بما في ذلك «القوائم المفصلة» الأخيرة التي اتضح أنها مليئة بالأخطاء ، وأنه من

الصعب اعتمادها كمستندات مرجعية لضبط الحسابات - فإن رينيه (مدير الدخول) يجد نفسه ، مرة أخرى ، مضطراً إلى ملاحقة المباشرين الأقباط في طلب القوائم ، الأكثر وضوحاً وشمولاً لحسابات العامين السابقين (٨٥).

غير أن المباشرين كعادتهم سوف يواصلون حبك مناوراتهم في استهلاك الوقت . ودون أن يعلنوا عن رفضهم في تقديم قوائم أخرى بديلة لما جادوا بتقديمه ، على مدار الفترة السابقة - يتمادون في التسويف والمماطلة عند إبداء أية استجابة لهذا المطلب ؛ ليواصلوا بذلك احتكارهم لهذا النوع من المعرفة الحسابية ، ويفترض أن بدء موسم تحصيل الضرائب قد حال بين الفرنسيين ومعاودتهم استخدام أسلوب الاعتقال أو الحبس . وفي ظل تردى مالية الجيش ، كان من الصعب المجازفة بتكرار تجربة حبس المعلمين الأقباط ، مرة أخرى ، في مثل هذا التوقيت على الأقل .

ويدرك الجميع أنه من الصعوبة بمكان ضبط الرقابة على حسابات المباشرين أو الخيلولة بينهم وبين تحصيلهم « الضرائب السرية » المجهولة في قوائم المفتشين والصرافين الفرنسيين ، طالما لا يوجد لها أصول مرجعية مكتوبة ؛ إذ أن مثل هذه الضرائب قد قرّرت بالعرف ، حتى تسميها بعض المصادر بـ « التكاليف العرفية » . وقد تعددت الشواهد المؤكدة على ذلك ، خلال شهر أكتوبر ١٨٠٠ : كان أولها ما كشف عنه مدير المالية استيف الذى أعلن (فى أكتوبر) عن إبطاله لحصيلة ضخمة ، بلغت ١,٢٩٣,١٤٣ فرنك ، كان مقرراً جبايتها من أهالى القرى . وأنه حمل لجنة المباشرين الخمسة الكبار المسئولية الكاملة فى حال تكرار ذلك (٨٦). وبعدها بأيام قليلة (٩ أكتوبر) يتم رصد مبلغ آخر قدره ٧٥,٠٠٠ فرنك ثم جبايته من الفلاحين بالفعل ، مما اقتضى تنفيذ عقوبة ما ، على هؤلاء المستوفين الأقباط ، ولما عرف منو أنهم مرءوسون لكل من المعلم أنطون أبى طاقة وملطى (عضوا لجنة المباشرين الخمسة) ، قرر إيقافهما عن العمل بالمالية ، باعتبارهما مسئولين عن تلك التجاوزات (٨٧). ويبدى عدم اكتراث بعريضة الشكوى التى رفعها إليه ، والتى حاولا من خلالها إقناعه بأن الأمر لا يعدو أشخاصاً ذوى نيات غير بريئة ، أرادوا النيل منهما ، فى حين أن حساباتهما سليمة ودقيقة ، وأن المحك فى الحكم عليهما

إنما يتأتى من خلال تعيين « أناساً من أهل الفطنة خالين الغرض عن ترونيهم أنتم يقعدوا في ما بيننا ويتبصروا في حال حسابنا وفي النهاية بعد أن يردوا الجواب لجنابكم لكم التبصر في ما تأمرون به ... » (٨٨).

على أن منوبات مقتنعاً بأن قوائم المباشرين مُضللة تماماً ، ولا يمكن مواصلة الاعتماد عليها . ولما كان منشغلاً بتلقى المذكرات والتقارير التي حملت إليه رؤى معينة في الإصلاح المالي - فقد رأى ضرورة أن تهيئة الفلاحين ، في هذه المرحلة على الأقل ، لما سوف يبلوره في مشروعه الإصلاحى : فقد أصدر منشوراً (في ٢٨ أكتوبر ١٨٠٠) فضح فيه أساليب هؤلاء المباشرين ومشايخ القرى في ابتزاز الأهالى ، وبين نزوعهم إلى الاستحواذ على أقصى ما يمكنهم ، من القرى تحت مسميات شاذة وغير مسجلة في دفاتر الميرى وأنه مهموم بحمايتهم ، من جشع هذه الكوادر التي يدعوهم إلى تجاوزها ؛ عبر دفع الضرائب مباشرة للصرافين الفرنسيين بالأقاليم . وشدد أخيراً على ألا يدفعوا شيئاً خارج القوائم المحررة والمعلنة (٨٩) . ولم تكن هذه التوعية ، غير البرئية من الحرص على المصلحة الخاصة ، لتؤتى أكلها مع ممولى الضرائب الذين استبدت بهم الظنون والشكوك فى كل من يطالبهم بدفع الميرى .

وكيفما كان الأمر ، فقد اتضح أنه لا محالة عن إجراء «مسح الأراضى» ؛ للحصول على قوائم واضحة غير غامضة ، تبصر كوادى الرقابة الفرنسية بحقيقة مفردات الضرائب ؛ وتضع حداً للتجاوزات الشاذة التي تلتهم نصيباً كبيراً من الإيرادات المستحقة لخزانة الجيش . وقد مر بنا أن هذا الإجراء هو عين ما نادى به الوكلاء الفرنسيون مراراً ، خلال الفترة الأولى من حكم كليبر ، وأنه تردد ، غير مرة ، فى التقارير التي رفعت لمنو ، خلال صيف ١٨٠٠ . ويفترض بأن إرجاء العمل بهذا الإجراء كان نتاجاً لتطلع الإدارة - بعد حبس المباشرين - إلى الحصول على أصول القوائم من ناحية ؛ ولحذرها - كذلك - من طول الفترة التي سوف يستغرقها المسح من ناحية أخرى ؛ وخاصة وأنها سوف تعتمد على نفسها في إعداد المتخصصين في المسح والقياس ، وفي تدريب العمال المساعدين ، وفي الإلمام بأدوات المسح ونظم القياس ، فضلاً عن إقناع الأهالى بجدوى هذه العملية لهم ؛ حتى لا يشكلوا عقبة أمام إنجازها (٩٠) .

وبلاحظ أن التطورات المتلاحقة ، فى الفترة الأخيرة لم تكن فى صالح الفرنسيين . وهنا تحديدا يلعب الزمن دوره فى حسم الكثير من النتائج : فالفترة الممتدة من أكتوبر ١٨٠٠ إلى يناير ١٨٠١ ينفقها منو فى إعداد وبلورة مشروعه لإصلاح المالية (والقائم بصفة أساسية على مسح الأراضى) ، بينما لم يتم تشكيل «لجنة المساحة» سوى فى الأول من فبراير ١٨٠١ ، وبدء الشروع فى الخطوات الأولى للمسح تتزامن ، لسوء الحظ ، مع دخول العثمانيين والإنجليز فى البلاد ؛ ليتوقف كل المشروع برمته! ، ومن ثم أهدر وقت طويل حتى تم الأخذ بالإجراءات العملية لاستحالة الفكرة إلى واقع .

ولعل هذا يوضح الظرف التاريخى الذى مكن الكوادر المصرية ، حتى نهاية الاحتلال ، من إحكام السيطرة على المعلومات ، ومن فرض الواقع ، بكل مشكلاته وتعقيدات الحسابية ، على الفرنسيين . وهو ما كان مردوده واضحاً على حالة الرقابة ذاتها التى باتت ملامحها باهتة من كل الزوايا ؛ حيث خاض مفتشو الدخول العينية والصرافون الفرنسيون - دون مبالغة - علماً مجهولاً لهم ، برغم كل ما تم رصده من معلومات .

على أعتاب مرحلة قاسية : اتساع حيز الانفلات من الرقابة

وتعد مراسلات مدير الدخول العينية رينيه مصدراً ثميناً ؛ ترصد شواهد عدة على أزمة الرقابة فى الفترة الأخيرة ، وانعكاساتها على تفاقم الأزمة المالية : فقد لاحظ رينيه من خلال معاينته لشئون المقياس ، أن المفتشين لم يلتفتوا إلى أن معظم ما تلقوه من الحبوب كان من « الشعير » ، على حين خدعهم المباشرون واحتفظوا بالقمح والبقول اللذين يدران عليهم ؛ من جراء فروق الأسعار ، أرباحاً طائلة ، التى لاتعرف طريقها إلى خزانة الجيش ، هذا بالإضافة إلى اكتشافه خلطهم الشعير بكميات كبيرة من الملح والتراب وغيرها من الشوائب ! الأمر الذى دفعه إلى تكثيف مراسلاته لمرعوسيه فى الصعيد ، مشدداً عليهم ألا تمرر من تحت رقابتهم مثل هذه التجاوزات الخطيرة^(٩٢) .

ومن ناحية أخرى يتحقق مديرالدخول ، خلال الفترة نفسها من تمرير المباشرين معظم شحنات الحبوب من بين الأقاليم إلى مخازنهم الخاصة (المجهولة) بينما لا يرسلون لشونة المقياس إلا القليل!^(٩٣) وكان ذلك سبباً فى تدنى حصيلة ما يُخزن بالشون

بالمقياس إلى معدل الاستهلاك اليومي ، الأمر الذى أثار اندهاش القائد العام؛ من جراء مخاوفه من انقضاء موسم التحصيل قبل إنجاز الجباية. وإذا به يكيل اللوم على « إدارة الدخول العينية» متهمًا إياها بالإهمال ، فإن مديرها رينيه يفيض به ويكتب إلى مدير المالية استيف محتجاً على ذلك ، ومحللاً لب المشكلة الأساسية ، على نحو بالغ الوضوح ؛ إذ يقول : « إنتى لا أستطيع الحصول على أى نتيجة من المعلمين الأقباط ولا الحصول على كشوف الحسابات التى توضح لى وضعنا الحقيقى ، وبواقى المال الميرى التى تحصلها هؤلاء الجباة بين أيديهم لا يمكننى الحصول على أى من إيراداتها العينية ، حتى أستطيع أن أملأ الشون التى ينسب القائد العام خلوها من الحبوب إلى إهمالى . فما الذى يمكننى أن أفعله، وهم (المعلمون الأقباط) عارفون بضعفى السياسى ؟ إنهم لا يجيبون على تساءولاتى إلا بإجابات غامضة ، فى الوقت الذى لا ينفذون من أوامرى سوى ظاهرها» (٩٣).

لقد حملت هذه الرسالة دلالة واضحة على عجز الإدارة المالية برمتها عن تأمين خدمة التغذية خلال الفترة التالية ، وأن الجنود باتوا على أعتاب مرحلة قاسية وكانت المتابعة اليومية للمنحنى الهابط لحصيلة ما يرد للشون ، قد زادت من قلق القائد العام منو الذى قرر (فى ١١ يناير ١٨٠١) أن يوافيه مدير الدخول بقائمة يومية ، عما يرد للشون من الحبوب ، وما يخرج منها كمؤن لتغذية الجيش (٩٤). ويعلن رينيه لمدير المالية استيف (فى ١٨ يناير) بأنه : « إذا لم أتلق من الصعيد أى رسالة حبوب ، فإن قطاع التغذية سوف يتعرض للتناقص الحاد ، إذ بات خلو الشونة من الحبوب محتملاً !» وهو يدعم رسالته بالبيانات المؤكدة للعجز الصارخ بين معدل التحصيل ومعدل الاستهلاك الشهري : «إن ما تحصل خلال شهر نيفوز (٢١ ديسمبر - ٢٠ يناير) من القمح لم يتجاوز الـ ٣,٧٠٠ أردباً، على حين يصل الاستهلاك الشهري إلى ٥,٨٠٩ أردباً ، وواردات الفول ٢٥٠٠ أردباً ، فى حين حاجة الاستهلاك ٢٦١٧ أردباً ، وطالب فى النهاية بضرورة استخدام كل الوسائل الممكنة التى من شأنها أن تقهر المباشرين على إمدادهم بالحبوب (٩٥). غير أن استيف الذى مارس من قبل كل وسائل التهديد والتضييق والحبس، والتى تمت دون جدوى - يُبدى للقائد العام منو أسفه ومخاوفه من أن استخدام الشدة ، مرة أخرى ، مع هؤلاء الجباة لن يسفر عنه نتيجة ما! (٩٦).

ويرمز اتساع الفجوة ، على نحو مستمر ، بين معدلى التحصيل والاستهلاك ، خلال الفترة التالية - إلى حدوث انقلاب كبير من الرقابة التى بدت عاجزة تماما عن وضع حد لتفاقم أزمة التموين الغذائى للجيش ، وهذا ما يشكل السبب الرئيس فى اتجاه مدير الدخول إلى إصدار أوامره (فى ٥ فبراير ١٨٠١) لكل موظفى إدارته بالأقاليم، بمصادرة كل ما تطوله أيديهم من جميع القرى ، بقطع النظر عما إذا كانت هذه القرى قد وفّت أو ما يزال عليها مستحقات الضرائب! (٩٧).

غير أن الواقع دائماً ما كان يؤكّد صعوبة قهر أهالى القرى على تسليم ما بحوزتهم من الحبوب ، إذ لم يكونوا - كما لاحظنا من قبل - أقل متابعة لما يجرى من تطورات على الساحة السياسية . ويؤكد ذلك أنه مع تواتر الأنباء والمكاتبات السلطانية عن تحرك الجيشين العثماني والإنجليزى - توقفت القرى عن مواصلة دفعها للضرائب (٩٨). ويسارع مدير المالية استيف بإبلاغ منو بهذه الحقيقة المؤلمة (٩٩). ويجد مفتشو الدخول العينية والصرافون - المحصلون أنفسهم مكتوفى الأيدى ، عاجزين عن تحصيل أردب واحد من الممولين. وتشير اللحظ التى يصل خلالها أمر الجنرال بليار (أواخر مارس ١٨٠١) بضرورة التعجيل بسحب جميع القوات الفرنسية من الصعيد - إلى وضع نهاية لتلك المهمة الصعبة التى ناءت بها كواهل هؤلاء المسئولين الفرنسيين (١٠٠). ويتأكد ذلك بصدور قرار بقطع مرتباتهم بدءاً من ٣٠ جرمينال سنة ٩ (١٧ أبريل ١٨٠١) (١٠١).

فى نهاية المطاف : الجيش يبحث عن مؤنّته الغذائية

والواقع أن توقف خدمة موظفى إدارة الدخول العينية فى الصعيد ، لم يعن أن دورها قد تعطل تماماً ؛ فقد ظلت الإدارة تواصل مهامها فى تدبير مؤنّ التغذية للجيش ، وخاصة أن القاهرة أصبحت تحت الحصار ، على حين لم يعد فى الإمكان انتظار وصول إمدادات الحبوب من الصعيد ، من قبل المماليك ، بعد وفاة مراد بك المفاجئة (فى ٢٠ أبريل ١٨٠١)؛ حيث كان موقف خليفته عثمان بك الطنبرجى متذبذباً بين الفرنسيين والإنجليز (١٠٢). وإذا تحتم الاعتماد على التموين الذاتى بالمدينة . غير أن الفرنسيين يُفاجئون بامتناع التجار التسبيين ، ومشايخ البلاد عن إمداد أسواق القاهرة بالحبوب؛ بسبب اضطراب الأمن وشدة الحصار الأنجلو - عثمانى ، وطغيان البدو على الطرق المؤدية للعاصمة (١٠٣).

وتضحى مهمة مدير الدخول أكثر صعوبة ؛ إذ لم يتعين عليه ، فى هذه المرحلة الحرجة ، تدبير الحبوب الضرورية للاستهلاك اليومى فحسب ، وإنما أيضاً بذل ما وسعه لادخار مخزون ما ؛ يُمكنهم من الصمود فى الحرب التى بات اندلاعها وشيكاً . لكن المشكلة الأخرى المستعصية على الحل تظل متعلقة بعدم وجود سيولة كافية بالخزانة التى عقلت ، منذ فترة ، مسألة دفع مرتبات الجيش والموظفين ، الأمر الذى يفسر لجوءهم إلى ضرب المصادرات العشوائية على المارة من الأهالى ، والاستيلاء على كل ما تطوله أياديهم من الحوانيت والأسواق . وعندما يحتج مشايخ الديوان ، لم يجد الفرنسيون غضاضة فى التصريح لهم بأنها الضرورة الحتمية التى نجمت عن « تعطل المال الميرى واحتياج العسكر إلى النفقة »^(١٠٤)، وخلال شهر مايو ١٨٠١ تتزايد المصادرات لكل أنواع التغذية والتى ترصدها يوميات الجبرتى : « أخذت جملة من عدد الطواحين وأصعدت إلى القلعة ، وأكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إليها ... وطلبوا الزياتين وألزموهم بمائتى قنطار شيرج ، وسمروا جملة من حوانيتهم .. وعزت الأقوات وشح اللحم والسمن جداً ، وأغلقت حوانيت الجزارين .. »^(١٠٥)

وكان من المتوقع أن تؤدى المصادرات إلى تعمد التجار وأرباب الحرف غلق حوانيتهم؛ لأجل حماية ممتلكاتهم^(١٠٦)، ويتحقق الفرنسيون من أن اللجوء إلى هذه الممارسات سوف يهدد أمن الجيش تماماً ، ويضطر الجنرالات وكبار المسئولين الإداريين والموظفون المدنيون إلى الدفع بحصيلة مدخراتهم وكل ما ملكت أيديهم لخزانة الجيش ؛ عسى أن يتمكن المسئولون الماليون من تغطية النفقات اليومية الضرورية للجنود الذين انهارت عزائمهم فى مثل هذه الأوقات العصيبة^(١٠٧).

ومع استمرار تطويق العثمانيين والإنجليز الحصار التدريجى على القاهرة تتزايد مشكلة التموين صعوبة ، ويدخل الجيش فى تنافس مع الأهالى على احتكار شراء الأقوات . وإذا تحسم القوة أنفرد الجنود بعمليات الشراء دون الأهالى ، فإن هؤلاء الأهالى - بحسب تعبير الجبرتى - « يُسمع لهم ضجة عظيمة »^(١٠٨)، وينخشى الجنرال بليار (حاكم القاهرة) من اندلاع ثورة شعبية ثالثة ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يمكنه إيقاف

عمليات الشراء التى باتت تملّوها الضرورة الحتمية ، ومن ثم فقد أصدر أمراً يومياً (فى ١٠ مايو ١٨٠١) بأن يحتكر الفرنسيون شراء ثلثى الكمية المعروضة ، وأن يترك للأهالى الثلث الأخير ؛ يتدبرون به ، بطريقة أو بأخرى ، معاشهم ! (١٠٩).

وكيفما كانت الأحداث فى مشهدها الأخير موحية بصورة مسرفة من تدهور الوضع المالى للجيش ، فإن عماله دلّته أن مشكلة تمويل الجيش قد تم إدراجها ، فى المجلس الحربى الذى عقده الجنرال بليار مع كبار القادة العسكريين ، بين الأسباب الرئيسة التى حتمت خيار الكف عن مواصلة الحرب والدخول فى مفاوضات على الجلاء (١١٠).

إن هذه المحصلة الدرامية تظل شاهداً على أن تكثيف الرقابة ، فى المرحلة الأخيرة (فترة منو) ، لم يغير من واقع الأزمة المالية ، ولم يحد من وطأتها ، بل ومن الصحيح كذلك أن الوضع ازداد سوءاً ، بفعل تراكم المؤثرات السلبية للأزمة ويعكس هذا ازدياد قوة تحكم الكوادر المحلية (وفى مقدمتهم المعلمون الأقباط) فى السيطرة على الموارد المالية (١١١). وتؤكد البيانات التى يسوقها سكرتير المالية بيروس ، فى تقريره ، هذه النتيجة : فجهاز الرقابة من المفتشين والمحصلين - تحت إدارة الدخول العينية - لم يمكنه تحصيل أردباً واحداً من الحبوب المستحقة على القرى ، للعام المالى الثالث ١٢١٥ (سبتمبر ١٨٠٠ - أغسطس ١٨٠١) !! وأن كل الجهود التى بذلها هؤلاء المراقبون والصرافون اقتصرت على تحصيل بواقي الميرى المتأخرة فحسب . وحتى فى هذا الجانب كان إنجازهم ، بصورة لافتة للنظر ، محدوداً : فما قاموا بتسوية حساباته ، من هذه البواقي ، لا يمثل سوى ٨,٥ ٪ فقط ؛ حيث لم يورد لشون القاهرة غير ١٣٧,٢٦٢ أردباً من إجمالى البواقي البالغة ١,٦٣٩,٤٠٣ أردباً (١١٢).



يتضح من هذا التناول أن الرقابة على حركة الجباية وحساباتها كانت مسألة بالغة التعقد ؛ إذ لم يجد الفرنسيون أية مصادر للمعلومات سوى القوائم القبطية (الغامضة) التى لم تكن شاملة لكل مصادر الإيرادات . وكان الحل العملى ؛ لكسر هذا الاحتكار متمثلاً فى إجراء مسح شامل لكل الأراضى ؛ لأجل عمل قاعدة بيانات دقيقة وواقعية

وشاملة لكل القرى ولكل مفردات الضرائب. وبرغم أن فكرة المسح لم تكن بعيدة عما تم طرحه من رؤى للإصلاح المالى ، إلا أن الظروف فى مجملها لم تكن ملائمة لإنجازها؛ سواء أكانت متمثلة فى الظروف السياسية غير المستقرة أو لعدم اقتناع القيادة بجدوى استمرار مشروع الاحتلال نفسه .

وترتب على ذلك ان الفرنسيين ، على مدار سنوات الاحتلال الثلاث ، ظلوا يفتقرون إلى الوسائل التى تمكنهم من توسيع حجم معرفتهم بالنظام الضريبى . والصدفة وحدها هى التى كانت تسمح - أحياناً - بتعرفهم على بعض الرسوم المجهولة أو السرية كما كان يحلو للبعض توصيفها . وكان هذا ما برر استمرار حاجتهم إلى الاعتماد على المباشرين الأقباط الذين فشلت الكوادر الفرنسية فى إزاحتهم عن مواقعهم ، حتى لقد بلغ الأمر بالقيادة الفرنسية ، خلال فترة غير قصيرة من زمن الاحتلال ، أن أبدت عدم اقتناعها بجدوى دور هؤلاء المراقبين أنفسهم !!.

وعلى هذا النحو واصل المباشرون الأقباط (فضلاً عن الأفندية ومشايخ القرى) سيطرتهم على المعلومات ومصادر الإيرادات معاً ؛ بالشكل الذى جعل مالية الجيش تعاني من ربكة شديدة . وكان اتساع الفجوة بين الإيرادات والمصروفات ، على نحو مستمر ، قد جعل دورة الأزمة المالية تستغرق عمر الاحتلال ؛ لتشكل تحدياً كبيراً حسم فى النهاية ، ضمن أسباب أخرى ، ضرورة خيار الجلاء وتصفية مشروع الاحتلال .

هوامش الفصل الخامس

- (1) Napoléon Bonaparte : op. cit, p. 275.
- (2) Bonaparte à La Commission administrative, (28 Juillet 1798). Corres., t.4, N^o 2870, p. 270.
- (3) Peyrusse, A: op. cit, p. 450; B⁶ 183 : circulaire de Poussielgue, (30 Sept. 1799); Corres., t.4, N^o 2933, p. 300.
- (4) Ordre du Jour, N^o 2783, N^o 2858, (7 et 27 Juillet 1798); N^o 2916 (1^{er} août 1798), Corres., t. 4, pp. 227, 228, 266, 292.
- (5) Bonaparte à Berthier, (Pour Mettre à l'ordre de l'armée), (14 oct. 1798), Corres., t. 5, N^o 3464, pp. 57 - 58.
- (٦) لعل القائمة التي قدمها المعلم جرجس الجوهري للقيادة العامة تمثل نموذجًا للقوائم المجملية ، والتي أرسلها بونايرت إلى «مجلس الإدارة» في ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ . انظر :
Bonaparte à conseil d'administration, (20 Oct. 1798), Corres., t.5, N^o 3509.
- (7) Tableau général des Montants des Contributions en argent et en grains .. de la province de Thêbes (Kéné), par Lapanouse, (18 Juin, 1799).
- المكتبة المركزية - جامعة القاهرة : محافظ الحملة الفرنسية ، حافظة رقم (186).
- (8) Zayonchek à Reynier, (25 Oct. 1799), Polonais ..., p. 340.
- (9) Zayonchek à Chollet, (3 Av. 1799), Ibid; p. 197; Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Poussielgue, (19 Oct. 1799).
- (١٠) جاء في تقرير «استيف» الذي نشره بـ «وصف مصر» : «أنهم كانوا يخفون عن الملتمزم ، ما كانوا يقتسمونه فيما بينهم ، من عائد لصوصيتهم » .. راجع :
استيف : وصف مصر ، مج ٥ ، ص ٩٠ .
- (11) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Binot, (16 Nov. 1799).
- (12) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé..., t.3, p. 145.

(*) دلجا : من القرى القديمة بمركز ديروط بأسوط . راجع : محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ ، ق ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(13) Boyer à Desaix, (Montfallout), (11 août 1799).

دار الوثائق (قاعة البحث والإطلاع) : محفظة بدون رقم ، تحوى «أصول لوثائق الحملة الفرنسية» ، ملف (20) وثيقة رقم (9).

(14) Zayonchek à Dugua, (14 Av. 1799), Polonais ..., pp. 209 - 210.

(١٥) كريستوفر هيرولد : المرجع السابق ، ص ص ٣٥٤ - ٣٥٥ . ويشير هيرولد إلى أن فريق العلماء قد أحسوا بكمه عميق لجيرار ؛ لاعتراضاته وسخطه عليهم إزاء إنجرافهم خلف ما استهوهم .

(١٦) جيرار : وصف مصر ، مج ٤ ، ص ١٥٦ .

(17) Peyrusse, A : op. cit, p. 467.

(18) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 oct. 1799), Klé..., t.3, p. 146.

(19) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Poussielgue, (18 Oct. 1799).

أشار الوكيل المالى ، فى نص هذه الرسالة ، إلى مضمون الأمر اليومى لكليبر .

(20) Ordre de Kléber, (16 Sept. 1799), Klé..., t. 3, pp. 62 - 63.

(٢١) كان بونابرت قد قرر تخفيض أعداد الموظفين ، قبل رحيله بأسبوعين تقريباً ، وقام كليبر باعتماد هذا الإجراء الضرورى . انظر :

Ordre du Jour, (14 août 1799), Corres., t. 4, N^o 4351, N^o 4352, pp. 557 -8;

Chevalier, M: op. cit, p. 64.

(22) Vincennes, B⁶ 183: Poussielgue à Noble, à chollet, (1 Oct. 1799).

وتشير الرسالتان بوضوح إلى إسناد الدائرة الثانية لرئيسه على حين تتعرف على وكيل الدائرة الأولى بتروشى من خلال توقيعه على قائمة بتحصيل الضرائب العينية والتقليدية . انظر :

"Etat des Sommes perçus .. De L'année 1214, dans la province de Girgé

par Petrucci

المكتبة المركزية - جامعة القاهرة : حافظة (196) ملف (VIII-G) .

- (23) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Poussielgue, (11 Déc. 1799); à Ravier, (14 Déc. 1799), à Tallien, (20 Déc. 1799 et 13 Jan. 1800); à Binot, (26 Déc. 1799).
- (24) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Tallien, (31 Déc. 1799).
- (25) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Poussielgue (18 et 26 Oct. 1799).
- (26) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Binot, (26 Oct. 1799).
- (27) Zayonchek à Boyer, (Beni - Souef), (23 Juin. 1799), Polonais..., p. 268; Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé..., t. 3, p. 145.
- (28) Zayonchek à Poussielgue, (10 Av. 1799); à Dugua, (20 Av. 1799), Polonais..., pp. 203 - 206, 215.
- (29) Zayonchek à Dugua, (20 Av. 1799); à Berthier, (23 Juin 1799), Polonais..., pp. 215, 270; Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Friant, (25 et 28 Oct. 1799); à Pini, (9 Nov. 1799).
- (30) Ordre de Bonaparte, (30 Jan. 1799), Corres., t. 5 , N^o 3923, p. 289.
- (31) Zayonchek à Detrés, (3 Mai. 1799); à Dugua, (17 Mai. 1799), Polonais..., pp. 238, 248 - 9.
- (32) Zayonchek à Dugua, (14 Av. 1799); à Berthier, (23 Juin 1799), Ibid, pp. 209 - 10, 270; Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Poussielgue, (21 Oct. 1799).
- (٣٣) تفيض مراسلات الجنرال زايونتشيك بالمقاومة الفلاحية العنيفة التي احتاج لإخمادها شهراً كاملاً على نحو ما جاء في رسالته إلى الجنرال دوجا قائمقام القاهرة . انظر : Zayonchek à Dugua, (20 Av. 1799), Ibid, p. 216.
- ولمزيد من التفاصيل عن يوميات المقاومة انظر :
- نبيل الطوخى : المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ - ٢١٨ .
- (34) Kléber à Zayonchek, (4 Sept. 1799), Klé..., t. 3, p. 15
- (35) Zayonchek à Kléber, (12 Sept. 1799), Polonais..., pp. 327 - 8.

- (36) Zayonchek aux Commissaires chargés du recouvrement des grains, (13 Sept. 1799), Ibid, pp. 328 - 9.
- (37) Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé., t. 3, p. 145.
- (38) Vincennes, B⁶ 161: Friant à Poussielgue, (7 et 9 Nov. 1799).
- (39) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Friant, (25 et 28 Oct. 1799); à Pini, (9 Nov. et 16 Déc. 1799).
- (40) Vincennes, B⁶ 183: Poussielgue à Zayonchek, (14 Sept. 1799).
- (41) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Tallien, (27 Déc. 1799).
- (42) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à le Maître, (6 Déc. 1799).
- (43) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Tallien, (31 Déc. 1799)
- (44) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Ravier, (5 Déc. 1799); à Mahallem Dgeorgis Edjoari, (26 Déc. 1799); à Tallien, (27 Déc. 1799).
- (45) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Tallien, (4 Jan. 1800); à Dgeorgis Edjoari, (5 Jan. 1800).
- (46) Ravier à Reynier, Minieh, (30 Nov. et 17 Déc. 1799)
- Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à : ملف بدون رقم ؛
Tallien, (2 Jan. 1800)

وفي هذه الرسالة يوضح الوكيل المالي بأن المسح سوف يُمكنه من عمل «القائمة المفصلة»

L'état détaillé

(٤٧) لعل أهم مصدر تفصيلي لشاهد عيان على أحداث حصار وسقوط حصن العريش هو التقرير

الذي كتبه الكابتن بوشار ، وقد حققه ونشره جاستون فييت . انظر :

Bouchard, F. x : La chute D' El-Arich, Journal Historique, (Décembre

1799), préfacé et annoté par Gaston Wiet, De La Revue du Caire, 1945.

- (48) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Tallien, (14 Déc. 1799).

وكان « بوميلج » انضم للجنترال « ديزيه » في تمثيل الجانب الفرنسي في مفاوضات العريش .

(49) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Tallien, (2 Jan. 1800).

(50) Vincennes, B⁶ 161 : Reynier à Friant, (25 Déc. 1799); à Tallien, (27 Déc. 1799).

(51) Kléber à Poussielgue, (6 Mars 1800), Klé..., t. 4, p. 615.

(52) Kléber à Desaix et Poussielgue, (3 Jan. 1800), dans: Kléber et Menou... , p.176.

(٥٣) انظر الفصل الرابع .

(54) Kléber à Dugua, (18 Jan. 1800), Klé..., t. 3, p. 485.

(55) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Mehallem Dgeorgis Edjoari, (5 Jan. 1800); à Friant, (7 Jan. 1800); à Tallien, (Même date).

(56) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Friant, (7 Jan. 1800).

(57) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Tallien, (12 Jan. 1800).

(58) Vincennes, B⁶ 161: Reynier à Tallien, (7 Jan. 1800).

(٥٩) تعد مجموعة مراسلات الوكيل رينيه من بين أهم المصادر التي أحاطت الإدارة الفرنسية

بتفاصيل مهمة للغاية بشأن ممارسات المعلمين الأقباط . انظر : Vincennes B⁶ 161, 162

(60) Peyrusse, A : op. cit, pp. 451, 457.

(61) D' Aure à Estève, (Av. 1800).

دار الوثائق : محافظ الحملة الفرنسية ، محفوظة رقم (٣) .

وتوضح الرسالة أن كليير اضطر إزاء نضوب موارد الخزانة إلى عمل قروض إجبارية من

التجار!!

(62) Peyrusse, A : op. cit, p. 452.

(63) Ordre de Kléber, (28 Av. 1800), Klé..., t. 4, pp. 850 - 854, (Art. 14-16).

(64) Art. 7.

(65) Art. 20.

(66) Damas à Zayonchek, (7 Mai 1800); à Donzelot, (même Date), Polonais...

pp. 405- 6, note (3).

(٦٧) أرشيف المكتبة المركزية - جامعة القاهرة : حافظة (196) ، ملف (VIII-G)

"Etat des Sommes perçue en l compte sur le Nabary et Bayady de l'année 1214, dans la Province de Girgé, par Petrucci"

(68) Rigault , G: op. cit, p. 127.

وفي رأى «ريجو» أن هذه المسألة كانت من بين العوامل الرئيسية التي جعلت مالة الاحتلال تعاني أزمة كبيرة .

(69) Peyrusse. A : op. cit, pp. 466 - 7.

(70) Cité par Rigault, p. 115.

(وتاريخ الرسالة في ٢٤ يوليو ١٨٠٠) .

(71) Ibid.

(وتاريخ الرسالة في ١٨ يوليو ١٨٠٠) .

(72) Vincennse, B⁶ 48 : Rapport du comité au général en chef Menou, (29 Juillet 1800)

(73) Rigault : op. cit, pp. 249 - 250.

(74) Menou au Premier Consul, (12 Oct. 1800), Kléber et Menou..., p. 365;
Peyrusse. A : op. cit, . 453.

(75) Peyrusse, A : op. cit, pp. 453 - 4.

(76) Ibid.

(77) Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Menou, (9 Sept. 1800).

(78) Peyrusse, A: op. cit, p, 470.

(٧٩) إن معظم وثائق هذه الإدارة مصنفة في الأرشيف الفرنسي بـ «فانسان» تحت:

B⁶ 81; B⁶ 82; B⁶ 162.

(80) Vincennes, B⁶ 162 : Reynier à Estève, (9 Sept. 1800); à Martin, (19 Sept. 1800); à Lapanouse, (même date).

(81) Vincennes, B⁶ 162 : Corres. de Reynier aux inspecteurs et payeurs -
receveurs, (Sept. et Oct. 1800).

(٨٢) انظر الفصل الرابع .

(82) Peyrusse, A : op. cit, p. 453.

(83) Rigault, G : op. cit, p. 118.

(84) Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Estève, (9 Sept. 1800); à Garcin, grade
magasin des grains (24 et 25 Sept. 1800).

(85) Vincennes, B⁶ 162 : Reynier aux cinq - Intendants cophtes, (25 Sept.
1800); à Estève, (7 Nov. 1800); à Petrucci, (8 Nov. 1800).

(86) Rigault, G: op. cit, p. 118

(87) Ibid.

(٨٨) «عريضة شكوى رفعها المعلم أنطون أبو طاقية والمعلم ملطى إلى صاري عسكر العام منو»

منشورة في : الصاوى : المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة ، دار الفكر ١٩٨٦ ، ملحق

رقم (٤) ، ص ص ١١٥ - ١١٦ . وسوف يشير الجبرتي (في ٢٨ مايو ١٨٠١) إلى حبس

أنطون أبو طاقية في القلعة ، بسبب عدم اكترائه بتسوية ما عليه من مستحقات متأخرة . انظر :

الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ (يومية ١٥ محرم ١٢١٦ / ٢٨ مايو ١٨٠١) .

(89) Proclamation de Menou aux Habitans de l'Égypte, (28 Oct. 1800).

(والمنشور صادر باللغتين العربية والفرنسية) .

أرشيف المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، حافظة (211) ؛ «كورييه دي ليجيتيت» ، العدد

(٨٧) ، ص ص ٣٢٤ - ٣٢٧ .

(٩٠) إن رسالة نويه (رئيس لجنة المساحة) إلى القائد العام منو ، عشية تشكيل اللجنة ، نشي بإدراك

الفرنسيين لكل هذه الصعوبات . انظر :

نويه إلى منو (٤ فبراير ١٨٠١) ؛ في : كورييه دي ليجيتيت ، العدد (١٠٧) ، ص ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(91) Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Petrucci, (4 et 16 Oct. 1800); à Armand, (
même date); à Lapanouse, (4 et 18 Oct. 1800), à Martin, 4 Oct. 1800).

(92) Vincennes, B⁶ 162: Reynier aux cinq - Intendants cophtes, (17 Oct. 1800).

(93) Vincennes, B⁶ 162: Reynier à Estève, (5 Déc. 1800).

(94) B⁶ 162 : Reynier à Estève, (4 Jan. 1800); à Arnaud, (11 Jan. 1801).

(95) B⁶ 162 : Reynier à Estève, (18 Jan. 1801).

(96) Cité par Rigault, p. 244.

(وتاريخ تقرير استيف في ٢١ يناير ١٨٠١).

(97) Ibid.

(98) Peyrusse, A : op. cit, p. 469;

الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ .

(99) Rigault, G: op. cit, p.316.

(تاريخ الرسالة في ١٩ مارس ١٨٠١).

(100) Vincennes, B⁶ 133: Belliard à Donzelot, (19 et 26 Mars. 1801).

(101) Vincennes, B6 162 : Reynier à Estève, (10 Jan. 1801).

(١٠٢) هنري لورنس : الحملة الفرنسية ، ص ٥٧٩ ؛ ريمون : المصريون والفرنسيون ، ص ٢٢٧ .

(١٠٣) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، (يومية ٩ ، ٢٠ ، ٢٦ أبريل ١٨٠١) .

(١٠٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ (يومية ٢ ذى الحجة ١٢١٥ / ١٠ أبريل ١٨٠١) .

(١٠٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ (يومية ٥ ، ٨ محرم ١٢١٦ / ١٨ ، ٢١ مايو ١٨٠١) .

(106) Histoire Scientifique .., t. 8, p. 256.

(١٠٧) الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ - ٢٩١ .

(١٠٨) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(109) Histoire Scientifique .., t. 8, pp. 258 - 262.

(110) Ibid., t. 8, pp. 74-5 , 256.

ويشير التاريخ العلمى إلى أن إيرادات الجمارك قد توقفت في التوقيت نفسه ، وهو مازاد من العثرة المالية .

(١١١) كانت لجنة الأغذية واللجنة الإدارية ، في فترة كليبر ، هي التى أمكنها الحصول على

٠٨٩, ٢٣٦, ١ أردبًا ، وهو ما يعادل ٧٥٪ من إجمالي البواقي . وظل مستحق على القرى
٣٣٦, ٥١١ أردبًا تعذر تحصيلها حتى رحيل الاحتلال، وهو ما يعادل أكثر من ضعف ما
أنجزته إدارة الدخول العينية !! انظر :

Peyrusse, A : op. cit, p. 473.

الخاتمة

أَلَمَّتْ بالجيش الفرنسى ، على مدار فترة احتلاله لمصر ، أزمة مالية (خائفة) ، شغلت جميع المسئولين الماليين والجنود والضباط والجنرالات حكام الأقاليم ، بشكل لا يقل عن انشغالهم بمواجهة المقاومة المنتشرة فى القرى والأقاليم . ولم يكن الفرنسيون يتصورون أنهم سوف يواجهون حصاراً اقتصادياً فى الداخل ، يتم من خلال جماعات محلية ، لها خبرة عميقة بإدارة النظام المالى والضريبى ، وتتمتع بوعى يقظ بحماية مصالحها ؛ فكل ما كان الفرنسيون يعتقدونه ، فى الحقيقة ، لا يعدو مقاومة تتم فى سياق من المواجهة العسكرية المحضة ، أو على الأكثر الاصطدام بانتفاضات وهبات شعبية ، تعبر عن رفضها للآخر (المحتل) . الأمر الذى يعكس قصوراً واضحاً فى المعلومات التى جُمِعَتْ ، فى عصر الملكية ، عن بنية النظام المالى المعقد ، وطبيعة الطوائف المهنية القائمة على إدارته والمرتبطة به .

ويفسر هذا - فى الواقع - عمق الصدمة التى انتابت الفرنسيين ؛ إذ ليس ثمة مصادر بديلة للإتفاق على مشروع الاحتلال . ولم يكن من الوارد - ألبتة - فى ذهن القيادة أن تعتمد على خطوط طويلة للإمداد والتموين من فرنسا ؛ ليس لوجود الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط فحسب ، وإنما لأن « حكومة الإدارة » - أيضاً - لم تكن مستعدة أو بالأحرى لم تكن قادرة على تحمل تكلفة سياسة التوسع الاستعمارى . وكان هذا واضحاً ، منذ البداية ؛ فتدبير نفقات تجهيز « جيش الشرق » تم من خلال احتلالهم لسويسرا^(١) ؛ ذلك أن الاقتصاد الفرنسى كان يعانى من أزمة اقتصادية طاحنة ، جاءت فى إطار فترة كساد عالمى ، امتدت على مدار الثلث الأخير من القرن الثامن عشر^(٢) . وربما يلحق هذا بظلاله على الظروف التى أملت على بونايرت ضرورة اصطحاب مجموعة ضخمة من العلماء (١٦٧ عالماً فى جميع التخصصات) ؛ ليدفع بهم إلى دراسة أحوال مصر الاقتصادية والطبيعية ؛ بغية التعرف على المصادر المهمة التى تؤمن تغطية نفقات مشروع إقامة مستعمرة فرنسية فى شرق البحر المتوسط .

وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها فريق العلماء ، فضلاً عن المسؤولين الماليين والجنرالات ، في تحرى المعلومات ، إلا أنهم لم يستطيعوا كسر طوق احتكار الكوادر المحلية ، وفي مقدمتها المباشرون الأقباط ، لكل المعلومات المتعلقة بالنظام الضريبي ، والتي بدونها كان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - السيطرة على الموارد الضريبية التي تمثل أهم مصدر يضغط في خزانة الجيش بالإيرادات .

وبات على الفرنسيين أن يخوضوا ، طيلة فترة الاحتلال ، مواجهة شديدة مع المباشرين الأقباط ، وخاصة بعد ما تأكد لهم أنه من غير الممكن البحث عن مصادر بديلة للمعلومات بعيداً عن هذه الجماعة ، ولكن هذه الأخيرة كانت حاسمة لأمرها ، ومدركة - عن وعى تام - بطبيعة المرحلة التي تمر بها ، وبالخطوات (المنظمة إلى حد كبير) التي يجب أن يقوموا - بشكل جماعي - على تنفيذها ، بقطع النظر عن ردود الفعل التي يمكن أن تصدر عن الجانب الفرنسى . ومن ثم فقد واجه الفرنسيون خصماً عنيداً يقاوم ضغوطهم وآلاتهم العسكرية بسلاح المعرفة الحسابية التي يحتكرونها دونهم . ولعل هذا يُرىنا - بجلاء - أن الطائفة القبطية كانت ملتزمة مع سائر طوائف المجتمع في الموقف العام من الاحتلال الفرنسى ، بل ويصح التأكيد على أن رفضهم الإفضاء بما يمتلكونه من معرفة دقيقة بمصادر الإيرادات - كان سبباً رئيساً فى إحكام الخناق على مالية الجيش ، ومن ثم فى جعل استمرار مشروع ضم مصر إلى أملاك فرنسا أمراً مستحيلاً .

وتحت كل الضغوط ووسائل العقاب والتي كان أشدها صعوبة حبسهم - جميعاً - فى غرفة واحدة طيلة شهور صيف ١٨٠٠ - لن يقدموا للفرنسيين سوى قوائم مُضَلَّلَة ، تحجب عنهم حقيقة أعداد القرى فى الريف المصرى ، وكذا العديد من مصادر الرسوم الضريبية . والكثيرون من المسؤولين الماليين والجنرالات سوف يقرون فى تقاريرهم (بما فى ذلك ما نُشر بكتاب «وصف مصر» ، ودفاتر الرابع التى حررها المعلمون الأقباط) ، بأنهم عجزوا عن الإحاطة بكل فروع الضريبة ومصادرها المختلفة ، وأن عدم كفاية معلوماتهم هو ما جعلهم يعتمدون على طرح الاقتراضات ، وعلى تقديم بيانات غير كاملة . وعلى ذلك يتعين أن تؤكد على ضرورة التعامل مع المصادر الوثائقية الخاصة

بالنظام المالى والضريبى ، فى تلك الفترة ، بشئ كثير من الحذر ؛ لأنها على أكثر تقدير، لا تمثل سوى أقصى ما أمكن للفرنسيين رصده أو التعرف عليه . ويظل هذا شاهداً ، من جانب آخر ، على تمكن المباشرين الأقباط والأفندية من الحفاظ على تراث الروزنامة الحسابى ، والحيلولة دون فهم سلطة الاحتلال لكنهه أو الإحاطة بدهاليزه المعقدة .

وعلى هذا النحو ، فقد وقع «جيش الشرق» بين حصارين ، أحدهما ذو طابع عسكرى، يمثله الأسطول الإنجليزى الرابض فى البحر المتوسط على حدود مصر الشمالية ، والجيش العثمانى على الحدود الشرقية ، والآخر ذو طابع اقتصادى ، وهو الأشد من زاوية تداعياته على الجنود والضباط الذين وجدوا أنفسهم ، فى الفترة الأخيرة ، بغير قدرة على تأمين احتياجاتهم الضرورية ؛ فمرتباتهم من ناحية كانت متوقفة؛ بسبب عجز الخزانة المالية عن صرفها ، ومؤنهم الغذائية مهددة بالنفاد من ناحية أخرى ؛ الأمر الذى اضطر القيادة - خلافاً لأسباب أخرى - إلى قبول الدخول فى مفاوضات على الجلاء، ويفشل من ثم مشروع بناء «مستعمرة فرنسية» فى الشرق .

وفى تقديرنا أنه ما كان للمعلمين الأقباط أن يصمدوا فى المواجهة ، لولا قوة تماسك تنظيمهم الداخلى ، والذى فرض على الفرنسيين أن يتعاملوا معهم بصفتهم «جماعة» ، وليس بوصفهم مجموعة من الأفراد ذوات المصالح الخاصة . وشكل هذا صعوبة كبيرة فى اختراق وحدة صفوفهم . يضاف إلى ذلك خبرتهم العميقة بالكيفية التى يحمون بها مصالحهم الجماعية والتى مكنتهم من الحفاظ على مواقعهم الوظيفية لفترة طويلة . وكانت هذه السمات بمثابة شروط أساسية لتحقيق مبدأ «الكفاءة الضرورية» الذى جعل استجابة المباشرين الأقباط للتحدى سريعة ؛ وذلك من خلال اتخاذهم موقفاً أكثر مواردية بين إبدائهم للتعاون (ظاهرياً) ، واتجاههم (قلباً وقالباً) إلى حماية مصالحهم .

وليس توحد المواقف بينهم وبين جماعتى «الأفندية ومشايخ القرى» إلا نتاجاً ، لما يُعرف بـ «الوعى الغريزى» الذى جعلهم يدركون أنهم فى قارب واحد ، إذا ما استسلم أحدهم ، فإنه سوف يخرق ذلك القارب ، ويعرضهم جميعاً للفرق . ومن ثم كان لابد

أن يكون كل منهم رقيباً - بشكل عفوى / تلقائى - على الآخر . وكان الخوف من التورط فى تحمل مسئولية التفريط فى موارد البلاد (إذا ما عادت السلطة الشرعية للدولة العلية وطالبتهم بها الأخيرة) هو الخيط الرفيع الذى جمع شتاتهم وجعل كل منهم يرفض ، تحت كل ألوان المغريات ، وكل أشكال التهديد والعقاب ، أن يُستخدم فى كشف الآخر للمحتل .

وللسبب نفسه تمسك الفلاحون بالألأ يدفعوا الضرائب سوى فى حضور المباشرين الأقباط ؛ إذ كان جميع هؤلاء الممولين على دراية تامة بأن السلطة الجديدة (المحتلة) غير مستقرة ، وأن عمر بقائها قصير مهما طال مداه . وكان أبرز الشواهد الماثلة ، من وجهة نظرهم ، أن الممالك كقوة لم يتم تقويضها ، وفى كل حين ، وعلى مرأى منهم ، يتابعون مشاهدة المواجهات والمطاردات المستمرة بين الممالك والكتائب الفرنسية ، والتي كانت الحقول ، فى كثير من الأحيان ، مسرحاً لها ، كما كان عدم وجود منتصر واضح فى هذه المواجهات العنيفة سبباً فى تعرضهم (الفلاحين) لمداهمات هذين الفريقين المتصارعين على آخر ما بحوزتهم من فائض ، يُضاف إلى ذلك أن العثمانيين والممالك ما فتأوا يُروجون ، عبر المنشورات والمكاتبات التى وُزعت بالأقاليم ، لانباء تحطم الأسطول الفرنسى وهزيمة الجيش الفرنسى فى بلاد الشام ، بالشكل الذى جعل الكثيرين يدركون أن قوة الاحتلال تحت الحصار . وهذا ما يفسر عدم إذعانهم لدفع الضرائب إلا فى اللحظات الحرجة ، وتحت قوة الإرغام التى مثلتها حركة الطوابير العسكرية الفرنسية ، حتى لقد أصبح مناط الاعتماد فى جمع الضرائب على هذه الطوابير !!

ويظل الأثر الأكثر أهمية قاصراً على ما أصاب نظام الالتزام ، وجميع فئات الملتزمين : فلقد قدمت فترة الاحتلال الفرنسى اختباراً أولياً ، لإمكانية الإطاحة بالوسطاء (الملتزمين) وجعل العلاقة مباشرة بين الفلاحين والدولة . ومن غير شك كان تقويض نفوذ الممالك بمثابة الركيزة الأساسية التى عجلت بهذا التطور . ومن الأهمية بمكان التأكيد على أن حاجة السلطة إلى توسيع سيطرتها على معظم الموارد الضريبية

كان الدافع المستمر فى إصرارها على تنحية الملتزمين عن مجمل حيازات الأراضى . ومن هذه الزاوية تحديداً كان للأزمة المالية التى عصفت بمالية الجيش دورها الرئيسى فى اضطرار الفرنسيين إلى وضع مشروع كامل لهدم النظام القديم . غير أن تعقد الظروف فى شتاء ١٨٠١ ، من جراء اقتحام العثمانيين والإنجليز للبلاد ، وضربهم الحصار على القاهرة ، والإسكندرية ، حال دون تحقيق ذلك .

وعلى هذا النحو ، يتضح أن التفكير الجدى ، فى الإجهاز على نظام الالتزام ، قد تمخض عن ظروف عصيبة وغير محتملة ، ولم يكن نتاجاً لهدف أيديولوجى كانت حكومة الاحتلال تُبشر به ، منذ البداية ، وتعمل طوال الوقت على تحقيقه . وبالمثل ليست الظروف التى اضطرت الجيش للجلاء عن مصر هى التى أبقت على مساوىء النظام ، وحرمت الفلاح من التمتع بالملكية . أيضاً لم تكن عقلية ونفسية الفلاح منحطة ، أو أقل نزوعاً لامتلاك الأراضى ، على نحو ما راق للبعض تفسير ذلك . لقد كان هذا ، فى الواقع ، تحاملاً شديداً على الحقائق ، والذى لا يوجد له مبرر سوى الدعاية المستمرة ، والتى يمكن لضجيجها وتكرارها فى المصادر الأدبية أن يطمس الحقائق ؛ فالمسألة ، فى جوهرها ، ليست سوى صراع على التحكم فى الفائض الزراعى ، بين سلطة احتلال محاصرة ، ليس لها من موارد بديلة سوى ما تتحصله من الضرائب ، وبين «أرباب العوايد» القلقين من عدم استقرار الأوضاع ، والمتخوفين من مستقبل بات غامضاً ومحيراً . وكان هذا سبباً فى حالة التوتر الدائم التى غلفت العلاقة ، طيلة فترة الاحتلال ، بين الجانبين .

وعندما استعاد العثمانيون سيطرتهم على مصر حاولوا استغلال حالة الانهاك الشديد التى أصابت المماليك ؛ لأجل تصفية وجودهم السياسى والاجتماعى ، وتعميم سيطرة الدولة العلية على ممتلكاتهم العقارية ، ووضع كل مصادر الدخل تحت إشرافها المباشر . وإذا كان تدخل الإنجليز قد حال دون ذلك ، فإن الظروف سوف تصبح أكثر ملاءمة فى عهد محمد على الذى مضى فى هذا الاتجاه إلى أقصى مدى ؛ إذ حطم قوة المماليك ، وحرر قرى الالتزام التى كانت تخصصهم (أكثر من ٣ / ٤ قرى

الصعيد ، و ٣ / ٢ قرى مصر) ، مما مهد لإلغاء الالتزام وسمح بعمل مسح شامل للأراضي ، أدى إلى تقوية مبدأ ملكية الدولة للأراضي ، ومن المؤكد أن محمد علي توافر له عاملان أساسيان ، لم يتوافرا للفرنسيين ، في تحقيق هذه النتيجة ، ألا وهما : الزمن والشرعية اللذان مكناه من تطبيق سياسة التدرج في تفويض النظام القديم دون الاصطدام بالمجتمع .

علي أن القضاء علي الممالك وإلغاء نظام الالتزام لم يؤد - بالضرورة - إلي إنزواء الكوادر التقليدية (المعلمين الأقباط - الأفندية - مشايخ القرى) ، بل على العكس من ذلك ، كانت حاجة السلطة لدورهم ولخبرتهم الطويلة بالإدارة المالية ، سبباً في استمرار احتفاظهم بمواقعهم ، ولكن بصفتهم - في هذه المرة - موظفين رسميين ، يعملون تحت جناح الدولة المركزية الحديثة .

وبصفة عامة تبدو محصلة تأثير الاحتلال الفرنسي على المجتمع الريفي في صعيد مصر محدودة إلى أقصى حد ، إن لم تكن سلبية في معظمها : فقد كان فشلهم في القضاء على الممالك أو في إلحاق هزيمة ساحقة بهم سبباً في خراب العديد من القرى من ناحية ، وساهمت الأزمة المالية في إهمال الإدارة المالية لشبكة الري من ناحية أخرى . هذا فضلاً عن أن السباق المحموم بين الفريقين في سائر أقاليم الوجه القبلي ، على جمع الضرائب ، في الوقت الذي لم يكن لطرف أن يعترف بما سدده الفلاحون للطريف الآخر - كان قد أفقد الكثيرين الحافز على الإنتاج ؛ حيث اكتفوا بزراعة مساحات معينة ، لم تتجاوز في مجملها - وفقاً لتقدير المراقبين - أكثر من ٣ / ٢ أراضي الصعيد ، وكان هذا نوعاً من المقاومة السلبية التي رمت إلى حرمان الجانبين من الحصول على ضرائب الأراضي التي أهملوا - عن عمد - زراعتها .

وعلى ذلك ، لم يجد الممولون للضرائب في الجيش الفرنسي سوى ممارس جديد لطغيان لا يقل حدة عن مثيله المملوكي . ومن ثم تعد فترة السنوات الثلاث التي استغرقتها هذا الاحتلال واحدة من حلقات الصراع الطويل التي كان الصعيد - لسوء الحظ - نفسه مسرحاً دائماً لها ، بدءاً من الإطاحة بشيخ العرب همام (في عام ١٧٦٨)

والذى انتهت معه فترة من أزهى الفترات المستقرة والمزدهرة فى تاريخ الصعيد ، ونهاية بفرار المماليك من سائر أقاليم الوجه القبلى إلى السودان ، عقب حادث مذبحة القلعة الشهير فى عام ١٨١١ .

ويمكن القول : بأن جيلاً كاملاً من أهالى الصعيد عاش ، على مدار نصف قرن تقريباً ، تحت أتون صراعات مستمرة ، لا ينتهى فصل منها إلاً ليبدأ آخر جديد ؛ ليتواصل هذا الإنهاك الشديد الذى لم يُوضع له حدٌ إلاً بعد أن حسمت السلطة المركزية الصراع لصالحها ، وتبنت مشروعاً متكاملاً للنهوض بالزراعة ، وزيادة الاهتمام بشبكة الري واستصلاح الأراضى ، ومن ثم ، زيادة الإنتاجية ، ولاسيما فى ظل توافر الأمن فى ربوع الريف ، وهو ما لابد قد ترك أثراً أكثر إيجابية على المجتمع الريفى مقارنة بالفترات السابقة بما فى ذلك فترة الاحتلال الفرنسى نفسها والتى كانت - دون تجاوز للحقيقة - أحد فصولها الدرامية .

هوامش الخاتمة

- (1) Jacques Godechot : Les institutions de la France sous la Révolution et L'Empire, Paris 1968, p. 514.

ويوضح جود شوبان مالية فرنسا كانت عاجزة عن تغطية نفقات حروبها ، وأنه لم يكن من سبيل أمام «حكومة الإدارة» إلا الاعتماد على ما تدره البلاد التى يجرى احتلالها من أموال . وأن سويسرا أمدت بونابرت بـ ١٦ مليون فرنك. وأيضاً يشير سكرتير المالية بيروس إلى أن احتلال «مالطة» زود «حملة مصر» بمبلغ إضافي ، زاد عن ٥ مليون فرنك انظر :

Peyrusse, A :op. cit, p. 491.

- (٢) بيتر جران : المرجع السابق ، ص ص ٣٢ - ٣٧ ؛ أندريه جوندرفرانك : الشرق يصعد ثانية ، الاقتصاد الكوكبي فى العصر الأسوي ، ترجمة شوقي جلال ، المجلس الأعلى للثقافة ، العدد رقم (١٣٠) ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ص ٣٥٧ - ٣٦١ .

ملاحق الدراسة

155
Petition De la part de Sages Corps Militaire
Les Signeurs Le Baron propriétaire du village en chef
Du Grand Dessin Du Coire,

2-1-1960
ARCHIVES

leur faire part de l'ordre de nos bons offices
examine et approuve par nous, faisons la somme de
l'ajoutaine sur les terres et la retenue des seigneurs comme
muni qu'ils payaient annuellement, voilà ce qui me faut
Mais à votre intention et de Confisquer les villages et de
confisquer les seigneurs de s'en dispenser après les provisions et
les sommes qu'ils ont en main, nous vous donnons que vous n'ayez point
ainsi que les seigneurs doivent agir. nous savez qu'un seigneur
n'est solvable que par son industrie et autre qu'autant qu'il peut
de disposer de ses propres biens et que la justice se trouve le plus par
des seigneurs les à force, les uns à mettre en gage leur portion de
villages, les autres les brigues de leurs femmes, les autres les meubles
de leurs maisons et tout cela fait beaucoup de peine aux juges et
aux femmes sans ressources. Quant à l'augmentation des impôts
que vous demandez, les seigneurs n'en disent rien et de soumettre
à tout ce que vous jugerez convenable et ils le payeront. Mais
si vous voulez pas qu'ils soient vos juges, et leur laisser de quoi
vivre, permettez leur de porter Dieu avec leurs familles et d'aller
vers ailleurs en y mendiant.

La Ville d'Angers, Espérons que les Sentimens généraux
de la République française, le traitera avec douceur et aura
une compassion singulière pour ce qu'un très haut lui en fera
le bien.

Nous faisons savoir à nos chers membres du Grand
Nyon que nous avons emprunté aux dignitaires français environ
seulement dix mille piastres à l'usage de Million de Contribuables
que nous avons payé à l'Empire français et au dit Detté Commune
vous le savez et à l'apaisement jusqu'à l'apaisement.

De la part du Dept. Capm. du Domaine de
S. M. le Roi.

عريضة احتجاج المستزمين في نصها المترجم إلى اللغة الفرنسية . وقد تم عرضها علي القائد العام منو

فی ۱۵ دسمبر ۱۸۰۰.

مصدر الوثيقة : (B⁶⁵⁸) Archive de l'armée d'orient à Vincennes,

RECEIVED
JAN 10 1964

Nousy au Commanant le
2^e Août 1908 à l'effet de verser
un comite et de donner un avis
le 4^e 1908. Le Commanant a permis
de faire archiver
l'affaire.

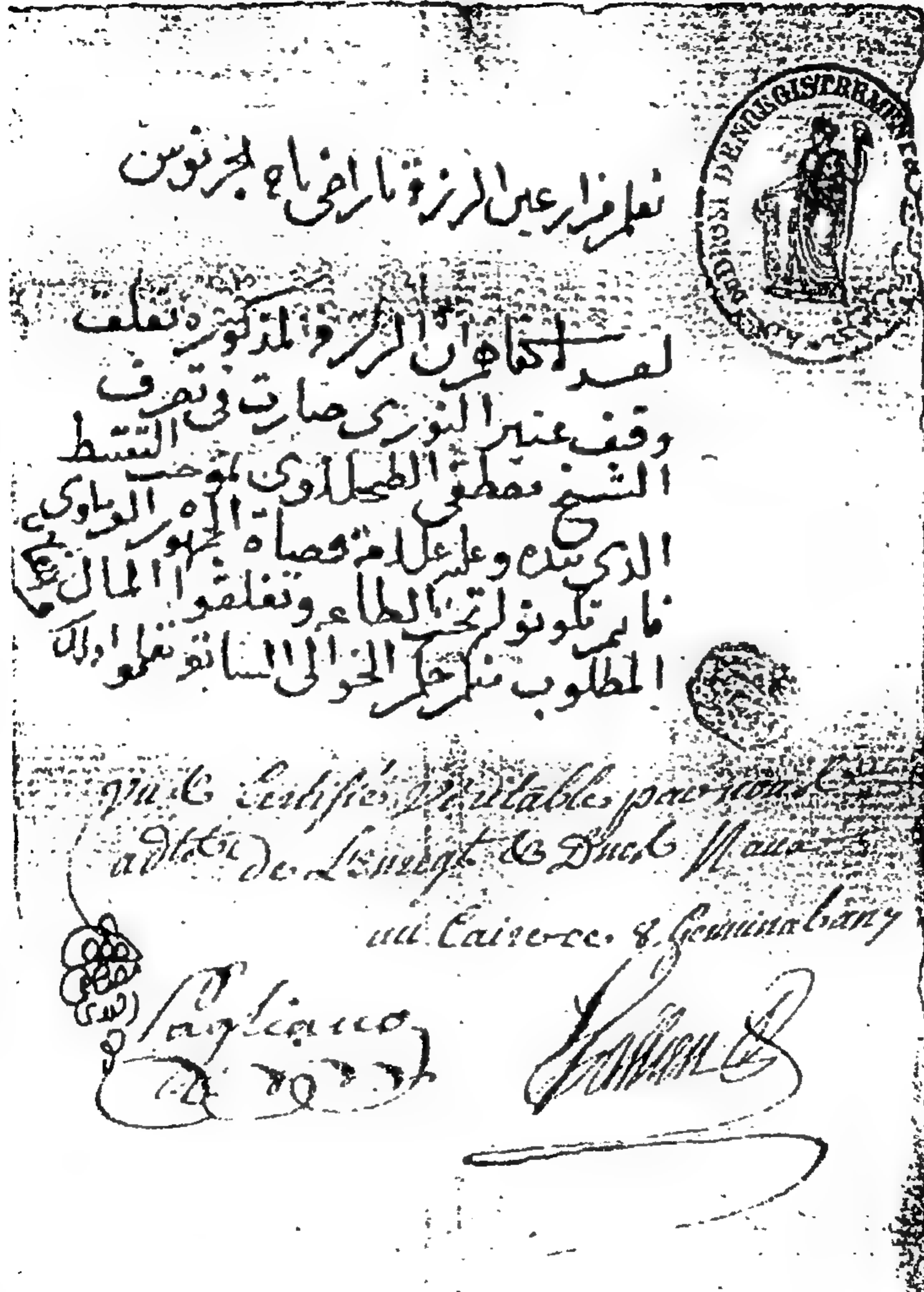
[illegible]

العقير محمد
محمد بن عبد الله
البحراني

ARCHIVED
HISTORICAL
RECORDS

Archives de l'armée d'orient à Vincennes, (B⁶ 81) : مصدر الوثيقة :

ملحق (٥)



- نموذج لشكل «تذكرة التصرف» أو «تذكرة الإخراج» التي كانت تطرح بعد دفع «رسم التسجيل»، وفي الوثيقة يظهر توقيع مصطفى أفندي وباليانو وتاليان كبار أعضاء إدارة التسجيل. وتخص التذكرة «رزقة» بناحية «الجرنوس» بالبهنسا.

مصدر الوثيقة: (B⁶ 81) Archives de l'armée d'orient à Vincennes,

ملحق (٦)

Etat des sommes payées, par la Commission
des grains de Bénisuef; en arbouin, aux Oukils
des villages cy. après dénommés Savoir:

Designation des Villages	Ministère de la Guerre	Sommes payées En pataques de 90 pataques	par
Payé à l'Oukil du Village de Bédet Akhem	P ^{re}	109	30
Payé à l'Oukil du Village de Hagef		100	
Payé à l'Oukil du Village de Bédet Akhem		102	30
Montant des Sommes payées	P ^{re}	311	60

Certifie & certifie par trois Membres de la Commission des
grains de Bénisuef, l'état des sommes payées en arbouin aux
Oukils des Villages cy. dessus, s'élevant à la somme de trois cent
dix-huit pataques de quatre-vingt dix pataques l'une, Et somme payée
Bénisuef (2 H. Unité) on 8 =

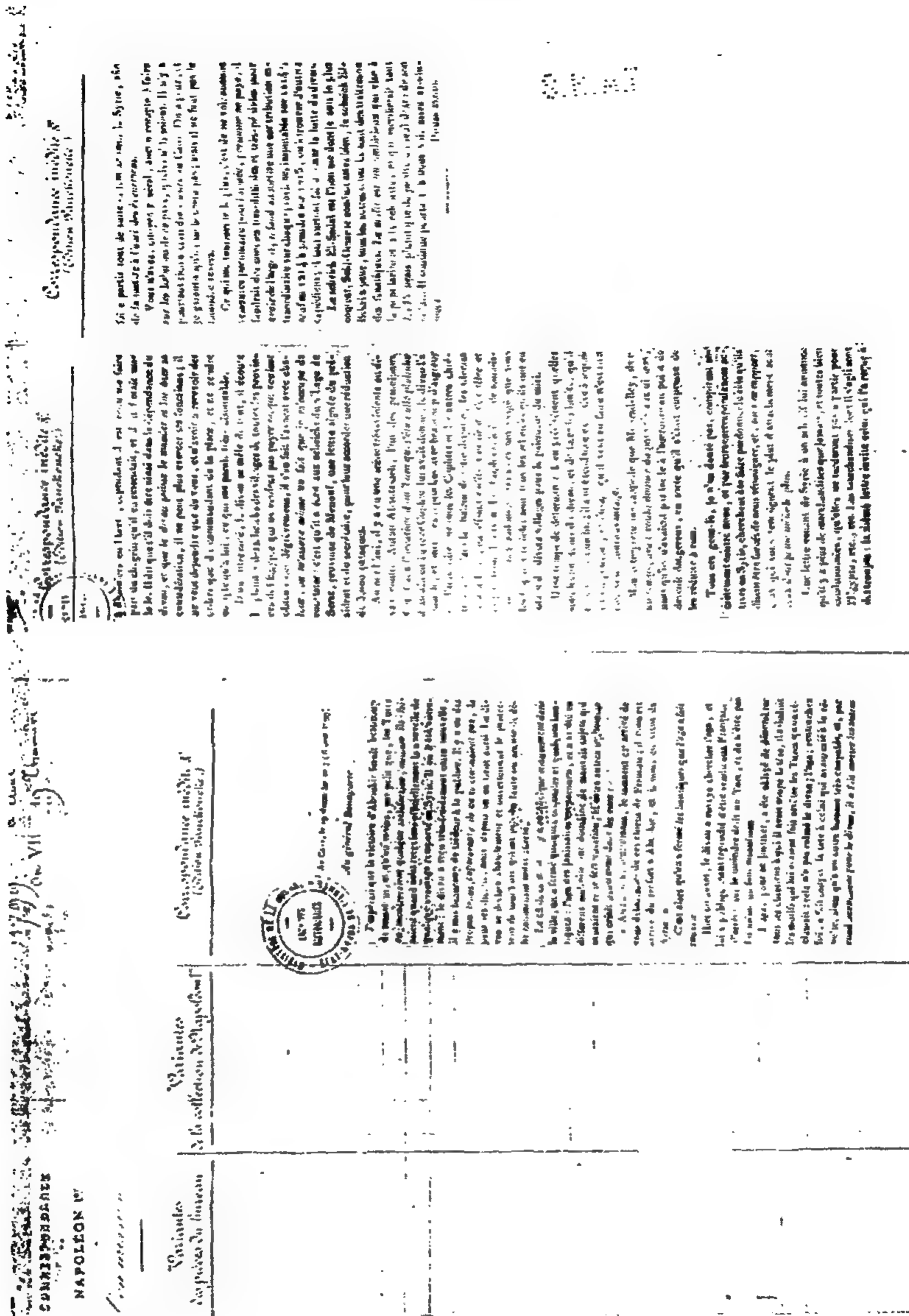
[Signature] *[Signature]*

- قائمة صادرة عن لجنة الحبوب بينى سويف ، بشأن ما جمعه العمال الأقباط (Les oukils)

(Cophites) من الأهالى ، واللجنة تقدم شهادتها على ذلك .

مصدر الوثيقة : (B⁶ 82) Archives de l'armée d'orient à Vincennes,

ملحق (٧)



- تعد هذه الرسالة من بين أهم المراسلات المتبادلة بين مدير المالية بوسيلج والقائد العام بونايرت . ويتضح منها أهمية تدخل «ديوان القاهرة» في الدفاع عن مصالح أهالي القرى ، والمطالبة بتخفيض الضرائب؛ وهو ما أثار امتعاض مدير المالية الذي طالب بوضع حد لتدخل مشايخ هذا الديوان ؛ حتى لا تتعطل جبايات الضرائب .

مصدر الوثيقة : (B⁶ 28) Archives de l'armée d'Orient à Vincennes,

Chlorophyll

Je suis persuadé de voir un jour la France, avant de la quitter, dans une telle situation, que les vœux de tout bon Français se réuniront à ceux de la Nation, et que la justice de ses réformes ne sera plus en dispute avec aucune des préjugés de l'orgueil, de la haine, et de la rage. Je ne suis pas, je le répète, un homme qui se livre à de vaines spéculations, mais à de sages réflexions, et je suis sûr que, si je suis un jour appelé à en rendre compte, je n'en aurai pas de regret.

- تخص هذه القائمة إقليم إسنا ، وتوضح وجود تسحب جماعى للأهالى من قراهم ؛ كما يفسر انخفاض حصيلة الضرائب من الإقليم . كذلك تتضمن القائمة بيانات مهمة عن عدد سكان كل قرية بإقليم إسنا وأسماء كبار مشايخ القرى بها .

مصدر الوثيقة : المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، وثائق الحملة الفرنسية ، حافظة (186).

فتن (۹)

[illegible]

- هذا النموذج من تقرير مطول لقرى إقليم المنيا ، ويتضح منه تعدد المشايخ على كل قرية ، وكل شيخ كان مسئولاً عن حسابات الضرائب لعدد القراري التي تخصه . ومن الجدير بالذكر أن التقرير يوضح أن هناك مشايخ اختصوا بمسئولية قيراط واحد من جملة الـ ٢٤ قيراط .

مصدر الوثيقة: المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، وثائق الحملة الفرنسية ، حافظة (196).

ملحق (١٠)

Berisouf

Etat des Revenus des Villages de la province de Berisouf, tels qu'ils ont été payés pour l'année 1212. et dont les mandats ont été remis pour l'année 1213 comme il est attesté par le rapport du directeur de la province, daté par le Général de brigade Fayoucheff.

Noms des Villages	Revenus l'an 1212	Somme payée aux mandats p. l'an 1213	Reste dû par les villages.
Fechme . . .	2,000 Saq.	1,230 Saq.	761 Saq.
Sind . . .	3,500 .	1,536 7/12.	1,963 5/12.
Safth . . .	2,420 .	2,160 1/12.	259 5/12.
Barth . . .	985 .	342 5/8.	642 3/8.
Salam . . .	979 1/8.	229 1/8.	750 1/8.
Gebint elouakly	958 .	530 .	428 .
	10,862 1/8.	6,038 1/12.	4,824 1/12.

Certifié véritable par nous administrateur
de l'Égypte et de son N. P. de l'Égypte
au Cairo le 23 Messidor An 7^{me}.

Signé Pacha. Marguillon. C. L.

- تبين الوثيقة أن «إدارة التسجيل» التي كان يديرها باليانو وماجلون وتاليان - كانت هي المسئولة عن إدارة حسابات جباية الضرائب في العام المالي الأول ١٧٩٩/٩٨ ؛ ووفقاً لذلك تابع الجنرال زابونشيك (حاكم بنى سويف والقيوم) إرسال قوائم التحصيل لهذه الإدارة .
مصدر الوثيقة : المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، وثائق الحملة الفرنسية ، حافظة (196).

ملحق (١١)

Recette

Reçu	Donneur	Montant	Monnaie	Unité	Centimes	Unité	Centimes	Unité	Centimes
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	26278.04	2415	2077	596	736				
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	523.50	1092	107	679	56	60	6.11		
Total Reçu de l'Administration des Domaines de l'Égypte	26801.54	3507	2184	679	736	60	6.11		
<i>Dépense</i>									
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	6219.7								
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	1621.10								
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	1142.12	107	107	679	56	60	6.11		
Reçu pour argent payé par le Trésorier de l'Administration des Domaines de l'Égypte	101	679	56	60	6.11				
Total Reçu de l'Administration des Domaines de l'Égypte	13432.92	1451	107	679	56	60	6.11		
<i>Balances de Recette et de Dépense</i>									
Total Reçu de l'Administration des Domaines de l'Égypte	26801.54	3507	2184	679	736	60	6.11		
Total Reçu de l'Administration des Domaines de l'Égypte	23430.62	1451	107	679	56	60	6.11		
Total Reçu de l'Administration des Domaines de l'Égypte	3748	2077	2184	679	56	60	6.11		

Signature

- تعد هذه الوثيقة نموذجاً للتوائم المجملة بحصيلة ما تم جبايته من قرى إقليم قنا ، خلال العام المالي الأول (سنة ٧ جمهـور / ٩٨ - ١٧٩٩) ، كما تلقى الضوء على علاقة الوكيل المالي «الفرنسي» بالمباشر القبطي في تنظيم حسابات الضرائب. ويدلّ الأول بشهادته على ما تلقاه من المباشر القبطي خلال موسم الحصاد السنوي ، وتوضح القائمة إجمالى الإيرادات والمصروفات ، وتشير الموازنة بينهما إلى ارتفاع مصروفات جباية الحبوب من الصعيد .

مصدر الوثيقة : المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، وثائق الحملة الفرنسية ، حافظة (186).



ملحق (۱۲)

1881	1882	1883	1884	1885	1886	1887	1888	1889	1890	1891	1892	1893	1894	1895	1896	1897	1898	1899	1900	1901	1902	1903	1904	1905	1906	1907	1908	1909	1910	1911	1912	1913	1914	1915	1916	1917	1918	1919	1920	1921	1922	1923	1924	1925	1926	1927	1928	1929	1930	1931	1932	1933	1934	1935	1936	1937	1938	1939	1940	1941	1942	1943	1944	1945	1946	1947	1948	1949	1950	1951	1952	1953	1954	1955	1956	1957	1958	1959	1960	1961	1962	1963	1964	1965	1966	1967	1968	1969	1970	1971	1972	1973	1974	1975	1976	1977	1978	1979	1980	1981	1982	1983	1984	1985	1986	1987	1988	1989	1990	1991	1992	1993	1994	1995	1996	1997	1998	1999	2000	2001	2002	2003	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020	2021	2022	2023	2024	2025	2026	2027	2028	2029	2030	2031	2032	2033	2034	2035	2036	2037	2038	2039	2040	2041	2042	2043	2044	2045	2046	2047	2048	2049	2050	2051	2052	2053	2054	2055	2056	2057	2058	2059	2060	2061	2062	2063	2064	2065	2066	2067	2068	2069	2070	2071	2072	2073	2074	2075	2076	2077	2078	2079	2080	2081	2082	2083	2084	2085	2086	2087	2088	2089	2090	2091	2092	2093	2094	2095	2096	2097	2098	2099	2100	2101	2102	2103	2104	2105	2106	2107	2108	2109	2110	2111	2112	2113	2114	2115	2116	2117	2118	2119	2120	2121	2122	2123	2124	2125	2126	2127	2128	2129	2130	2131	2132	2133	2134	2135	2136	2137	2138	2139	2140	2141	2142	2143	2144	2145	2146	2147	2148	2149	2150	2151	2152	2153	2154	2155	2156	2157	2158	2159	2160	2161	2162	2163	2164	2165	2166	2167	2168	2169	2170	2171	2172	2173	2174	2175	2176	2177	2178	2179	2180	2181	2182	2183	2184	2185	2186	2187	2188	2189	2190	2191	2192	2193	2194	2195	2196	2197	2198	2199	2200	2201	2202	2203	2204	2205	2206	2207	2208	2209	2210	2211	2212	2213	2214	2215	2216	2217	2218	2219	2220	2221	2222	2223	2224	2225	2226	2227	2228	2229	2230	2231	2232	2233	2234	2235	2236	2237	2238	2239	2240	2241	2242	2243	2244	2245	2246	2247	2248	2249	2250	2251	2252	2253	2254	2255	2256	2257	2258	2259	2260	2261	2262	2263	2264	2265	2266	2267	2268	2269	2270	2271	2272	2273	2274	2275	2276	2277	2278	2279	2280	2281	2282	2283	2284	2285	2286	2287	2288	2289	2290	2291	2292	2293	2294	2295	2296	2297	2298	2299	2300	2301	2302	2303	2304	2305	2306	2307	2308	2309	2310	2311	2312	2313	2314	2315	2316	2317	2318	2319	2320	2321	2322	2323	2324	2325	2326	2327	2328	2329	2330	2331	2332	2333	2334	2335	2336	2337	2338	2339	2340	2341	2342	2343	2344	2345	2346	2347	2348	2349	2350	2351	2352	2353	2354	2355	2356	2357	2358	2359	2360	2361	2362	2363	2364	2365	2366	2367	2368	2369	2370	2371	2372	2373	2374	2375	2376	2377	2378	2379	2380	2381	2382	2383	2384	2385	2386	2387	2388	2389	2390	2391	2392	2393	2394	2395	2396	2397	2398	2399	2400	2401	2402	2403	2404	2405	2406	2407	2408	2409	2410	2411	2412	2413	2414	2415	2416	2417	2418	2419	2420	2421	2422	2423	2424	2425	2426	2427	2428	2429	2430	2431	2432	2433	2434	2435	2436	2437	2438	2439	2440	2441	2442	2443	2444	2445	2446	2447	2448	2449	2450	2451	2452	2453	2454	2455	2456	2457	2458	2459	2460	2461	2462	2463	2464	2465	2466	2467	2468	2469	2470	2471	2472	2473	2474	2475	2476	2477	2478	2479	2480	2481	2482	2483	2484	2485	2486	2487	2488	2489	2490	2491	2492	2493	2494	2495	2496	2497	2498	2499	2500	2501	2502	2503	2504	2505	2506	2507	2508	2509	2510	2511	2512	2513	2514	2515	2516	2517	2518	2519	2520	2521	2522	2523	2524	2525	2526	2527	2528	2529	2530	2531	2532	2533	2534	2535	2536	2537	2538	2539	2540	2541	2542	2543	2544	2545	2546	2547	2548	2549	2550	2551	2552	2553	2554	2555	2556	2557	2558	2559	2560	2561	2562	2563	2564	2565	2566	2567	2568	2569	2570	2571	2572	2573	2574	2575	2576	2577	2578	2579	2580	2581	2582	2583	2584	2585	2586	2587	2588	2589	2590	2591	2592	2593	2594	2595	2596	2597	2598	2599	2600	2601	2602	2603	2604	2605	2606	2607	2608	2609	2610	2611	2612	2613	2614	2615	2616	2617	2618	2619	2620	2621	2622	2623	2624	2625	2626	2627	2628	2629	2630	2631	2632	2633	2634	2635	2636	2637	2638	2639	2640	2641	2642	2643	2644	2645	2646	2647	2648	2649	2650	2651	2652	2653	2654	2655	2656	2657	2658	2659	2660	2661	2662	2663	2664	2665	2666	2667	2668	2669	2670	2671	2672	2673	2674	2675	2676	2677	2678	2679	2680	2681	2682	2683	2684	2685	2686	2687	2688	2689	2690	2691	2692	2693	2694	2695	2696	2697	2698	2699	2700	2701	2702	2703	2704	2705	2706	2707	2708	2709	2710	2711	2712	2713	2714	2715	2716	2717	2718	2719	2720	2721	2722	2723	2724	2725	2726	2727	2728	2729	2730	2731	2732	2733	2734	2735	2736	2737	2738	2739	2740	2741	2742	2743	2744	2745	2746	2747	2748	2749	2750	2751	2752	2753	2754	2755	2756	2757	2758	2759	2760	2761	2762	2763	2764	2765	2766	2767	2768	2769	2770	2771	2772	2773	2774	2775	2776	2777	2778	2779	2780	2781	2782	2783	2784	2785	2786	2787	2788	2789	2790	2791	2792	2793	2794	2795	2796	2797	2798	2799	2800	2801	2802	2803	2804	2805	2806	2807	2808	2809	2810	2811	2812	2813	2814	2815	2816	2817	2818	2819	2820	2821	2822	2823	2824	2825	2826	2827	2828	2829	2830	2831	2832	2833	2834	2835	2836	2837	2838	2839	2840	2841	2842	2843	2844	2845	2846	2847	2848	2849	2850	2851	2852	2853	2854	2855	2856	2857	2858	2859	2860	2861	2862	2863	2864	2865	2866	2867	2868	2869	2870	2871	2872	2873	2874	2875	2876	2877	2878	2879	2880	2881	2882	2883	2884	2885	2886	2887	2888	2889	2890	2891	2892	2893	2894	2895	2896	2897	2898	2899	2900	2901	2902	2903	2904	2905	2906	2907	2908	2909	2910	2911	2912	2913	2914	2915	2916	2917	2918	2919	2920	2921	2922	2923	2924	2925	2926	2927	2928	2929	2930	2931	2932	2933	2934	2935	2936	2937	2938	2939	2940	2941	2942	2943	2944	2945	2946	2947	2948	2949	2950	2951	2952	2953	2954	2955	2956	2957	2958	2959	2960	2961	2962	2963	2964	2965	2966	2967	2968	2969	2970	2971	2972	2973	2974	2975	2976	2977	2978	2979	2980	2981	2982	2983	2984	2985	2986	2987	2988	2989	2990	2991	2992	2993	2994	2995	2996	2997	2998	2999	3000	3001	3002	3003	3004	3005	3006	3007	3008	3009	3010	3011	3012	3013	3014	3015	3016	3017	3018	3019	3020	3021	3022	3023	3024	3025	3026	3027	3028	3029	3030	3031	3032	3033	3034	3035	3036	3037	3038	3039	3040	3041	3042	3043	3044	3045	3046	3047	3048	3049	3050	3051	3052	3053	3054	3055	3056	3057	3058	3059	3060	3061	3062	3063	3064	3065	3066	3067	3068	3069	3070	3071	3072	3073	3074	3075	3076	3077	3078	3079	3080	3081	3082	3083	3084	3085	3086	3087	3088	3089	3090	3091	3092	3093	3094	3095	3096	3097	3098	3099	3100	3101	3102	3103	3104	3105	3106	3107	3108	3109	3110	3111	3112	3113	3114	3115	3116	3117	3118	3119	3120	3121	3122	3123	3124	3125	3126	3127	3128	3129	3130	3131	3132	3133	3134	3135	3136	3137	3138	3139	3140	3141	3142	3143	3144	3145	3146	3147	3148	3149	3150	3151	3152	3153	3154	3155	3156	3157	3158	3159	3160	3161	3162	3163	3164	3165	3166	3167	3168	3169	3170	3171	3172	3173	3174	3175	3176	3177	3178	3179	3180	3181	3182	3183	3184	3185	3186	3187	3188	3189	3190	3191	3192	3193	3194	3195	3196	3197	3198	3199	3200	3201	3202	3203	3204	3205	3206	3207	3208	3209	3210	3211	3212	3213	3214	3215	3216	3217	3218	3219	3220	3221	3222	3223	3224	3225	3226	3227	3228	3229	3230	3231	3232	3233	3234	3235	3236	3237	3238	3239	3240	3241	3242	3243	3244	3245	3246	3247	3248	3249	3250	3251	3252	3253	3254	3255	325
------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	-----

- وثيقة تبين تنظيم حسابات جباية الضرائب كل عشرة أيام ، بحيث يدفع الوكيل الفرنسى بقوائم حساباته ثلاث مرات من كل شهر.

مصدر الوثيقة : المكتبة المركزية - جامعة القاهرة ، وثائق الحملة الفرنسية ، حافظة (212).

ملحق (١٢)

 الذي يعلم به كمال المايح والبلد من الجرح
 بعد إحصاءه لخصوف لما نزل من وجر أبو زيد
 شيخ المايح وقابلوا غزوهم وأغما حصل للناس
 شدة يارب من الحرب والى قتلوا غيره ولحقنا
 خبر صحيح أن كمال نزل علم الجرح المطلب على
 علم المصنع الملى ومن قبل الجرح المطلب على
 أنا تجاوزنا لكم غزوهم وغناهم على جالسهم وحال
 حضوركم لكم تعرفوا ببلدكم ومحل وطولكم وعلمهم
 الله وأنا أسعدكم بخوارقهم ولهم السلام

- تشير الوثيقة إلى الآثار السلبية المدمرة للحرب الدائرة بين المماليك والفرنسيين ، واضطرار
 الفرنسيين إلى الدخول في مفاوضات مع الفلاحين ومشايخ القرى على العودة لقراهم ؛ وإغرائهم بنية الإدارة
 في إعفائهم من الضرائب.

مصدر الوثيقة : (B⁶ 81) Archives de l'armée d'orient à Vincennes,

ملحق (١٤)

بسم الله الرحمن الرحيم
 في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ١٩٦٢ م
 (Dahamka Nov.)

ما نفعكم يا سيدي ان هذا المشروع قبله حكم المقيد عندنا واما ناهية
 نبال صاريف ولا يد والذي كان امرنا بتعيين الغلال الذي
 حرضه بوريك الى مدير الحدود سابق ولذلك انما لم ندخل
 دفتر الميرى واما يورد حسابها علينا في دفتر الخبز يدار لكن
 انما مقبوضه سابق وايضا ان النواحي المذكوره الذي لم عليهم
 غلال ميرى فصحا لكم عنهم واما الذي عليهم غلال الميرى
 الذي في الزام الجمهور لم كتبناه لكم سابق واما الذي في
 الوعايه فهذا شرح المقيد بدفتركم ولكم البقية

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

بأمرات الخراج وهي الامور
 جيج ١٢ ٠٦٢
 امير بوريك ٠٨ ٠٨٤
 امير بوريك ٠٢ ٠٥٢
 قايغ اسفل كافي
 ٠٢ ٠٤٩
 وذلك ككتاب عدم عن الامور

- وتمثل هذه الوثيقة التقرير الذي رفعه «حسين أفندي» (كاتب الميرى وأفندي الملتزمين) لمدير الدخول
 العينية «لويس رينيه»، وذلك عندما طالبه هذا الأخير بتوضيح حالة الـ ١٤ «قربة» التي لم يأت ذكرها في
 «قوائم الميرى» التي قُدمت للإدارة الفرنسية.

مصدر الوثيقة : Archives de l'armée d'orient à Vincennes, (B⁶ 82)

ملحق (١٥)

Dossier 15, doc 11

LIBERTÉ

ÉGALITÉ

REPUBLIQUE

FRANÇAISE

Au quartier-général du Caire le 10 Vend^g,
an 9 de la République Française, une et indivisible.

MENOU, Général en Chef,

Au général Donzelot,

Citoyen général, les odjaklis ne pouvoient ni doivent lever aucune contribution extraordinaire dans les villages qui leur appartiennent; ils ne peuvent y percevoir quelque revenu annuel, et pas un médin au delà. Lever une contribution est un droit qui n'appartient qu'au gouvernement. Les odjaklis sont des propriétaires et non souverains, jouir de leurs revenus, est tout ce qui leur appartient. Quand je les ai imposés au Caire à un million de contribution extraordinaire, j'ai voulu les punir de leur participation à la révolte, mais je n'ai nullement prétendu punir de cette révolte de malheureux fellahs, qui n'y ont pris aucune part. Le million imposé sur les odjaklis doit être pris sur leur revenu annuel, mais ils n'ont aucun droit de prendre un médin de plus de leurs fellahs, qui se trouvoient punis pour une faute qu'ils n'ont pas faite, tandis que les odjaklis en seroient quitte* de leur côté pour mettre une imposition. Vous voudrez donc bien, Citoyen général, faire rendre à ceux qu'ils l'ont payée, la somme de cinq cents dix sept mille cent quarante médins, imposée par le chef des odjaklis. L'ordre du jour du 29 Messidor an 8 est formel à cet égard.

Je vous salue, Citoyen général.

Abj Menou

Amitié et attachement

Abj M.

- ونعود أهمية هذه الرسالة إلى أنها توضح المردود السلبي لسياسة الضرائب الاستثنائية على الريف والفلاحين، وكيف شعرت إدارة القائد العام منو بخطورة نتائجها.

مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية - القاهرة (قاعة الاطلاع): محفظة بدون رقم تحوى أصولاً لوثائق الحملة الفرنسية.

ملحق (١٦)

الحال المرفوعة	البريد المرفوعة	البريد المرفوعة	البريد المرفوعة
١٣	١٢٠	٥٢٤٢٢	١٠٠
١	١	١٠٠	١٠٠
٠٠	٠٠	١٠٠	١٠٠
٠٠	١	٣٦١	٠٠
٢	٢	٧٧٤	٠٠
١	١٣	١٣٧١	٠٠
٠٠	٠٠	٢٣٦	٠٠
٢	٢	٢٠٠	٠٠
٤	١٠	٠٠	٠٠
١	٩	٦٧٩٢	٠٠
٢	١٢	٠٠	٠٠
٣	٣	١٣٣٨	٠٠
٣	٥	١١٧٨	٠٠
٠٠	٠٠	٢٦١٠	٠٠
٠٠	٠٠	٣٢٣	٠٠
٤	٢٠	٣٨٠٠	٠٠
٠٠	٠٠	٤٨٥	٠٠
٠٠	٠٠	٤٤٠	٠٠
٠٠	٠٠	٦٥٠	٠٠
٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
٣٦	٢٠١	٦٥٥٩٢	٠٠

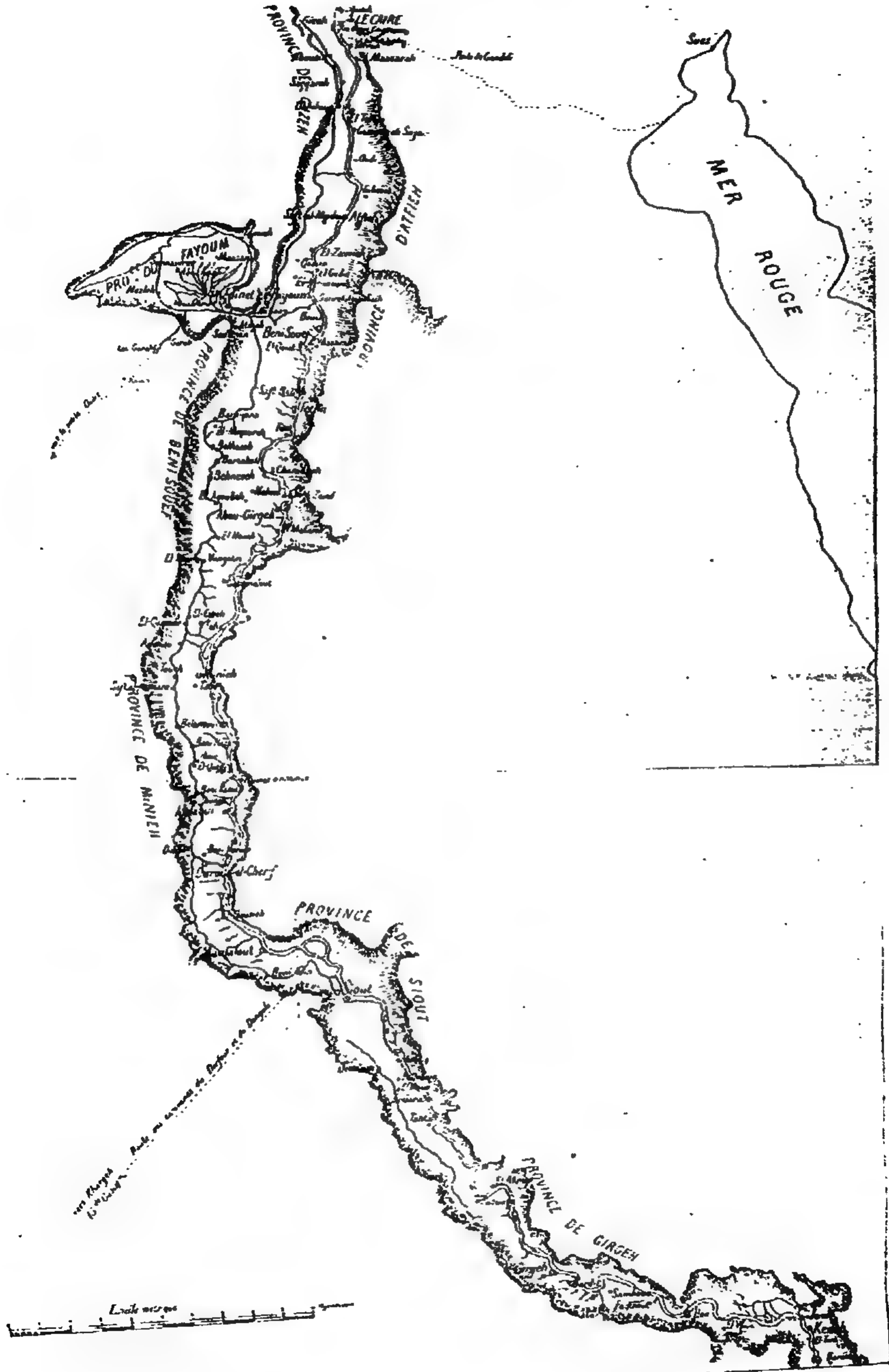
أنا هذا الذي ذكره في هذا التقرير، في أواخر عهد كليبر، على «الرجعة»؛ كإجراء جديد، حاولت به الإدارة الفرنسية التصدي لبعض أساليب المباشرين الأقباط في المراوغة والتلؤف في تسديدهم للضرائب. ويؤكد الوكيل الفرنسي في نهاية التقرير على ما تم استلامه من المعلمين الأقباط وفقاً للـ «الرجعات».



هذا النموذج يؤكد اعتماد الفرنسيين، في أواخر عهد كليبر، على «الرجعة»؛ كإجراء جديد، حاولت به الإدارة الفرنسية التصدي لبعض أساليب المباشرين الأقباط في المراوغة والتلؤف في تسديدهم للضرائب. ويؤكد الوكيل الفرنسي في نهاية التقرير على ما تم استلامه من المعلمين الأقباط وفقاً للـ «الرجعات».

مصدر الوثيقة: المكتبة المركزية - جامعة القاهرة، وثائق الحملة الفرنسية، حافظة رقم (196).

أقاليم صعيد مصر في عام ١٧٩٩



(وفقًا لخريطة المهندس الشهير « جاكوتان » من علماء الحملة الفرنسية) ، نقلًا عن :

C. De La Jonquière : L'Expédition d'Égypte, t. 5, p. 277.

ثبت الوثائق والمصادر

أولا : الوثائق غير المنشورة :

- أرشيف دار الوثائق القومية (بالقاهرة)

(أ) وثائق قاعة البحث والإطلاع :

محفظة بدون رقم تحتوى على مجموعة كبيرة من الوثائق الأصلية . وتقع فى ٣٨ ملف ، تتفاوت أحجامها بحسب ما تتضمنه من الوثائق . ومن الأهمية الإشارة إلى أن جزء كبيراً منها يتعلق بالصعيد ، وبكيفية إدارة شئونه المالية . وتأتى فى شكل مراسلات متبادلة بين الجنرالات حكام أقاليم الصعيد والقيادة العامة ، وخاصة فى فترة القائد العام منو . ولعل أهم المراسلات ما كان متعلقاً بالجنرالين دونزلو Donzelot (حاكم أسبوط وألمنيا) ، والجنرال بوايه Boyer (المطارد لمراد بك والمماليك بين قرى الصعيد) ، إلى جانب مراسلات منو نفسها والتي تغطى شهور عام ٩ (١٨٠٠ - ١٨٠١) .

Correspondances de Menou, Général en chef.

(ب) محافظ الحملة الفرنسية :

وتحوى هذه المحافظ أوراقاً منسوخة عن أصول الوثائق الفرنسية المودعة فى الأرشيف الفرنسى بـ «فينسان» Vincennes . وتقع فى ٥٧ محفظة . ومن الصعب تمييز محافظ بعينها تدور حول موضوع واحد ، وبدرجة أقل بالنسبة لمراسلات وأوراق شخصيات معينة . وكان أكثر ما اعتمدت عليه الدراسة ، فيما يتعلق بالشئون المالية، تحت أرقام : ٣، ٤، ٦، ١١، ١٥، ١٨، ١٩، ٣٠، ٤٢، ٤٦، ٥٠ .

(ج) ترابيع الأموال الديوانية بالولايات :

- دفتر ترابيع ولاية الفيوم ، لسنة ١٢١٣ ، سجل رقم (٢٢٥٧) ؛ لسنة ١٢١٥ ، سجل رقم (٢٢٧٦) .

- دفتر ترابيع ولاية الأشمونين ، لسنة ١٢١٣ ، سجل رقم (٢٢٦٤) .

- دفتر ترابيع ولاية بهنساوية ، لسنة ١٢١٥ ، سجل رقم (٢٢٧٩) .

- دفتر ترابيع ولاية منفلوطية ، لسنة ١٢١٣ ؛ سجل رقم (٢٢٦٤ ، ٢٢٦٥) ؛ لسنة ١٢١٤ ، سجل رقم (٢٢٧٠) ؛ لسنة ١٢١٥ سجل رقم (٢٢٧٨) .

- دفتر ترابيع ولاية جرجا ، لسنة ١٢١٣ سجل رقم (٢٢٦٧) ؛ لسنة ١٢١٥ سجل رقم (٢٢٨١ ، ٢٢٨٢) .

- دفتر ترابيع ولاية جيزة . لسنة ١٢١٥ سجل رقم (٢٢٧٥) ؛ لسنة ١٢١٦ سجل رقم (٢٢٨٦) .

- دفتر ترابيع ولاية أسبوط ؛ لسنة ١٢١٥ سجل رقم (٢٢٨٠) .

(د) سجلات المحاكم الشرعية :

- محكمة منفلوط الشرعية (إشهادات) ، سجل رقم (٤) ، (يغطي الفترة من ١٢١٢ إلى عام ١٢١٤) .

- محكمة إسنا الشرعية (إشهادات) ، سجل رقم (٥٠) ، (يغطي الفترة من ٢٢ محرم إلى ١٥ ذى الحجة ١٢١٣) ؛ رقم (٥١) ، (يغطي الفترة من ٢٠ ربيع أول إلى ٣ شوال ١٢١٤) .

ثانيا : وثائق الحملة الفرنسية بالمكتبة المركزية - جامعة القاهرة :

وهي مجموعة كبيرة من الوثائق الأصلية وتقع في ٢٢١ حافظة، وتشتمل على مجموعة متميزة للوثائق المالية الخاصة بالصعيد :

- محفظة بدون رقم :

(تضم مجموعة مراسلات الأمير مراد بك ، وتشتمل على ٥٨ رسالة تغطي الفترة من مايو ١٨٠٠ إلى أبريل ١٨٠١) .

- حافظة رقم (186) :

- Récapitulation totale de toutes les sommes .. que le copte mallem Mina a reçues .. à Esné, (25 Juin 1799) .

- Tableau général du Montant des contributions de la province

de Thêbes (18 Juin 1799), par Lapanouse.

- Tableau général des villes et villages, de la province d'Esné.

– حافظة رقم (196) :

- Etat des contributions en grains des villages de la province de Girgé, rédigé par L' Intendant, (22 Jan. 1799).

ملف (VIII - Q)

- Etat des sommes perçues de la province de Girgé, par Petrucci.

ملف (VIII - G)

- Etat des sommes perçues et des dépenses de la province de Thêbes (Kéné), (2Fev. 18 Juin 1799).

ملف (III)

- Rapport sur les finances et les contributions de la province de Girgé par Morand

ملف (VIII - F)

- Tableau des contributions de la province de Girgé en argent, an7 (1798 - 99).

ملف (X)

- Tableau de l'impôt et des contributions de la province de Girgé par Petrucci.

ملف (VIII - E)

– محافظة تحت رقم (197) :

- Villes de la Haute- Égypte par le Général Donzelot.

ملف (X - A)

– حافظة رقم (211) :

- Proclamation de Menou aux habitants de l'Égypte, (28 Oct. 1800).

ملف (III - a)

ثالثا : أرشيف وزارة الحرب (الخدمة التاريخية للجيش البرى) بقلعة
فينسان

Archives du Ministère de la guerre, service historique de l'armée
de terre, au château de Vincennes, Paris.

وهو أرشيف ضخيم ، يشتمل على ٨٤ محفظة (تضم المراسلات - Les Corre-
spondances) ، إلى جانب ١٠٢ سجل تتعلق بأوراق ومراسلات وتقارير
وأوامر يومية لشخصيات مهمة قيادية وإدارية . وقد صُنِفَت المجموعتان (المحافظ
والسجلات) تحت «وثائق جيش الشرق» Armée d'Orient⁶ B وقد اعتمدت الدراسة
بصفة خاصة على الوثائق المتعلقة بالشئون المالية ، ونشير هنا إلى أهمها :

- Carton B⁶ 47: Notes sur le mode de possession des terres par
Mohallem Jacob, Lutf - Alla et Hussein Effendi, (3 Juillet
1800).

- Carton B⁶ 58:

« عرض حال من الوجاقات السبعة ومن كامل أعيان الملتزمين ومن بعض الحريمات
الملتزمين خطاباً إلى حضرة مديرين الديوان العمومى ».

وقد تُرجمت الشكوى إلى الفرنسية وعُرضت على القائد العام «منو» فى ١٥
ديسمبر ١٨٠٠ تحت عنوان :

pétition de la part de sept corps Militaires de tous les seigneurs
et Dames propriétaires des Village en Égypte au Grand Divan du

Caire, (15 Déc. 1800).

- Carton B⁶ 59 :

Quelques idées sur L'Égypte par le Général Tousard (31 Déc. 1800).

- Carton B⁶ 81:

(وهي من أهم المحافظ المتعلقة بمالية الصعيد وتشتمل على تقارير بعضها صادر باللغتين الفرنسية والعربية) :

- Etat des Recettes et dépenses en argent et en grains de la province de Thêbes pour les années 1212 et 1213 Kénéh (12 Déc. 1799).

- Compte donné en Arabe par Mallem Mikaël Matta .

- Correspondance du Divan du Caire (1799).

- Comptes relatifs aux revenus en nature de la Haute - Égypte .

- Compte de l'impôt et contributions de la province de Girgê pour l'an 1212 et 1213.

- Contribution en grains, imposée sur la province de Syout en 1214. (compte donné par Mallem Boctor Intendant).

- Ordre aux paysans d'El Djornous (de Bahnassa) 1799).

- Recettes du Miri Multézimes (1801) par Hussein Effendi.

- Multésimes des provinces de Beni -Souef, Miniet, Girgê, Syout et Atfiely.

- Multésims des provinces de la Haute-Égypte, par Hussein Effendi, pour l'an 1214.

- إعلام العمال ناحية صفط أبو جرج بولاية البهنساوية ، (١٢ سبتمبر ١٧٩٩)

(والنص العربى مصحوب بترجمة فرنسية ، وجاءت مهوره بتوقيع وخاتم مدير المالية بوسيلج) .

- إعلام لكامل مشايخ وفلاحين ناحية أبو جرج « بدون تاريخ .

- مجموعة كبيرة من إيصالات الفلاحين التى تتضمن ما هو مستحق فى ذمتهم

quittances des paysans

- «رسالة مباركة تضمن علم ما حمل من الغلال الميرى عن سنة ١٢١٣ ، محرر

بمجلس الشرع الشريف بناحية بيا الكبرى بولاية البهنساوية .

- « عرض حال لأحد الفلاحين بولاية البهنساوية » بدون تاريخ وبإمضاء جلوتيه

Goultier (مدير المالية بالإنبابة أواخر عام ١٧٩٩) .

- Carton B⁶ 82 :

- Correspondances de Hussein Effendi des Multésimes.

- quittance de Mohallem Michaël Matta (Intendant de Beni - Souef).

- ديوان مدينة الفيوم إلى صارى عسكر الجمهور حاكم الولاية البهنساوية والفيومية

(١٢١٤هـ / ١٧٩٩ - ١٨٠٠) .

- قائمة مباركة بعلم ثمن الأغنام والغلال المبيع بالفيوم فى عهدة مباشرين الولاية

لسنة ١٢١٤ .

- Carton B⁶ 94 : Circulaires d' Estève, Payeur Général de l'armée d'Orient et ordre du jour (1799 - 1800) .

- Carton B⁶ 110 : Correspondances du Général Dugua.

- Carton B⁶ 133 : Correspondances du Général Belliard.

- Carton B⁶ 161 : Correspondances de Reynier (agent Français à Fayoum et Beni - Souef).

- Carton B⁶ 162 : Correspondances de Reynier (Directeur des revenus en nature).

رابعاً : المخطوطات

- مجهول : تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ تسعين ومايه وألف « (يقع في ٣٢ ورقة) المكتبة الوطنية بباريس ARABE, N° 1856 .
- محمد بن يوسف جوريجي جمليان هياتم : صور الفرامانات الصادرة من أمراء الفرنسية في مصر في مدة الثورة ، مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات العربية رقم ١٠٠ تاريخ - سوهاج .

خامساً : الوثائق المنشورة

- Copies of original letters from The French Army in Egypt, London 1800.
 - Correspondance de Napoléon 1^{er}, publiée par ordre de L'Empereur Napoléon 111, 32 vols, Paris 1858 - 70.
- وقد استخدمنا المجلدين الرابع والخامس المتعلقين بمراسلات بوناپرت الصادرة خلال إقامته بمصر .
- Guitry (commandant) : L'Armée de Bonaparte en Égypte, (1798 - 1799), Paris 1897.
 - Kléber en Égypte, 1798 - 1800 , 4 Vols., présentation et notes par Henry Laurens, (IFAO), 1988.
 - Kléber et Menou en Égypte depuis le départ de Bonaparte, Documents publiés pour la Société d' Histoire contemporaine, par Rousseau (François), Paris 1900.
 - Lettre de M. Poussielgue, Accompagnée de pièces justificatives à M. Thiers, Autour de l' Histoire du consulat et de l' Empire, Paris 1845.

- Pièces diverses relatives aux opérations Militaires et politiques de général Bonaparte, Paris an 8 (1799 - 1800).
- Pièces diverses et correspondances relatives aux opérations Militaires et Politique de l'Armée d'orient en Égypte, Paris an IX (1801).
- Pièces officielles de L'Armée d' Égypte, Paris an IX (1801).
- Les Polonais en Égypte, (1798 - 1801), presentation et notes Adam Skalkowski, Paris 1910.
- ونحتوي على مراسلات ويوميات الجنرال زايونشيك Zayonchek في الصعيد .
- Quelques Firmans concernant les relations franco - turques lors de l'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798 - 1799), par Joseph Kabrda, Paris 1947.

سادساً : الدوريات الفرنسية

- لا ديكاد ايجيسييه La Décade Égyptienne .
- كورييه دي ليجيت Le Courrier de l' Égypte
- وقد ترجمهما صلاح الدين البستاني ، ونشرهما تحت عنوان : صحف بوناپرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، دار العرب للبستاني ، القاهرة ١٩٧١ .

سابعاً : المصادر العربية والمعرية

- إستيف : وصف مصر (النظام المالي والإداري في مصر العثمانية) ، ترجمة زهير الشايب ، مج ٥ ، القاهرة ١٩٧٩ .
- جيرار ، ب.س : وصف مصر (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) ، ترجمة زهير الشايب ، مج ٤ ، القاهرة ١٩٧٨ .
- حسين أفندي : ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، تحقيق محمد

- شفیق غربال ، نشرها فی مجلة كلية الآداب ، تحت عنوان « مصر عند مفترق الطرق » (١٧٩٨ - ١٨٠١) ، مج ٤ ، ج ١ ، القاهرة ١٩٣٦ .
- دی شابرول : وصف مصر (المصريون المحدثون) ، ترجمة زهير الشايب ، مج ١ ، القاهرة ١٩٨٩ .
- عبد الرحمن الجبرتی : تاریخ مدة الفرنسيين بمصر ، (محرم ١٢١٣ - رجب ١٢١٣ / يونيه إلى ديسمبر ١٧٩٨) ، تحقيق ونشر وترجمة موريه ، ليدن ١٩٩٥ .
- _____ : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٩٨ .
- _____ : عجائب الآثار فی التراجم والأخبار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، (أربعة أجزاء) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٩٨ .
- فولنی : ثلاثة أعوام فی مصر وبر الشام ، ترجمة إدوارد البستاني ، بيروت ١٩٤٩ .
- لانكريبه : وصف مصر (الريف المصری فی عصر المماليك والعثمانيين) ، ترجمة زهير الشايب ، مج ٥ ، القاهرة ١٩٧٩ .
- نقولا الترك : ذكر تملك جمهور فرنساویة الأقطار المصرية والبلاد الشامیة ، تحقيق ياسين سويد ، دار الفارابی ، بيروت ١٩٩٠ .

ثامناً المصادر الفرنسية

- Bouchard, F.X : La chute d' El-Arich, Journal Historique, (décembre 1799), préfacé et annoté par Gaston Wiet, de la Revue du Caire, 1945.
- Denon (Vivant) : Voyage dans la Basse et la Haute- Égypte,

- présentation de Jean- Claude Vatin, Le Caire (IFAO), 1989.
- Desvernois (Général) : Mémoires du général baron, 1789 - 1815, publiés par Albert Dufourcq, Paris, 1989.
 - Moiret, J.M : Mémoires sur L'Expédition D'Égypte, paris 1984.
 - Napoléon Bonaparte : Campagnes d' Égypte et de Syrie, présentation par Henry Laurens, Imprimerie Nationale Éditions, 1998.
 - Peyrusse, A : Les Finances de L'Égypte pendant L'occupation française, La Revue Britannique, 1882, (pp. 437 - 497).
 - Reybaud L. et autres : Histoire Scientifique et Militaire de L'Expédition Française en Égypte, 10 vols., Paris (1830 et 1836) .
 - Reynier (Général) : State of Egypt after the Battle of Heliopolis, translated from the French, London 1802.

تاسعاً : رسائل علمية غير منشورة

فاطمة الحمراوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٨ .

عاشراً : المراجع

(١) المراجع العربية والمعرية

- أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة في مصر ، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .
- _____ : المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة ، دار الفكر ، العدد (٩) ،

القاهرة ١٩٨٦ .

- أندريه جوندرفرانك : الشرق يصعد ثانية ، الاقتصاد الكوكبي فى العصر الأسويى ،
ترجمة شوقى جلال المجلس الأعلى للثقافة ، العدد رقم (١٣٠) ،

القاهرة ٢٠٠٠ .

- أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون فى مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، ترجمة بشير السباعى
، عين للدراسات والنشر ، ط١ القاهرة ٢٠٠١ .

- _____ : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر ، ط١ ، القاهرة
١٩٩٤ .

- بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠ ، ترجمة محروس
سليمان ، مراجعة رءوف عباس ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٩٢ .

- رءوف عباس ، عاصم الدسوقي : كبار الملاك والفلاحون فى مصر (١٨٣٧ - ١٩٥٢)
دار قباء بالقاهرة ١٩٩٨ .

- روبر سوليه : مصر ولع فرنسى ، ترجمة لطيف فرج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
القاهرة ١٩٩٩ .

- زخريس الأنطونى (الراهب القس) : يوسابيات ، وهى مقالات الأسقف القديس الأنبا
يوساب الأبح ، القاهرة ١٩٨٩ .

- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ، ج١ ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ .

- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة
١٩٨٦ .

- كرسنوف هيرولد : بونايرت فى مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، مراجعة محمد أنيس ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ .

- كينيث كونو : فلاحو الباشا ، الأرض والمجتمع والاقتصاد فى الوجه البحرى ١٧٤٠ -
١٨٥٨ ، المجلس الأعلى للثقافة العدد (١٣٦) ، القاهرة ٢٠٠٠ .

- ليلي عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ، جزءان ، دار الهلال ١٩٩٨ .
- نبيل الطوخي : صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧ .
- نبيه كامل داود : الحملة الفرنسية على مصر في ضوء كتابات الأقباط المعاصرين لها ، في : أسبوع القبطيات السابق ، كنيسة العذراء بروض الفرج ، القاهرة ١٩٩٨ .
- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ .
- محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٥٢ .
- هنرى لورنس (وآخرون) : الحملة الفرنسية فى مصر ، بونابرت والإسلام ، ترجمة بشير السباعى ، دار سينما ، ط ١ ، ١٩٩٥ .
- _____ : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر ، الاستشراق المتأسلم فى فرنسا (١٦٩٨ - ١٧٩٨) ، ترجمة بشير السباعى ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩ .

(ب) المراجع الأجنبية

- Abbas, R : Bonaparte's Expedition as a shock for Egypt, Mohamed Ali and The Rebirth of Egypt. (Forthcoming).
- Chevalier, M: "La politique financière de L'Expédition d'Égypte", Cahiers d'histoire égyptienne, t.8 (1956).
- C. De La Jonquière : L'Expédition d' Égypte, 5 vols., Paris (1899 - 1907).
- Fargette, G. : Méhémet Ali, Le Fondateur de l'Égypte moderne, Paris 1996.

- Godechot, J : Les institutions de la France sous la Révolution et l'Empire, Paris 1968.
- Homsy, G : Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Égypte, (1798- 1801), Marseille 1921.
- Ibrahim El Mouelhy : L'Enregistrement de la propriété en Égypte durant l'occupation française (1798 - 1801), Bulletin Institut d'Égypte, t. xxx, 1949, (pp. 197 - 228).
- New Redhouse (Turkish - English) Dictionary, Istanbul 1968.
- Rigault, G: Le Général Abdallah Menou et la dernière phase de l'Expédition d' Égypte (1799 - 1801) , Paris 1911.
- Shaw, S. J : Ottoman Egypt in the age of the French Revolution, Harvard 1964.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم:	٧
المقدمة:	١٥
الفصل الأول:	٢٥
الفرنسيون ونظام الالتزام	
الفصل الثانى:	٥٧
إدارة الجباية بقرى الجمهور	
الفصل الثالث:	٩٣
إدارة الجباية بقرى الرعايا	
الفصل الرابع:	١٣٥
المباشرون الأقباط وإدارة الجباية	
الفصل الخامس:	١٩٣
الكوادر الفرنسية ودورها فى الرقابة على الحسابات المالية	
الخاتمة:	٢٣١
ملاحق الدراسة:	٢٣٩
الوثائق والمصادر :	٢٥٩

صدر فى هذه السلسلة

- ١- الأصول التاريخية لمسألة طلابا ، دراسة وثائقية .
د. يونان لبيب رزق .
- ٢- مجمع اللغة العربية ، دراسة تاريخية .
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى .
- ٣- التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده
د. زكريا سليمان بيومى .
- ٤- الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث .
د. محمد كمال يحيى .
- ٥- رؤية فى تحديث الفكر المصرى ، الشيخ حسين المرصفى وكتابة رسالة الكلم الثمان مع النص الكامل للكتاب .
د. احمد زكريا الشلق .
- ٦- صياغة التعليم المصرى الحديث ، دور القوى السياسية والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣-١٩٥٢ .
د. سليمان نسيم .
- ٧- دور مصر فى افريقيا فى العصر الحديث .
د. شوقى عطا الله الجمل .
- ٨- التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩ .
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد .
- ٩- المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ - ١٩٤٥ .
د. لطيفة محمد سالم .
- ١٠- الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان، دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ - ١٨٤٨ .
د. نسيم مقار .
- ١١- حول الفكرة العربية فى مصر، دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر .
د. فؤاد المرسى خاطر .
- ١٢- صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ - ١٩١٢، دراسة تاريخية.
د. يواقيم رزق مرقص .
- ١٣- الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .
د. سامية حسن ابراهيم .
- ١٤- العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤ .
د. أحمد دياب .
- ١٥- حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين .
د. أحمد عصام الدين .

- ١٦- مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا .
د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم .
- ١٧- رؤية فى تحديث الفكر المصرى، دراسة فى فكر أحمد فتحى زغلول .
د. أحمد زكريا الشلق .
- ١٨- صناعة تاريخ مصر الحديث ، دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى .
د. حمادة محمود إسماعيل .
- ١٩- الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥-١٩٥٢، من ملفات الخارجية البريطانية .
د. لطيفة محمد سالم .
- ٢٠- الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧- ١٩٤٨ .
د. عادل حسن غنيم .
- ٢١- الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣، جمعية الانتقام .
د. زين العابدين شمس الدين نجم .
- ٢٢- قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ - ١٩٣٦ .
د. زكريا سليمان بيومى .
- ٢٣- فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤ .
د. حلمى أحمد شلبى .
- ٢٤- الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى أفريقيا .
د. شوقى الجمل .
- ٢٥- تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤ .
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد .
- ٢٦- جمعية مصر الفتاه ١٨٧٩، دراسة وثائقية .
د. على شلش .
- ٢٧- السودان فى البرلمان المصرى ، ١٩٢٤ - ١٩٢٦ .
د. يواقيم رزق مرقص .
- ٢٨- عصر حكيان
د. أحمد عبد الرحيم مصطفى .
- ٢٩- صغار ملاك الأراضى الزراعية فى مديرية المنوفية ١٨٩١ - ١٩١٣ .
د. حلمى أحمد شلبى .
- ٣٠- المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى .
د. سعيدة محمد حسنى .
- ٣١- دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ .
د. عاصم محروس عبد المطلب .
- ٣٢- الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ .
د. إسماعيل محمد زين الدين .

- ٣٣- دور الاقاليم فى تاريخ مصر السياسى .
د. حمادة محمود اسماعيل .
- ٣٤- المعتدلون فى السياسة المصرية .
د. أحمد الشربينى السيد .
- ٣٥- اليهود فى مصر .
د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد
- ٣٦- مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .
د. الهام محمد على ذهنى .
- ٣٧- المعتدلون فى السياسة المصرية .
ماجدة محمد حمود .
- ٣٨- مصر والحركة العربية .
د. محمد عبد الرحمن برج .
- ٣٩- مصر وبناء السودان الحديث .
د. نسيم مقار .
- ٤٠- تطور الحركة النقابية للمعلمين المصريين ١٩٥١ - ١٩٨١ .
د. محمد أبو الاسعاد .
- ٤١- الماسونية فى مصر .
د. على شلش .
- ٤٢- القطن فى العلاقات المصرية البريطانية ١٨٣٨ - ١٩٤٢ .
د. عاصم محروس عبد المطلب .
- ٤٣- المفكرون والسياسة فى مصر المعاصرة .
د. محمد صابر عرب .
- ٤٤- السودان فى البرلمان المصرى .
د. يواقيم رزق مرقص
- ٤٥- طوائف الحرف فى مصر ١٨٠٥ - ١٩١٤ .
د. عبد السلام عبد الحليم عامر .
- ٤٦- مصر ومنظمة المؤتمر الاسلامى ١٩٧٩ - ١٩٨٧ .
د. عبد الله الأشعل .
- ٤٧- السياحة فى مصر خلال القرن التاسع عشر ١٨٩٨ - ١٨٨٢، دراسة فى تاريخ مصر
الاقتصادى والاجتماعى .
د. السيد سيد أحمد توفيق دياب .
- ٤٨- حوادث مايو ١٩٢١، صفحة مجهولة من ثورة ١٩١٩ .
د. حمادة محمود اسماعيل .

- ٤٩- حدود مصر الغربية، دراسة وثائقية .
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد .
- ٥٠- الدور الأفريقي لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
د. شوقي الجمل .
- ٥١- مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر ١٨٠٥ - ١٨٧٩ .
د. الهام محمد على ذهني .
- ٥٢- الصحافة المصرية والحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال ١٨٨٢ - ١٩٢٢ .
د. رمزي ميخائيل .
- ٥٣- المؤرخون والعلماء في مصر في القرن الثامن عشر .
د. عبد الله محمد عزباوى .
- ٥٤- الحزب الديمقراطي المصري ١٩١٨ - ١٩٢٣ .
د. أحمد زكريا الشلق
- ٥٥- الخطاب السياسى الصوفى في مصر
د. محمد صبرى الدالى
- ٥٦- الطيران المدنى في مصر
د. عبد اللطيف الصباغ
- ٥٧- تاريخ سيناء الحديث
د. صبرى العدل
- ٥٨- الجسد والحداثة: الطب والقانون في مصر الحديثة
د. خالد فهمى
- ٥٩- مصطفى النحاس رئيساً للوفد
د. مختار أحمد نور
- وبين يديك العدد (٦٠)
- ٦٠ - الفرنسيون في صعيد مصر
د. ناصر أحمد إبراهيم

تتميز هذه الدراسة بأنها تتناول مجالاً مهماً من مجالات مقاومة المصريين لسلطات الاحتلال الفرنسي، وهو المجال المالى والاقتصادى، وتكشف كيف أن الفرنسيين واجهوا حصاراً اقتصادياً ومالياً خانقاً فى داخل البلاد، قامت به جماعات محلية كانت تحتكر الخبرة بإدارة الجهاز المالى والضرائبى، استطاعت من خلال حجب المعلومات ومراوغة سلطات الاحتلال وتضليلها، أن تكلفها خسائر فادحة، وحالت دون تمتعها بموارد البلاد المالية والسيطرة على إدارتها.. لقد استخدم المصريون سلاح «المعرفة الحسابية» فى مقاومة المحتل بكفاءة ومقدرة حالت دون تدفق أموال الضرائب المفروضة على المصريين إلى خزانة الجيش الفرنسى على نحو لم يتوقعه أو يقدره الفرنسيون، مما ساهم فى إفشال مشروعهم الاستعمارى فى النهاية.

وتبرز هذه الدراسة كيف أن المصريين جميعاً، أقباطاً ومسلمين، كانوا فى هم المقاومة سواء، الأفندية والمباشرين الأقباط منهم أو مشايخ القرى والمتعهدين من المسلمين، فقد وجد الوعى الفرىزى بينهم فى المقاومة، وأثبتوا أن محاولات الفرنسيين تقريب فئة من هؤلاء أو أولئك باءت بالفشل والخسران.

